
إيريك دو كيرميل
مكتبة
ساحة
الأعشاب
مكتبة ٥٧٢
رواية
قُلْ لي ماذا تقرأ،
أقُلْ لكَ مَن أنت.
المركز الثقافي العربي

مكتبة 572

إيريك دو كيرميل

مكتبة ساحة الأعشاب

الكتاب

مكتبة ساحة الأعشاب

تأليف

إيريك دو كيرميل

ترجمة

مصطفى الورياغلي

الطبعة

الأولى، 2019

عدد الصفحات: 272

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-943-2

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com



العنوان الأصلي للرواية:

Eric de Kermel

La libraire
de la place aux Herbes

رسوم:

كامي بنشينا

(Camille Penchinat)

إيريك دو كيرميل

مكتبة | 572

مكتبة ساحة الأعشاب

قُلْ لي ماذا تقرأ،
أقُلْ لكَ مَن أنت.

رواية

ترجمة

مصطفى الورياغلي



المركز الثقافي العربي

الفهرس

مقدمة

كان يا ما كان...

هكذا تُستهلُّ الحكايات التي تُسحرنا.

كان يا ما كان، كانت مكتبة.

بهذه الطريقة يحملنا إيريك دو كيرميل إلى داخل حكاية رائعة.

كان يا ما كان، كانت ناتالي، أستاذة الآداب، من باريس.

لم تعد تتحمَّلُ العيشَ في المدينة الكبيرة. تريد أن تُغيِّر حياتها، لكن من دون أن تُغيِّر زوجَها. رغبة مزدوَجَة، غريبة بعض الشيء في أيامنا هذه.

تكرّرت زياراتُهم لمدينة أوزيس، ذات الـ8573 نسمة من السكان، كنز منطقة الغارد، ومدينة الفنِّ والتاريخ.

لِـمَ لا يقضون بها بقية حياتهم، بدل أن يزوروها في العطل فحسب؟

يُجيبُهُم القدرُ: «لكم ما تريدون!».

ويصادف أن توضَع مكتبةٌ للبيع، في زاوية ساحة الأعشاب.

وهكذا تبدأ المغامرةُ.

ما معنى مكتبة؟

بنكٌ مركزيٌّ من صنفٍ شديد الخصوصية. لا تُصنعُ فيه العملةُ. أو تُصنع فيه تلك التي تسمحُ بأن يحلم المرءُ نفسَهُ، ثم أن يرغب في أن يكون حُرّاً.

يحضر الزبائنُ إلى تلك المكتبة، وسرعان ما يصبحون أصدقاء. وبسرعة، على صورة ناتالي، يُقرِّرون أن يتغيَّروا.

لأن الكتاب، الكتاب الحقيقي، يَهُزُّكَ من الداخل. يُوقِظُ فيكَ مملكةَ الرغبات، وشَعْبَ الممكنات، وجيشَ «لِمَ لا؟» المُتَمَرِّدَ.

ومثلما أننا، معشر البشر، نختلف بعضُنا عن بعض، كذلك لا يُشبهُ كتابٌ كتاباً آخر. فالكتاب الذي قد يؤثر في الواحد، قد لا يكون له أيُّ أثر في الآخر. لكلٍّ حماسُه. وكلُّ قراءةٍ هي سَفَرٌ وعشق.

كان يا ما كان، كانت تسعُ شخصياتٍ تبحثُ عمّا لا تعرفُ ما هو. وتقول لنا هذه الحكاية ما جرى لهم، ما أن فتحوا كتابَهم.

مكانٌ يخلقُ روابط.

ولذلك، فهذه الحكاية، هي أولاً قصة عرفان بالجميل.

شكراً للمكتبات، وللذين واللواتي يُحيونها، ويُحيوننا!

الإنسانُ، رجلاً وامرأةً بطبيعة الحال، ابتكر الكتب.

والعكسُ صحيحٌ كذلك: أيُّ فقرٍ وأيُّ تكرار مُمِلٍّ سنكون لولا الكتب؟

كان يا ما كان، في مدينة أوزيس القديمة والجميلة، مكتبة جديدة...

إيريك أورسينا

إلى إيليز، لوسيل وسيدوني...

احرصوا على ألّا تفترس الحياة حلمكم.

ناتالي

أو كيف غيّرتُ حياتي



فقدان الذاكرة العابر.

يمكن أن يحدث ذلك مرةً أو مرتين في حياةٍ واحدة.

فجأةً يفقد المرءُ مؤقتاً الذاكرة. قواهُ العقليةُ سليمةٌ، لكنه لم يعد يعرفُ أين هو، أو ما الذي فعله البارحة، أو تاريخ اليوم.

الأمر ليس خطيراً؛ قد يدوم لساعاتٍ معدودة.

لا يُفسِّرُ الباحثون أسبابَ هذه الظاهرة بشكلٍ جيّد.

يمكن أن ينتج فقدانُ الذاكرة العابر عن ارتفاع الضغط، أو الإجهاد، أو عن أسباب نفسية مختلفة.

كأن الدّماغ يوفِّرُ بذلك الحمايةَ لنفسه، مثله مثل انكسار صمّامِ داخل قاطِعِ دارةٍ كهربائية في العدّاد.

هذا ما قاله لي الطبيبُ، الذي استدعاه ناثان على عجل، بعد أن سألتُهُ مراتٍ عديدة، وعينايَ تُحملقان فيه بفزع، عن سبب جلوسه إلى جانبي لتناول الفطور.

وبما أنّ الرعشة وارتفاع الضغط لم يكونا التفسيرَ الملائم، فقد نظرتُ إلى ناثان وقلتُ له:

- قد يكون حانَ الأوانُ لنتركَ باريس... لم أعد أطيقُ المدينة. إنها تستهلكني.

ولا أريد أن أجحد فضل العاصمة. فقد استمرأنا، في شبابنا، سهرَ ليالي باريس، مجتمعين، شديدي التلهُّف على معارض الفن،

منخرطين في مسرح المدينة، ومختلفين إلى الأقبية للإنصات إلى مجموعات الجاز القادمة رأساً من الولايات المتحدة.

وأفلحنا، قدر المستطاع، في أن نُربِّيَ إيليز وغيوم في شقتنا ذات الحجرات الأربع، الواقعة في شارع لاروكيت.

وبعد أن كبر الولدان، صرتُ كلما انصرم الزمنُ، ازداد شعوري بالاختناق، فأضطرُّ إلى أن أحتميَ خلف دِرْعٍ يزداد ثقلُهُ كلَّ يوم، لكيلا أسمع الضوضاء، ولا أستنشق الروائح، ولا أتحمَّلَ عدوانية النظرات، وتَدافُعَ المترو، ووسخَ الشوارع.

المقاومةُ تعني، في الغالب، أن يخنق المرءُ حساسيتَهُ، وأن يزيد من صلابته، إلى أن يحلَّ اليومُ الذي ينهار فيه الدِّرع.

قرّرنا أن نغادر باريس في الصيف الموالي، بعد أن حصل غيوم على شهادة الباكالوريا. لم يتبقَّ لنا مَنْ ننتظرُهُ سواهُ، لأن إيليز كانت قد انتقلَت إلى مدينة آرل، طالبةً في المدرسة الوطنية العليا للتصوير.

ناثان مهندسٌ معماريٌّ. كان يؤكّد، كلما عدنا من عطلة إلى باريس، أنه يستطيع أن يتّخذ لنفسه مكتباً أينما شاء. غير أنّ تلك النية سرعان ما كانت تغمرها الانشغالاتُ اليومية، ويجب أن أعترف أني لو كنتُ أرغبُ في أن يتحقق ذلك، كان عليَّ أن أواصل الأمر من جهتي.

في الغالب، كانت اندفاعاتُه تنشأ بعد أيام معدودة نقضيها في منطقة كروزون بمحافظة الفينيستير. وقد ابتدأ عشقي لكروزون بلقائي مع ناثان. كنّا كلانا نتدرّبُ على الملاحة الشراعية لدى غليناس[1]

---

(1) غليناس (Glénans): مدرسة فرنسية للملاحة الشراعية، تعملُ بشكلٍ مجاني وتطوّعي باعتبارها منظمة غير ربحية. -المترجم-

عندما قمنا بأوّل رحلة بحرية حقيقية لنا حول شبه الجزيرة. عملنا شريكين فوق السفينة نفسها، فصرنا شريكين في الحياة كلها.

ومنذ ذلك التاريخ، سافرنا كثيراً إلى هناك، حيث كنا نقيمُ في بيت صيادين صغير، اشتريناه منذ أن تمكنّا من أن ندَّخر بعض المال، وحتى قبل أن نشتري سيارة.

يوجد البيتُ وسط حقول نبات الخلنج، على بعد خطوات من رأس دينان، منظر بطاقة بريدية حقيقي في منطقة بريطانيا.

لكنني كنتُ في العمق ابنة الجنوب، فكانت بعضُ إقاماتنا في أثناء عيد القديسين وعيد الفصح، حيث ساعات الشمس في بريطانيا تُعدُّ على رؤوس أصابع اليدين، تكبحُ حماسنا الصيفيّ.

كنتُ في ذلك العهد أُدرِّسُ الأدبَ في الأقسام النهائية بثانوية مونتيني.

كنتُ أحبُّ تلاميذي وكانوا يبادلوني الحبَّ بمثله.

كان تلاميذ الأقسام الأدبية شديدي الفضول والحماس، فيسمحون لي أن أتجاوز معهم المقرّرات، لأجعلهم يكتشفون كُتّاباً يُعتبرون مرشدين حقيقيين للأدب الأقل أكاديمية.

لكن الأقسام العلمية، كانت تشكِّلُ تحدِّياً في كل سنة. فالأدب لم يكُن يعني لهم سوى إمكانية للحصول على نقاط إضافية في الباكالوريا، وكان رهاني أن أعمل على إسقاط الأسوار العاطفية لأولئك الشباب المولعين بالرياضيات، لأمنحهم الفرصة لاكتشاف عالم آخر: غريب، وأحياناً لا عقلانيّ، وشديد البُعد دائماً عن عالم ديكارت الذي اعتادوا عليه.

كنتُ أُفلحُ، كلَّ سنة، في أن أجتذبَ بعضَ التلاميذ إلى تلك الضِّفاف الجديدة. فكانوا يكتشفون حينئذٍ أنّ العالم إنما هو شكٌّ أكثر من يقين، وشِعرٌ أكثر من معادلات.

كان توجيه أولئك التلاميذ في الغالب نتيجةَ عدم اختيار. فمن كان متفوِّقاً في الرياضيات، كان يملك «الحظَّ» ليُوَجَّهَ نحو الشعبة العلمية. وكلُّ اختيار آخر كان سَيُعدُّ إهداراً. تكوَّنت هذه القناعةُ بعد الحرب العالمية الثانية، وكانت متداولة سواء بين المدرّسين أو بين الآباء. إنّ الطفل المهندسَ يصير فخرَ والديه أكثر بكثير من لو أنه توجّهَ نحو الفنون والآداب.

فالحرب العالمية الثانية لم تقتل الرجالَ والنساءَ فحسب، بل قتلت، أيضاً، الآداب لصالح الأرقام، والمُعلِّمَ لصالح المهندس.

اكتشفنا أوزيس ذات يوم من يناير.

من اليسير الوقوع في هوى أوزيس في الشتاء، جالسين حول مائدة في شرفة، أمام شطيرة جبن ماعز مرشوشة بزيت الزيتون.

تدين المدينة الصغيرةُ بجمالها لتاريخها. فقد آوَت هذه الإمارةُ الدُّوقية الأولى في فرنسا، أسياداً وأساقفةً، كان كلُّ واحد منهم يريد أن يمتلك قصراً يعكسُ مَقامه. تمنح الأبوابُ القديمةُ، والنوافذُ ذوات الأعمدة بشرفاتها المشغولة والأفاريز التي تعتليها الأبراجُ، الإحساسَ بالوجود داخل وسطٍ حوفظ عليه بشكل تامٍّ. فقد سمح قانونُ «مالرو» الذي يُدعِّمُ تجديد التراث القديم، ومهندسون معماريون لامعون في مجال المعالم التاريخية الفرنسية، بترميم أوزيس وتحويلها إلى ما هي عليه الآن: كنزٌ من كنوز عصر النهضة.

كان مجيئنا إلى أوزيس بمثابة ما يسمّى في العادة اختيار الحياة، بل إنني اعتقدتُ لفترةٍ أنه اختيار حياتنا معاً. في الحقيقة، اتخذنا هذا القرار نحن الاثنين، لكنني سرعان ما وجدتني أعيش وحدي بسبب كثرة تنقلات ناثان ذهاباً وإياباً.

اكتشفتُ حياةَ ربّة البيت، من دون أطفال، ولا عمل، غير أني أملكُ من المال ما يسمح لي بدفع ثمن دروس الرياضة، أو أن أؤثِّثَ غرفنا من «الأغراض الأجنبية»، المتجر المتخصص في الأثاث المحلي، والذي يرتاده الوافدون الجدد على أوزيس لتأثيث الحظائر التي يشترونها في الأحراش.

أمّا نحن، فنسكن في بيتٍ كان في القديم مخصّصاً لتربية دود القزّ. بيتٌ كبير من الحجر، مشيَّدٌ حول ساحة جميلة، حيث كانت تُربّى في القديم دودة الحرير من أجل مصانع النسيج في الناحية. وكانت المادة الأولية النفيسة تُرسَلُ بعد ذلك إلى مصانع الحرير في ليون الذين كانوا يصنعون منها أثواباً تُباعُ بالذهب في جميع أنحاء أوروبا.

توجد ساحةُ الأعشاب في قلب أوزيس. لا يمكن الوصول إليها إلا مشياً على الأقدام، عبر شبكة من الأزقة الجميلة. وتمنحها أشجار الجميز الكبيرة ظلالاً منعشة في الصيف.

يُعقدُ فيها سوقٌ كبيرٌ كلّ أربعاء وسبت.

يوم السبت، تصير المدينة برمّتها سوقاً، لأنَّ الشارع الرئيس الدائريَّ يستقبلُ أيضاً بائعي الملابس.

لا يقصدها في الصيف سوى السياح، لأن المرور يتعذّرُ بسبب كثرة مَعارض الباعة، وتمنع شمسياتُهم أيَّ رؤية كلية للساحة.

أذهبُ إلى السوق يوم الأربعاء. في هذا اليوم لا يعرض إلّا المنتجون المحلّيون. وقد أعدتُ اكتشاف أهمية جودة المنتجات عند وصولي إلى هنا. فلا وجود لوجه المقارنة بين فاكهة الفصل التي لم تسافر، وتأتي مباشرة من البساتين، والفواكه التي يمكن أن نجدها في باريس. والأمر نفسه بالنسبة إلى الخضار، والدواجن، والأجبان. ويعتبر القربُ من البحر مكسباً كبيراً. لم أكن أعرفُ سوى محار بريطانيا، لكنني صرتُ عاشقة لمحار منطقة بوزيگ، المزروعة فوق ضفاف البحر الأبيض المتوسط.

«للبيع»

عُلِّقت لافتةٌ صغيرةٌ على واجهة المكتبة الموجودة في زاوية ساحة الأعشاب.

كنتُ أنظرُ بإمعان إلى الحروف الزرقاء فوق الورق البنيّ الفاتح...

لماذا لا أكون أنا؟

أحبُّ الكتبَ.

أحبُّ جميع الكتب!

الكتب الصغيرة جدّاً، المكتوبة بحركة واحدة، مثلها مثل الكبيرة التي هي ثمرة حياة بكاملها؛ والقديمة بأغلفتها الممزقة، ولكن أيضاً تلك التي خرجت لتوِّها من عند الناشر، متباهية بحواشيها الحمراء الجميلة.

أحبُّ الكتبَ التي تحكي قصصاً رومانسية تستدِرُّ الدموعَ، ولكني أيضاً أجدُ متعةً عظيمة في استسلامي للمتاهات العقلية والعالمة في البحوث التي تمنحني الإحساسَ بأني أكثر ذكاء.

أحبُّ كتب الفن التي تُدخِلُ إلى البيوت لوحات اللوفر أو البرادو، أو الصور الغريبة الآتية من القارات الخمس. كم واحد منّا ما كان ليعرف شيئاً عن تلك الروائع لولا وجود الكتب؟

أحبُّ صفَّ الكتب. عندما تكون مرتبةً في الرفوف، ننظر إليها ورؤوسنا محنية قليلاً، كأننا نُبَجِّلُها حتى قبل أن نفتحها.

أحبُّ الورقَ. كيف الحديثُ عن الورق بصيغة المفرد؟ أحبُّ أوراق الصفحات التي تنقلبُ، وأحياناً عنها ننقلبُ. إذا ما اختير الورقُ جيداً، فإنه يُستهلكُ مع الكلمات، وتتوالى الصفحاتُ بشراهة. وعندما يكون نشازاً، يمكن أن يتسبّبَ في تخلّي القارئ، وقد أحنقهُ سوءُ تنسيق.

الورقُ الشديد البياض لا يناسبُ قصةَ حُبٍّ، لأن الحبَّ لا يكون أبداً ناصعَ البياض؛ يَصفَرُّ قليلاً بمرور الزمن، وتصيبُهُ آثارُ الصِّدامات، والمداعبات مثل مُلاءِ الفراش بعد عناق.

الورقُ المنقوشُ يمنح الكلماتِ عمقاً؛ تنطبعُ فيه وتستقرُّ بكلّ راحة داخل سُمْكِ الألياف، مثل قطة فوق وسائد أريكة.

وأحبُّ كذلك الكلماتِ فوق الصفحات. لا أتحدثُ عن معنى الكلمات، إنما عن الإيقاع الذي تخلُقُهُ حركةُ الرماديِّ. بين كل كلمة، يضمنُ فضاءٌ، لا يزيد ولا ينقصُ أبداً، مسافةَ مجاملةٍ تسمحُ لكل كلمة ألّا تطأَ قدمَي جارتها وأن تتنفَّسَ وفق هواها. لو كنّا مثل الكلمات

فوق صفحة، فإني على يقين أن العطفَ سيجد مساحة أكبر لينمو ويتكاثر.

ذات يوم، وقعتُ على كتابٍ أُغْفِلَتْ فيه المساحاتُ بين الكلمات. فأُصبتُ في الحال بنوبة رُهاب الخلاء، من شدّةِ إشفاقي على تلك الكلمات السردين، التي أسيئت معاملتُها مثلما هو الحال في ساعة الذروة داخل مترو باريس.

لديَّ عددٌ كبيرٌ من الأصدقاء الذين حلموا بامتلاك مكتبة مثلما يحلمُ آخرون بحُجرة ضيوف. إنها أحلامٌ واقيةٌ، أحلامٌ بصيغة الهروب أحياناً... اللجوء إلى الكتب أو إلى الأسوار الكبيرة...

في المساء نفسه، ومن دون أن أترك له الوقتَ ليضعَ حقيبته، شرعتُ أُحدِّثُ ناثان باندفاعِ مراهِقَةٍ:

- مكتبة ساحة الأعشاب معروضةٌ للبيع!

- ثم ماذا؟

- أريدُ أن أصبحَ الكُتُبِيَّةَ الجديدة.

- يا لها من فكرة! لكن ماذا عن دروسك، ومساركِ المهني؟

- أنتَ تعرفُ أن الأستاذ ليس له مسارٌ مهنيٌّ. تقدُّمُهُ الوحيد تتحكّمُ فيه الأقدميةُ. ثم إني لا أعلمُ حتى أين سأُعَيَّنُ. ربما سيلقون بي إلى الطرف الآخر من محافظة الغارد!

- لكن هذا سيأخذ منك وقتاً كبيراً جدّاً. ألديكِ فكرة عمّا تكون المكتبة؟ هي أولاً عملٌ تجاريٌّ، بل تجارةٌ صغيرة! ومن المؤكد أنكِ ستربحين أقل ممّا يمكن أن تتقاضيه باعتبارك أستاذة!

- لا أعبأ بذلك. أما بالنسبة إلى الوقت، فإن لديَّ منه ما يكفي عندما أكون وحيدة. أحتاجُ إلى مشروع حقيقيٍّ كي لا أُصابَ بنهكٍ عصبيٍّ.

- إذا كنتِ ستُخرجين مثلَ هذه الحُجج، فلن أستطيع أن أصمد طويلاً.

ناثان إنسانٌ طيّبٌ. أحياناً تُسيطِرُ عليه أناهُ، لكن هذا حال الكثير من المهندسين. لديهم إحساسٌ أنهم ضروريون ليسير العالم على ما يُرام. بعضهم يملك آراء وأفكاراً حقيقية، وبعضهم خطرٌ عموميٌّ حيث يتخيّلُ بيوتاً من أجل الآخرين لا يستطيع هو أن يعيش فيها. وأسوؤهم من يُقَوِّمُ ما أنشأهُ بِعَدَدِ أطنان الإسمنت المسلّح!

وأعتقد أني، عندما وقّعتُ العقدَ الموثَّقَ الذي جعل مني صاحبة المكتبة، قد كنتُ سعيدةً سعادتي بولادة ولَدَيَّ.

الاختلاف هو أني عندما أصبحتُ كُتْبِيَّةً، كنتُ أشعرُ كأني أولَدُ في ذاتي من جديد بدل أن أمنح الحياة لكائن آخر.

أدينُ بالكثير لقراءاتي. هي التي جعلتني أكبُرُ وأختارُ طريقي، وسمحَت لي ألّا أرى العالمَ عبر نظاراتي فحسب، ولكن أيضاً عبر وجهة نظر أولئك الذين أدخلوني إلى عوالم أخرى، وعصور أخرى.

لم أشعر أبداً أني أقرب ما أكون إلى نفسي، إلّا عند قراءتي كلمات شخص آخر. كلُّ أولئك الآخرين الذين شاركوني خصوصيتي، فعلوا ذلك بحياءٍ ومن دون أن يحاكموا مشاعري. هم لا يعرفونني، غير أني إنما اكتشفتُ مَنْ أنا بفضل احتكاكي بجُمَلِهِم. بكيتُ رفقتهم بقدر ما ضحكتُ.

لا بد أني ورثتُ الأمر عن أبي. لا أتذكَّرُهُ من دون كتاب؛ كان دائماً بصدد قراءة عدد منها. كتُبُ الصباح وكتُبُ المساء، وكتبٌ من أجل أريكة الشرفة أو تلك التي يقرأها في فراشه.

الكتبُ لا تغار. تنسحبُ لتتركَ مكانها لعشيق جديد، وتعرفُ كيف تظلُّ ساكنةً وصبورةً مدّةَ قرون، قبل أن تستعيد مكانتها على يد طفلٍ ممدودةٍ نحو رفٍّ مكتبة.

كنتُ ذلك الطفلَ أمام رفوف والديَّ.

كانت كتبُ الجيب ذات الصفحات المُصْفَرَّةِ أول رفقائي في الليل. كيسيل (Kessel)، جيونو (Giono)، ميريميه (Mérimée)، مالرو (Malraux)، سانت-أكزوبيري (Saint-Exupéry)... سهرتُ لوقت متأخِّرٍ مع كلِّ واحد منهم قبل أن أُسلِمَ نفسي للنوم بين أحضان هؤلاء الرجال العظام.

أتذكَّرُ أوَّلَ مرّةٍ أولجْتُ فيها المفتاحَ في مزلاج المكتبة.

كانت أوزيس صامتة، مثلما هو حالها في صباح كلِّ يوم اثنين. وكانت شمسُ الخريف تكاد تُشرقُ وشرعَت في إضاءة أعالي شجر الجميز.

تفاجأتُ بالتفاتي إلى الخلف لأتأكَّد من أن لا أحد ينظر إليَّ. كان لا يزال لديَّ إحساسٌ أني لستُ مالكةً شرعيةً وأني أفتحُ باباً ليست لي.

لكن ساحة الأعشاب كانت خاليةً.

كنتُ وحيدةً. وحيدة رفقة فرحي.

أدرتُ المفتاحَ.

استقبلتني، فوراً، رائحةُ الورق. ستلازمني هذه الرائحةُ دائماً إلى درجة أنّ ناثان سيُنَبِّهُني ذات يوم إلى أنني أعبقُ بعطر الورق.

حصل أصحابُ المكتبة القدامى على تقاعدهم بعد ثلاثين عاماً قضياها في هذا المكان. الكتبُ فوق الرفوف كانت نابعة من اختياراتهما، والرفوف التي تُؤويها كان يُغطِّيها صدأُ السنين.

كنتُ أداعبُ حواشي الكتب كأنها مفاتيح البيانو. كانت قراءةُ العناوين تُشكِّلُ موسيقى حميمةً تشبه **سمفونية العالم الجديد** لدفوراك أكثر من شبهها بمقدمة لباخ. صوتٌ حقيقيٌّ وضوءٌ فوضويٌّ مع كلّ آلات الأوركسترا وألوان كبرى علب الباستيل...

تكاد مساحةُ المكتبة تبلغ مئة وخمسين متراً مربَّعاً، لكنها تتشكَّلُ من عدد من الزوايا التي تسمح بخلق عوالم متباينة قليلاً؛ ركن الصغار، وركن الكتب الجميلة، وركن الدراسات... تُشرفُ واجهةٌ كبرى على الساحة، بينما تشرفُ واجهتان صغيرتان على زقاق جميل ملاصق.

كنتُ قد جلستُ فوق كرسيٍّ صغير خشبيٍّ خلف الطاولة العجوز، حيث كان قد وُضِعَ صندوق الأداء...

استغرقتُ وقتاً طويلاً أتأمَّلُ ذلك الفضاء.

كانت توجد به طاقةٌ تنبعثُ من الرفوف؛ قويّة ومسالمة في الوقت نفسه. كأن كلَّ مؤلِّفٍ كان يتوارى خلف كتابه وينظر إليَّ عاريةً.

أحسستُ بدُوار المسؤولية الجديدة التي شرعتُ في تحمّلها منذ أن أدرتُ مفتاحَ المكتبة.

قبل ذلك اليوم، لم أكن قد اتّخذتُ قراراً بخصوص ما يمكن أن أقوم به من إصلاحات. كنتُ متردِّدَةً بين اختيارين جذريين: بين أن أتبنّى الشكل السابقَ، وأن أذوبَ في ذلك العالم حيث كان عليَّ أن أكتشفَ كلَّ شيء، وأن أقوم، على العكس من ذلك، بتغيير كلِّ شيء لكي لا أظلَّ رهينةَ آثار المالكين السابقين كأنهما قد غادرا في رحلةٍ وسيعودان ذات يوم.

قرعَ أحدُهم زجاجَ واجهة المكتبة، على الرغم من أنني كنتُ قد وضعتُ لافتة صغيرة مكتوب عليها «مقفل»، لكن المرأة الشابة التي حضرت، كانت تحمل بين يديها طبقاً به إبريق شايٍ وفنجانان. أتحفتني بابتسامة عريضة، وعندئذٍ فتحتُ لها...

- صباح الخير، اسمي هيلين. مرحباً بك! أملكُ متجراً صغيراً لبيع الملابس في الزقاق المجاور. أنا في غاية السعادة لكون المكتبة لن تتحوَّلَ إلى محلٍّ لبيع البيتزا! جلبتُ لكِ شاياً لكنني لن أزعجكِ وقتاً أطول.

- شكراً هيلين. اسمي ناتالي. يجب أن أعترف أنني لا أصدِّقُ بعد ما يحدثُ لي، لكنني أنا أيضاً سعيدة. سعيدة جدّاً.

- إذا أردتِ، سأساعدك في إعادة طلاء المكان بكامله عندما ستشرعين في أعمال الإصلاح.

- هذا لطفٌ كبيرٌ منك. كنتُ أتساءلُ للتوِّ متى سأشرعُ في العمل!

في الحقيقة، ما كان بدهيّاً بالنسبة إلى هيلين، كان كذلك بالنسبة إليّ: يجب أن تكون المكتبةُ شبيهةً بي حتى أتمكّن من استقبال الزوّار كأنهم في بيتي.

وتمكّنتُ، خلال شهرين، بمساعدة ناثان أحياناً، وهيلين في أغلب الأحيان، وغيوم الذي كان قد أتى ليقضيَ أسبوعاً كاملاً يساعد في تركيب الرفوف، من أن أُضفِيَ على المكتبة مظهراً جديداً.

لم يكُن يتعلق الأمرُ بأن أعيد تصميم كلّ شيء كي تشبه أيَّ مكتبة إيكيا بيضاء ومن دون طَعم، بل أن أحافظ لها على طابعها بأن أضيف إليها مواد نبيلة وبسيطة حيث تظلُّ الكتبُ أمراء المكان.

اقتلعنا الوصلات القديمة من الجدران الحجرية، وفركنا قبابَ السقف، وأبرزنا الأقواسَ الجميلة، ووضعنا مُثبّتاً لا لون له كي لا تُطلقَ الجدرانُ الغبارَ.

تردَّدتُ طويلاً بين خشب الزّان والصنوبر السميك اللامع لصنع الرفوف، لكنني في النهاية اخترتُ الصنوبر.

وقد تحقّقَ الأثرُ الذي كنتُ أبتغيه: فالصنوبر من جوهر يكاد يكون أبيض، مرح، والكتبُ تبدو كأنها تستضيء بالخشب المحيط بها.

كنتُ أيضاً أريد أن أجد إضاءة خفيفة لكنها كافية. فاخترتُ مصابيح جميلة عارية شديدة الأصالة، معلّقة فقط بواسطة خيوط مضفورة برتقالية، تشبه الأسلاك الكهربائية في البيوت القديمة.

لم أحتفظ من القديم سوى بالكرسيِّ الصغير والطاولة العتيقة حيث كان يوضع صندوق الأداء. هذا جانب التطيّر في شخصي... شعرتُ أني يتوجب عليّ ألّا أنفصل عن الكرسيِّ الصغير!

أما بالنسبة إلى الكتب، فكنت قد قررت أن أعيد إلى الرفوف كلَّ تلك التي كانت موجودة بها وأن أضيف شيئاً فشيئاً المؤلفين والناشرين الذين كانوا ينقصونني، لكن من دون أن أخلخلَ مخزوناً أبانَ عن مقدارٍ من النجاح.

في الحقيقة، تطوّرت الرفوفُ كثيراً منذئذٍ، وألاحظُ أنّ المشترين يبدون إقبالاً على السعي خلف أذواق الكُتْبيِّ طلباً لاكتشاف ضفاف مجهولة. لا محيد عن امتلاك الكلاسيكيات، والكتب المتوَّجة بجوائز، والأعمال الجهوية، لكن بالنسبة إلى الباقي، يعود للكُتْبيِّ أن يطرح اختياراتٍ، وأن يمنح لوناً لاقتراحه، وأن يكون كذلك طَموحاً من أجل القراء.

رهان الجمال والذكاء رابحٌ دائماً!

ما لم أكن أعلمُهُ، هو أنني بتحوّلي إلى كُتْبِيَّةٍ، سأحِبُّ القراءَ مثلما أحِبُّ الكتب.

بعدما كنتُ أبحث عن اللقاء بذاتي، ستجعلني الكتبُ أكتشفُ رجالاً ونساء، وأطفالاً وشيوخاً، وتعساء، وذوي فكر نابِهٍ، ومرحين، وقتلة، وعلماء من دون مأوى، وعشاقاً كئيبين، وشعراء عُرجاً لكن مستنيرين، وعاشقات باردات، ومسافرين ساكنين، وجشعين نادمين، ورجال دين باحثين عن المعنى...

شاركتُهُمْ حياتهم وأنا أتابعُ قراءاتهم، واستبقتُ أحياناً خطواتهم بفضل الكتب التي كنتُ أنصحهم بها.

فوق الصفحات المطبوعة من قبل، كُتِبتْ قصةٌ أخرى؛ تركبُ كلماتُ بعضهم فوق كلمات البعض الآخر.

هذه هي القصة التي قررتُ أن أكتب.



كلووي

في هَبّة حرية



ما أن انقضت شهور معدودة حتى كنتُ قد اكتسبتُ زبائن مداومين.

بعضُهم كان يأتي ولديه غرض شراء كتابٍ محدّد بدقة. وآخرون كان يدفعهم فضولُ اكتشاف المستجدّات. كنتُ أندهشُ عندما أرى قرّاءً كباراً لا يتصوّرون استعارة كتاب من مكتبة وسائطية، ويمكن أن يشتروا كتاباً، بل كتابين أو ثلاثة كلّ أسبوع.

غير أنهم لا يشترون عشرة كتب مرّةً واحدة، لأنهم يستمتعون بأن يتخذوا من زيارتهم الأسبوعية شعيرةً تكاد تكون ثابتة. يعتذرون أحياناً عن كونهم لم يأتوا منذ أسبوع، فأجد ذلك مسلّياً. وكثيراً ما كان يحدث أن ينبّهوني هم أنفسُهُم إلى كتاب سيُنشرُ قريباً، بنوع من الشَّرَهِ، خصوصاً عندما يكونون قراء مريدين لأحد المؤلفين ويُعلَنُ عن قُرب صدور كتاب له.

بعضُهم لا يستعمل سوى جزء من المكتبة، دائماً الجناح ذاته. ويوجد بالطبع عاشقو الروايات البوليسية، ولكن أيضاً أولئك الذين لا يهتمون سوى بالدراسات أو بجناح «علم النفس». هؤلاء «الاختصاصيون» يصبحون خبراء، وأحبُّ أن أتحدث إليهم لأنني لستُ اختصاصيةً ويساعدوني دائماً على اكتشاف لآلئ لم أكن أعرفها.

عندما رأيتُ كلووي لأول مرة، كانت رفقة والدتها.

لم تكونا متشابهتين، غير أنّ القرابة كانت واضحة للعيان. كانت كلووي فتاة جميلة، طويلة، سمراء، مطفأة لون البشرة، صافية العينين، لكن يستحيل التقاطُ نظرتها.

وكانت والدتُها باديةَ القوة، شقراء الشعر، وذات بشرة صافية أصابها التّلفُ، ولهجتُها جافةٌ وحاسمةٌ لا تتركُ مجالاً لأحاديث شاردة.

كان ملبسُهُما قد استرعى انتباهي. ويصعبُ الحديث عن موضةٍ، فقد كان لباسهما كلاسيكيّاً، وحزيناً، وينتمي إلى عصر آخر قد ولّى. معطفٌ صارمٌ، داكن الزرقة دائماً، يعتلي تنّورةً حمراء أو رمادية، ذات ثنايا، مع حذاء دائم السواد.

لا يُسمَحُ لنظرة ناظرٍ متطفّلٍ أن تتلصَّص على أعلى الصدر، لأن المرأتين كانتا تلفّان حول العنق وشاحاً مطبوعاً، أفترضُ أنه كان يحمل ميسمَ علامة باريسية كبيرة.

يندر هذا النوع من اللباس الكلاسيكي في أوزيس، لدرجة أنّ مَن يرتديه يَلفتُ إليه الأنظارَ! وأكيد أنّ الأمر ليس كذلك في مدينتَي نويي أو بوردو.

كانت كلووي تقتفي خطوات والدتها بين الرفوف. وكانت الكتب الثلاثة التي اختارتاها تنتمي كلُّها إلى جناح المؤلفات الأكثر كلاسيكيةً في الأدب الفرنسي.

وُضِعَ لامارتين (Lamartine)، وهوغو (Hugo)، وستندال (Stendhal) بجانب صندوق الأداء، وخلتُ أنّ الأمر يتعلقُ بطلبٍ يناسبُ قائمة كُتُبٍ تفرضها مدرسة ثانوية.

أخذَت كلووي الكتبَ، وشكرَت والدَتها، ثم غادرتا المكتبة وهما تودِّعاني بأدب.

حوالي عشرة أيام بعد ذلك، تكرَّرَ المشهدُ ذاتُهُ، ووقع الاختيارُ على لافونتين (La Fontaine)، ورابليه (Rabelais)، ودوما (Dumas).

وبينما كلووي تشكُرُ والدَتَها، أردتُ أن أعرف ما الذي يوجِّهُ ذلك الاختيار:

- أهذه كتُبٌ تَنصَحُ بها الثانويةُ؟

- لا، لكنها مثاليةٌ بالنسبة إلى ابنتي؛ تحبُّ القراءةَ كثيراً.

- آه... جيّد جدّاً. وأنتِ التي تختارين من أجلها؟ ربما أستطيعُ أن أنصح الآنسة بكتبٍ أكثر حداثة ومع ذلك جدّ مناسبة لعمرها؟

حدجتني الأمُّ بنظرة قاتلة، ولأول مرة، نظرَتْ إليَّ كلووي مبتسمة في خجل.

- لكنني لم أطلب منكِ شيئاً، سيدتي! يبدو لي أنني أوجد في المكان الأنسب لأعرف ما الذي يناسب ابنتي!

- لم أكُن أريد أن أسيء إليكِ. كان الأمر مجرّد اقتراح.

عندما حكيتُ المشهدَ لناثان، انفجر ضاحكاً، لأنه لا يتصوّرُ أن مثل تلك الممارسات لا تزال موجودة.

في بعض المؤسسات التعليمية، مثلما هو الأمر في بعض الأُسر، توقف الأدب عند حدود نهاية القرن التاسع عشر.

استولى ستندال، وبلزاك، وهوغو، وأمثالهم على مكانة رفيعة بحيث صاروا يُعتبرون بمثابة محطة أداء ثقافية ضرورية بالنسبة إلى القارئ المبتدئ.

وينطبق الأمرُ نفسه على تلقين الفنّ، حيث يُعتقَدُ أن لا سبيل لأن يحبَّ المرءُ الرسمَ المعاصرَ إلّا بعد الإعجاب بالرسم الفلاماني، والرومانسيين، والانطباعيين.

وحدها الموسيقى لم تخضع لتلك المسارات المفروضة، عندما تخلّصتْ من قاعات العروض إلى محطات الإذاعة. أنصَتُّ إلى كات ستيفنز (Cat Stevens)، أو جينيسيس (Genesis)، أو جوان بيز (Joan Baez)، مدةً طويلةً قبل أن أكتشف شوبير (Schubert)، أو موزار (Mozart).

يجد الشبابُ سهولة أكبر في حُبِّ فنانين ينتمون إلى عصرهم، من أن يبدؤوا بالأركيولوجيا الأدبيّة لخلق عاطفة.

من المؤكد أنّ اقتراحي متطرِّفٌ بعض الشيء، لكنني مقتنعة أنّ تعليماً فنيّاً مؤسّساً على بيداغوجيا الرغبة هو أفضل ضمان لتطوير عقل نقديٍّ حقيقيٍّ، تحرُّريٍّ ومتحرِّرٍ من جميع العصور والموضات.

وسيظلُّ الكثيرُ من الكبار، بسبب تلك المسارات المفروضة في أثناء فترة تعليمنا، يجدون صعوبة في أن يفتحوا كتاباً كلاسيكيّاً، وأن يستمتعوا بقراءته. وأوّلُ ضحايا ذلك، للأسف، هم بلزاك، وستندال، وهوغو!

كانت تلك هي حال ناثان. لم يَقبل أن يتخلى عن رفضه للأدب الكلاسيكي إلّا منذ ثلاث سنوات عندما شرع في قراءة **ثلاثة وتسعون**، آخر رواية كتبها فيكتور هوغو، حيث يمزج بين السرد التاريخي والتخييل حول الثورة الفرنسية.

وانغمس، على إثر تلك القراءة، رأساً في رواية **البحث عن الزمن المفقود**، المعروفة لدى الكثيرين باعتبارها قمّة الأدب، بمجلّداتها السبعة و2400 صفحة!

صيفٌ بكامله صحبة بروست (Proust)... صيفٌ بكامله، رأيتُ فيه ناثان يتذوّقُ بتلذّذٍ أفكارَ المؤلِّف الحزينة، متغذِّياً على حوارات سوان (Swann)، مقبلاً بتمهّلٍ، على تشرّب الكلمات، عبر جُمَلِ الكاتب اللامتناهية.

يُستعملُ مصطلحُ «الرواية النهرية» أحياناً بطريقة قدحية، بيدَ أنّ النهر هو قبل كلّ شيء تجمّع جداول، وسيولٍ، وأودية تضخُّ عشرات المليارات من الجُسيمات العضوية والمعدنية لتنتهي إلى الارتماء في البحر.

تملكُ **البحث عن الزمن المفقود** ذلك الثراء، وذلك الامتلاء، وذلك العمق الذي يحمل في أمواجه كلَّ الفكر الإنساني الأكثر حميمية. يمكننا أن نتوقف عند كلمة من الكتاب، وعند جملة، كأننا فوق جزيرة وسط النهر.

أن نستغرق وقتاً في القراءة لا يعني تقليبَ الصفحات واحدةً تلو الأخرى، ولكن أن نستغرق في وقت الكلمات. استغراق وقتٍ للتوقف، ولَوْكِ الكلمات مثل أعشاب الخلاء التي نلتقطُها في أثناء جولة ونحملها إلى فمنا. أن نقبل بأن نضعها، مثلما تُتركُ عجينةُ الفطائر ترتاح، وأن نستعيدها بعد ذلك.

كنتُ في عمر كلووي عندما اتخذتُ لي عادةَ امتلاك دفترٍ صغيرٍ ألتقطُ فيه زبدَ الكتب المتمثِّل في الاستشهادات. إنّ الأمر شبيهٌ

بِمَغْشَبَةِ عالِم نباتاتٍ يقطفُ من مختلف السُّبُل ما يجده الأجمل أو ما لم يسبق له أن رآه.

لا أقرأ أبداً من دون أن يكون على مقربة مني دفتر صغير، تتعايش فيه إحالاتي، بالإضافة إلى الأفكار التي تردُ على ذهني عند قراءة كلمة، أو اكتشاف شخصية، أو الانتهاء من قراءة كتاب.

والأكيد أنّ هذه الدفاتر هي أخصُّ ما أملك. ذات يوم، فتح ناثان أحدَها أمامي، وكنتُ قد تركتُهُ فوق الطاولة، فصحتُ به كأنه ارتكب جريمة.

وقد تجمّعَ لديَّ، منذ ذلك العهد، عشرون دفتراً تقريباً.

كلُّ واحد يختلف عن سابقه، واختير بعناية. أتذكَّرُ الأولَ في أوَّل دفتر: «يجب أن ينمو العشبُ وأن يموت الأطفالُ.» فيكتور هوغو.

لا تزال هذه الجملة تستوقفني. شاعرية وقاطعة. تجمعُ بين صورة هي من أكثر الصور رعويةً، مرعى من العشب الأخضر، وبين المأساة الأكثر وحشية التي يمكن أن تحدث، فقدان طفل.

صففتُ، أرشيفاتِ تاريخي تلك، فوق رفٍّ صغير. تشيرُ بطاقةٌ صغيرةٌ ملصقة على ظهر الدفتر إلى تاريخ كتابتي أولى الكلمات فوق صفحاته فحسب. ليست مجرد زبدِ قراءاتي، إنها أيضاً انعكاسٌ لمسارات روحي. مثلما ينظر بعضُهم إلى ألبومِ الصور، أفتحُ أحياناً تلك الدفاتر، فتصعد إلى السطح لحظاتٌ، ووجوهٌ، وعواطف، تلقي الضوء أحياناً على الحاضر لتصوغ له منظوراً جديداً. إنها تُذكِّرُني بما مررتُ به في حياتي، سواء كان حسناً أو سوءً...

عندما رأيتُ ناثان يقرأ **البحث عن الزمن المفقود** تذكّرتُ أنّ بروست كان قد ارتكز على هوغو كي يكتب بدوره: «أنا أقولُ إنّ قسوة قانون الفن تتجلى في أن الكائنات تموت وأننا نحن أيضاً نموتُ ونحن نقاسي جميعَ العذابات، ليس لينموَ عشبُ النسيان، بل عشب الحياة الخالدة، عشب الأعمال الخصبة الكثيف، الذي ستأتي الأجيالُ لتتناول غداءها بمرح فوقه، من دون أن تعبأ بمن يرقد تحته.»

أحبُّ ذلك الأدبَ الذي جعل من نفسه سُلَّم عبور، والأفكارَ التي تُوَلِّدُ من حولها تساؤلاتٍ جديدةً.

جميع الكتّاب المعاصرين قرأوا بروست وفيكتور هوغو. فالكتّاب الكلاسيكيون شيّدوا أساسَ ثقافتنا الجماعية، لكن السُّلَّمَ استمرَّ يكبُرُ، فلا معنى لأن نفرض على كلووي أو غيوم أن يتسلّقَا السّلَّمَ كلَّهُ ليصلا في الأخير إلى نصوص تمنحهما لَذةً في متناولهما أبدَعَتْها أقلامُ كُتّابٍ معاصرين.

انصرمت أسابيع عديدة على زيارة الأمّ والبنت، قبل أن تدفع كلووي باب المكتبة.

كانت وحدَها.

كنتُ أراها تجوبُ أرجاء المكتبة.

وكانت تتجوّلُ كأنها لا تبحث عن شيء معيّن، تلتقطُ كتاباً قبل أن تعيده إلى مكانه لتأخذ آخر، متنقِّلةً من جناح الروايات البوليسية إلى جناح الفلسفة، قبل أن يطول وقوفُها أمام معرض كتب مطبخ الجهة.

- أتبحثين عن هديّة؟

- لا، شكراً، أنظرُ...

كان جوابُها يليقُ بما يُسمعُ في متاجر الملابس أكثر من أن يليق بمكتبة.

- إن احتجتِ إلى مساعدتي، فلا تتردّدي!

بعد أن قضَتْ وقتاً طويلاً تستكشف الرّفوفَ، ودَّعتني وغادرت المكتبة.

رأيتُها من جديد منذ اليوم الموالي، عند نهاية النهار.

- مساء الخير سيدتي.

- مساء الخير آنستي.

- في الحقيقة أنا ضائعة بعض الشيء أمام كلّ هذه الكتب. عندما أخبرتِ أمي أنكِ يمكنكِ أن تنصحيني، انتبهتُ إلى وجود اختيار آخر ممكنٍ، غير اختيارها.

كانت المرة الأولى التي يتقاطع فيها نظري مع نظرة كلووي. كانت تبتسمُ لي كأنها تعتذرُ عن كونها عاجزة عن أن تجد سبيلَها وحدَها.

- أتعلمين، آنسة...

- اسمي كلووي.

- إذاً كلووي، لا بد أنك تعلمين أن الكُتْبِيَّةَ يقع على عاتقها واجبُ إرشاد زبائنها. هلاَّ خبَّرتِني بنوع الكتب التي تبحثين عنها؟

- لا أعرف شيئاً عن ذلك. ألا تريدين أن تختاري كتاباً من أجلي؟

شعرتُ في تلك اللحظة بالضبط أني أتحمّلُ مسؤولية كبيرة. كنتُ أعرفُ طبيعة قراءات كلووي وأتذكّرُ جملة والدتها القاتلة. أكان يتوجّبُ عليَّ أن أستمرَّ في الخطِّ نفسه أم أن أساعد كلووي التي كانت قد قرَّرت الانعتاق من وصاية الأمّ. لم أكُن أريد أن أُخَيِّبَ ثقةَ الفتاة وكنتُ أُفتِّشُ ذاكرتي بحثاً عن الكتاب الذي قد يكون أثَّرَ في سنوات شبابي. كتاب يصلح لفتاةٍ ولا ينتهكُ الأعراف، لأني لم أكن أرغبُ في أن أصدمها من دون داعٍ.

- ستقرئين هذا، قلتُ لها وأنا أمدُّ إليها **المزرعة الأفريقية** (*La Ferme africaine*). الكتاب سيرةٌ ذاتيةٌ لكارين بليكسن (Karen Blixen). حكاية جميلة جدّاً تقع أحداثُها في كينيا منتصف القرن العشرين، عندما كان هذا البلد لا يزال مستعمرةً بريطانية.

- شكراً.

- عِديني أن تقولي لي رأيكِ فيه، حتى لو أنك لم تحبّيه. ولا تنسي أبداً أنّ قراءة كتابٍ ليست واجباً، وأن التخلّي عن قراءته بعد خمسين صفحة مُمِلَّةٍ ليس تدنيساً، بل أمراً ملزماً!

- أعدُكِ.

أخذت كلووي الكتابَ وخرجَتْ وهي تشدُّهُ إلى صدرها، مثل شيء ثمين يحتاج إلى حماية.

تأثّرتُ كثيراً لفعلها ذاك.

عادت كلووي في الأسبوع الموالي. ما أن ولجَتْ بابَ المكتبة، حتى لاحظتُ أنها فرحةٌ ومتحمِّسة. ففهمتُ سريعاً أنني لم أكن قد أسأتُ الاختيار.

- رائعٌ هذا الكتاب! يا لها من امرأة استثنائية، تلك البارونة! كم كنتُ حزينة عند موت فينش هاتون في حادث الطائرة. أتعتقدين أنّ كينيا اليوم لا تزال تُشبه تلك التي تحكي عنها؟

- لا أظنُّ ذلك. لا تزال توجد منتزهاتٌ كبيرة حيث تعيشُ الأسودُ والفيلة، لكن نيروبي أصبحت مدينة كبيرة كثيرة التلوّث، والحيّ الذي كانت توجد به مزرعة كارين بليكسن قد التهمَهُ التمدُّدُ العمراني بالكامل. ترغبين في الالتحاق بفينش هاتون ليجعلكِ تُنصتين إلى باخ حول نار المخيّم؟

علا الاحمرارُ وجه كلووي.

- لا بد أنّ الأمر سيكون رائعاً بالفعل! أريدُ كتاباً آخر. مماثل!

- مماثل! ماذا يعني هذا؟ كتاب تدور أحداثُهُ في الخارج؟ في عصر غير عصرنا؟ يحكي قصة حبٍّ؟

- لستُ أدري. اختاري من أجلي مرةً أخرى.

تردَّدْتُ. المهمُّ ألّا نتسرّعَ. يجب أن نتقدَّمَ بهدوء كي تتمكّنَ الفتاةُ من التطوَّر وفق إيقاعها الخاص. فكرتُ في ابنتي إيليز. في الكتب التي كانت قد أحبَّتْها أكثر من غيرها.

- أقترحُ عليكِ **العيون في الأشجار** (*Les Yeux dans les arbres*) لباربارا كينغسولفر (Barbara Kingsolver). إنها رواية تجري أحداثُها كذلك في أفريقيا، لكن هذا هو التشابه الوحيد مع رواية كارين بليكسين. ستكتشفين مصيرَ أسرةٍ يقرِّرُ والدُها، وهو كاهنٌ متطرِّفٌ، أن يغادر الولايات المتحدة رفقة زوجته وبناته الأربع ليلتحق بالكونغو البلجيكي في بداية الخمسينيات.

- شكراً، شكراً.

كانت عينا كلووي تلمعان. وكنتُ سعيدةً مثلما يحدثُ لي كلّما نصحتُ أحداً بكتابٍ، أقولُ لنفسي إني أتمنى أن أحيا من جديد تلك العواطف التي غمرتني عندما قرأْتُهُ أوَّلَ مرة.

في السبت الموالي، كان ناثان قد أتى ليخلفني في المكتبة لفترة من الوقت، حتى أستطيع الذهاب لشراء السمك من عند كليمان، بائع السمك المتنقِّل، المعروف بحرصه على الذهاب كلَّ صباح إلى مرسى المراكب في مدينة سيت، لينتقيَ أجودَ الأسماك.

بعد خطواتٍ بين معارض السِّلع، وجدتُ نفسي وجهاً لوجه مع كلووي ووالدتها.

- صباح الخير سيدتي، صباح الخير كلووي.

كانت كلووي غريبة. كانت تبدو متضايقة من رؤيتي، وتراجعَت خلف والدتها وهي تضع أصبعها فوق فمها كأنها تريد أن تُسكِتَني.

فهمتُ عندئذٍ أنّ والدَتها لم تكن تعلمُ شيئاً عن زياراتها للمكتبة، ولا حتى عن الكتب التي كانت تقرأها. احترمتُ رغبتها فاختصرتُ الحوار قائلة:

- إلى اللقاء قريباً! يجب أن أُسرع بالذهاب عند كليمان إن كنتُ أرغبُ في أن أظفَر بسمك البربوط!

كبرتُ في مدينة الرباط، بالمغرب، على ضفّتي نهر بورقراق الذي يرتمي في البحر عند أسفل قصبة الوْدايَة.

في طفولتي، كنتُ أعشقُ مشاهدة الصيادين وهم يعودون من طلعاتهم في البحر، ويُفرغون صيدَهم في قفافٍ كبيرة من أغصان الصفصاف، ويُصلحون بمزيد من العناية ما تلفَ من الشِّباك.

أحياناً، كنّا نتناول في الغداء أطباقاً لذيذةً من السردين المشوِيِّ، فوق موائد كبيرة مغطاةٍ بقماش مشمّعٍ ملوَّن.

وعندما أختارُ سمكي عند كليمان، تُحيي الرائحةُ بداخلي أحاسيسَ الطفلة التي كانت تأكلُ بأصابعها السردينَ بالليمون.

غريبٌ أمرُ ذكرى الروائح. تستطيع أفلامُنا وصورُنا تسجيلَ كلِّ شيء ما عدا الروائح. بيدَ أنَّ ذاكرة حاسة الشّمِّ شديدة الحيوية، ويكفيني أن أصادفَ، ولو بعد عشرات السنين، رائحةً من الماضي لتشتعلَ ذكرى عِلِّيّة بيتِ شومون-سور-لوار، أو الردهة التي كانت تفوح برائحة البرنيق بسبب الخزانة التي كانت تحرص جدّتي على الاعتناء بها، أو الياسمين الذي كان يُغطّي الشرفة كلَّها حيث كان جدّي يزرعُ شتلاته.

أضمُّ صوتي بكلّ تواضع إلى نداء بودلير في **أزهار الشر** (*Les fleurs du mal*): «أيها القارئ، هل سبق لكَ أن استنشقتَ بثمالة وشراهة بطيئة تلك الحَبّة من البخور الذي يغمرُ الكنيسة...».

يكفي القليلُ لكي تشغلَ رائحةٌ فضاءً بكامله.

لاحظتُ وجود أزواجٍ جميلة جدّاً مشكَّلة من كِتابٍ ورائحة. اقترانات تستهويكَ لدرجة أن الكلمات والروائح تمنح الحياةَ لسردٍ حماسيٍّ يحملُ القارئَ في سفرٍ إلى ما هو أبعد ممّا تحملُ إليه الكلماتُ وحدها.

لا شيء أفضل من رياضٍ في مدينة فاس العتيقة لقراءة **حكايات ألف ليلة وليلة**، أو شرفة مقهى في نيويورك لنعيش في انسجام مع شخصيات بول أوستر (Paul Auster).

قد أكتبُ دليلَ سفرٍ يقوم على اقترانات بين كُتّابٍ ومدنٍ فحسب: بيسوا (Pessoa) ولشبونة، سيرفانتيس (Cervantes) ومدريد، موراكامي (Murakami) وطوكيو، ستندال (Stendhal) وروما، ويليام بويد (William Boyd) ولندن... ومن أجل ذلك سيتوجّبُ عليَّ أن أسافر إلى كلّ واحدة من تلك المدن، وأن أجد بالتدقيق الكتابَ المناسبَ لأوصيَ به والمكانَ الأنسبَ لقراءته!

هذا مشروعٌ جميلٌ يمكن أن أعرضَهُ على ناثان عندما سيُحالُ على المعاش. سيحملُ هو الأمتعةَ، ويحجز الفنادق، ويختار المطاعم، وأنا سأقرأُ في الصباح وأكتبُ في المساء، أو العكس...

تُشكِّلُ طفولتي في المغرب جزءاً من كنوزي. استفاقت حواسي وازدهرت في ذلك البلد حيث روائح التوابل، وألوان أواني الفخّار، والأطباق النحاسية التي تلمع في الشمس، كانت تمنحُ الفتاةَ الصغيرةَ التي كنتُ الانطباعَ بالعيش في بلد الأميرات.

من المؤكد أنني احتفظتُ من تلك الفترة بميلٍ إلى الألوان الحارّة والحيّة: الأمغر، والقرمزيّ، والزعفراني، ووورديّ الورود اليابسة المقطوفة من وادي دادس. «الشموسُ التي نحملها جوّانا مثل عربة برتقال»، سيقول أراغون (Aragon).

أنتبهُ إلى أنني إذا كنتُ أحبُّ العيشَ في منطقة بروفانس، فذلك بالتأكيد لأنّ الحرارة، والأضواء، ومطبخ الجنوب، تُغذّي ذكريات طفولتي.

وينقلني السوقُ، على وجه الخصوص، إلى السوق التقليدي في مدينة سلا حيث كنتُ أرافقُ أمي دائماً. هي التي علّمتني كيف أختار الباذنجان، والقرع الصيفي، والطماطم...

معرفة الذات ليست القدرة على استعراض سيرة حياتية من دون أدنى نسيان. كثيراً ما أندهشُ من أشخاص ألقاهم لأول مرّة فيختصرون ذواتَهم في مهنتهم وعدد أطفالهم. أن يقول المرءُ مَن هو، ليس هو أن يقول ما يملك أو ما يعمل.

ذات يوم، أهدتني إحدى صديقاتي حصّةَ تدليكٍ مع جويل، التي تُمارسُ التدليكَ في البيت. فكان ذلك كشفاً. كنتُ عاريةً فوق طاولتها المرتفعة، وكانت قد تمكّنَتْ من أن تزيح جمودي بأن افتتحَتْ حصّتَها بجعلي أشُمُّ مختلف الزيوت الأساسية. فقد كان عليَّ أن أقول، بالنسبة إلى كل واحدة منها، إن كنتُ أحبها، قليلاً، أو كثيراً، أو لا أحبها نهائياً.

فجأة، قلتُ لها: «هذه أعشقها! أيُّ زيت هي؟» كانت زيتاً أساساً من زهر شجر البرتقال.

سرعان ما فهمتُ أنّ تلك الرائحة كانت تنقلني إلى شوارع الرباط، في الفصل الذي تضوع فيه أشجار البرتقال. كانت تلك رائحة الطفولة.

كانت جويل قد وضعت قطراتٍ من تلك الزيت فوق صدغيَّ، وبذلك تمكّنَت من أن تفتح في الحال مساربَ جميع حواسي. ومنذ ذلك اليوم، صار التدليكُ موعداً ثابتاً في حياتي. اللحظة حيث يتراجع الذهنُ لصالح الحواسِّ.

أحبُّ الكُتّابَ الذين يعرفون كيف يمنحون روائحَ لحكاياتهم، أولئك الذين تستطيع كلماتُهُم أن تلامس بشرتي أو أن تنزل فوقها بكلّ ثقلها.

وهكذا أحسستُ أني كنتُ وسط دمار بيروت عند قراءتي كتاب سورج شالندون (Sorj Chalandon)، **السُّورُ الرابع** (*Le Quatrième Mur*). كنتُ قد خرجتُ من تلك الصفحات مجروحةً مثل امرأة في قلب الحرب اللبنانية.

تمرينٌ جميلٌ هو البحثُ عن اللون المهيمن في كتابٍ، ورائحته، وصوته...

يمكن القيام بذلك مع أيٍّ لحظة نعيشها. أُلقِّنُ هذا لناثان كي لا يكون دوماً في خضمِّ الفعل. في البداية كان الأمر معقَّداً، لكنه منذ أيامٍ فاجأني. بينما كانت الشمس تغرب بسرعة في منتصف فصل الشتاء، استطاع أن يضع نفسه في الحاضر وأن يستشعر «رائحة النار التي تنطفئ في المدفأة، ولون السماء البنفسجيّ المشتعل قبل نزول الليل، واحتكاك الأوراق الميتة المتطايرة في زاوية الساحة».

عندما عادت كلووي إلى المكتبة، كانت قد استبدلت من جديد بتنورتها ذات الثنايا سروالَ جينز، وانتعلَت حذاءً طويلَ الساق بدل

حذائها، وكانت ترتدي سترةً جميلة يتدلى فوقها شعرُها المتحرِّر. فتاة جدّ جميلة لن تتأخر عن إغواء القلوب.

كنتُ قد قرّرتُ ألّا أشير إلى لقاء السوق، لكنها مع ذلك أرادت أن تعترف:

- لو علمَت أمّي أني أقرأُ كتباً غير التي تشتريها لي، لن يكون لي الحقّ في أن آتي لزيارتكِ.

- لكن، كيف تصنعين لقراءة كتبك؟

- أقرأُ في أثناء الاستراحات والليل، عندما يكون والدايَ نائمين. أحياناً، في الصباح، أجدُ صعوبة في النهوض. وعندما أُنهي قراءة كتابٍ، أُودِعُهُ عند صديقتي كلير.

- «في الليل، ينام العقلُ، ووحدها الأشياء توجدُ. تلك التي تهمُّ حقيقةً تستعيد شكلَها، وتنجو من دمار تحليلات النهار، ويعيدُ الإنسانُ ربطَ الأجزاء ويصير من جديد شجرةً هادئة.» هذا استشهاد من سانت-أكزوبيري (Saint-Exupéry). تعرفين، كلووي، قراءة تلك الكتب ليس ارتكاب سيئة. ربما تستطيعين بكلّ بساطة أن تقولي لأمّكِ إنكِ قد أصبحتِ في سنٍّ تسمح لكِ بأن تختاري ما تقرئينه بنفسك.

- ليس بعد. ليس الآن. استشهادكِ جميل جدّاً. أحبُّ الليلَ بالفعل. ينتابني أحياناً إحساسٌ بأني المستيقظة الوحيدة من بين جميع سكان أوزيس. فيمكنني عندئذٍ أن أهبَ نفسي كلياً للكلمات، وأن أتبعها وأرحلَ مع الشخصيات، من دون أن يتنبّه أحدٌ للأمر. تقريباً مثل هروب... أريد كتاباً آخر!

- أراكِ جدّ مستعجِلة! لكن قبل أن أنصحكِ بكتاب جديد، حدِّثيني قليلاً عن ذلك الذي أتممتِ قراءته.

- أحببتُ كثيراً «ليهْ»، إحدى بنات الكاهن! إنها رائعة حقيقةً، تلك الفتاة. أودُّ أن أكون أنا هي! مشرقة دوماً، وتستقبل كلَّ لحظة معطاة كأنها هديّة. تُشرِعُ حياتَها على جميع الاحتمالات. مع أن والدَها ليس سهلاً. يمكن للدِّين أن يكون وسيلةً ليكبر المرء ويعيش، لكنه يصبح رهيباً عندما لا يكون سوى تعصّب. أجد هذا الكتابَ ذكيّاً جدّاً لأنني يبدو لي أن داخل كلِّ فتاة توجد جميع فتيات العالم. أنا أودُّ لو أكون «ليهْ»!

- هذا نقدٌ أدبيٌّ رائع! يمكنني أن أقترح عليكِ كتاباً جديداً، لكن أليس في ذهنكِ كتاب ما؟ كتاب قد تكوني سمعتِ المؤلِّف يشير إلى نشره مؤخَّراً؟

- لا، لا تقرأ صديقاتي إلّا قليلاً. باستثناء كلير التي تُحدِّثني أحياناً عن قراءاتها، لكنني أرى من مجرد النظر إلى الغلاف وقراءة التقديم أنها قصص عاطفية سطحيّة.

- لكن لا توجد كلير وحدها. هناك التلفاز، والإذاعة، والإنترنت!

- ليس لدينا لا التلفاز ولا الإنترنت. والإذاعة الوحيدة التي نتصتُ إليها لا تعرضُ سوى الموسيقى الكلاسيكية.

لم أكن أتوقعُ ذلك. ولا بد أنّ دهشتي كانت بادية على ملامح وجهي...

- أعلمُ أنّ الأمر مُدهِشٌ، لكن لا تظنّي أني تعيسة. لديَّ أبوان يحبّاني ويفعلان من أجلي ما يريانه الأفضل. بفضلهما تعلمتُ البيانو،

والرسم، والفروسية. من النادر أن أجد بين صديقاتي مَن تقوم بكلّ هذه الأنشطة.

أعجبَني ردُّ فعل كلووي. كانت مُحِقّة. مَن أكون أنا لأحاكمَ أبويها؟

- أرغبُ في قراءة قصة حبّ!

- آه، هذا طلبٌ دقيق!

- بالنسبة إليكِ، ما هي أجمل قصة حبّ؟

- يا له من سؤال! من حسن الحظ أنني لا أستطيعُ الإجابة عنه. توجد منها أصنافٌ كثيرة مختلفة: تلك التي تبدأ بشكل جيّد وتنتهي بسوء، أو العكس؛ قصص الحب المستحيل، وقصص الحب العابر... إلخ. توجد أعمال كبيرة كلاسيكية لكنها لا تزال تُعتبر لآلئ مثل **روميو وجولييت**. عملٌ مسرحيٌّ قد يبدو عتيقاً، لكن لا يصير العملُ عتيقاً عندما يكون شكسبير مَنْ كتبه.

أميرة كليف (*La Princesse de Clèves*) هي أيضاً كتاب رائعٌ يحكي كيف يَعْبُرُ حبٌّ، جعَلَته الأعرافُ مستحيلاً، حياةَ امرأة بكاملها، غير قادرة على نسيان الدُّوق دي نيمور، لدرجة أن تموت ولَهاً وعشقاً.

هناك أيضاً **هيلوويز وأبيلار** (*Héloïse et Abélard*)، مسرحية تحكي اكتشاف الحبِّ من لدن شابّة وقعت في هوى غاوٍ كبير...

- هذا ما أريد. **هيلوويز وأبيلار**...

وقبل أن تدفع ثمنَ ما اشترتهُ، اتّجهَت كلووي نحو رفٍّ تناولَت منه كتاباً، لا بد أنها كانت قد اكتشفتهُ في أثناء زياراتها السابقة.

موسوعة الفتيات (*L'Encyclo des filles*).

لا أزالُ أبيعُ بشكل جيّد هذا الكتاب الذي هو منجم معلوماتٍ حقيقي بالنسبة إلى الفتيات اللواتي يتساءلن أسئلة كثيرة من دون أن يعرفنَ كيف أو على مَن يطرَحْنَها.

لم أقُل أيَّ تعليق لكلووي، التي انصرفَت حاملة كتابيها.

يومان بعد ذلك، كنتُ منشغلة بخدمة زبون عندما اقتحمت المكتبةَ والدةُ قارئتي الفتيّة.

- لقد خُنْتِني!

- مرحباً سيدتي. إذا سمحتِ، سأُتِمُّ معاملة السيد قبل أن أعود إليك.

- هذا هو. أَتِمّي ذلك!

- لا أعلمُ ما الذي فكَّر فيه الشّابُ الذي كنتُ ألفُّ له في صندوق هدية كتاباً جميلاً حول البنايات من حجر جافّ. شرحتُ له أنَّ خيانتي ليست قضية دولة، وأن المرأة التي دخلت للتو ينقصها الاتّزان.

ما أن انصرف الشابُّ، حتى انطلقت السيدةُ الوالدةُ من جديد:

- كيف جرؤتِ على ذلك! **هيلوويز وأبيلار!**

- سيدتي، هنا ليس محلّ بيع شراب؛ لا شيء يمنعني من أن أبيع كتاباً لفتاة قاصر. خصوصاً عندما تختارُهُ هي!

- لكن كلووي ما كانت لتختار مثل ذلك الكتاب لولا نصيحتك.

- أجل، هذه مهنتي. كلووي فتاة ذكية وحسّاسة. ما الذي تخشينه؟ أنا أيضاً أُمٌّ لطفلين وأؤكِّدُ لكِ أن الكتبَ فرصٌ حقيقيةٌ ليجرِّبَ المرءُ رغباته الذاتية بمواجهة مسارات حياةٍ في إطار سِيَرٍ ذاتيةٍ

أو رواياتٍ تخييلية. هذا مهمٌّ بالنسبة إلى ولدٍ في فترةٍ يتوجب عليه أن يقوم باختيارات سَتُلزِمُهُ في بقية حياته عندما يكبر. أنا أتشرّفُ كثيراً بالثقة التي تضعها فيَّ كلووي، وأؤكِّدُ لكِ أني امرأة مسؤولة لا تريد لها سوى الخير.

غادرَت والدةُ كلووي المكتبةَ وهي تُغلِقُ البابَ خلفها بعنف.

تساءلتُ للحظةٍ إن كنتُ سأرى الفتاةَ مرةً أخرى.

فكرتُ في إيليز، ابنتي البكر.

قبل أن تصير مراهقة وتشرع في رفض جميع اقتراحاتي بشكلٍ ممنهج، حظيتُ بسعادة مشاركتها لي في مكتبتي.

تربَّتْ على الرضاع من أدب الصِّغار عند بايار، بادئةً بِ **أحبُّ القراءةَ** لتنتهيَ مع **أقرأُ الكتب**، فاكتسبَت بسرعة ذوقَ الكتب.

كنتُ سعيدة بأن نتشارك حبَّ القراءة. كانت الكتب شهاداتٍ أدفع بها إليها، وأنا واثقة من أنها ستكون بمثابة جِنانٍ تقطفُ منها الورودَ لتُغذِّيَ مُتَخَيَّلَها، لكن أيضاً لتستلهم منها حكايتَها الذاتية.

في بعض المساءات، كانت ما أن تلتهم عشاءها، حتى تعود إلى كتابها الذي لم تتركه إلّا منذ دقائق معدودة. كنتُ أقرأُ في عينيها حينئذٍ لمعاناً تخلقُهُ انفعالاتُ الرحلة الأدبية التي كانت تعيش داخلها. كانت تكفيني مجرَّدُ نظرة إلى غلاف كتابها لألتحق بها في مُتْعَتِها. كنتُ أستطيع أن أُوَقِّعَ ما تطويه من صفحاتٍ بتعليقاتٍ متواطئة كانت تخلقُ بيننا حواراتٍ لا تنتهي.

أفتقدُ اليوم كثيراً ذلك القربَ الجميل.

أشعرُ أنّ «أزمة المراهقة» الشهيرة، التي يتّفق الجميع على أنها لا مَحيد عنها، هي أزمة شديدة العنف. أيمكنُ أن نسترجع، أنا وإيليز، تلك العلاقة الرائعة التي كانت تجمع بيننا في السابق؟

اطمأننتُ بسرعة على عودة كلووي، لأنها وقعت منذ اليوم الموالي لزيارة الأمّ.

- اعذري أمّي. عندما حكَت لي أنها أتَت لزيارتك، شعرتُ بالحياء. قلتُ لها إني لم أعُد في العاشرة من عمري، وإنها لو فعلَت ذلك من جديد، فإنني سأوقِفُ البيانو، والفروسية، وسأرفض أن أرافقهما عندما سيذهبان إلى حفل الموسيقى. وفي الأخير، كان أبي هو مَن دافع عن موقفي. على الرغم من أنه في العادة لا يتكلم كثيراً، فإنه رأى أنّ الأوان قد حان كي أكون أكثر استقلالية قليلاً، وأنّ ذلك يشمل كذلك اختياراتي الثقافية.

كنتُ سعيدة بأن رسَت الأمور على ذلك.

في أثناء الأسابيع اللاحقة، كانت كلووي تأتي بانتظام لزيارتي، وكنتُ أواصلُ توجيهها باقتراحاتي، من أجل سيرورة تعلّمية، من كتاب إلى كتاب، مثل طريقٍ بخطواتٍ يابانية، يمكنها أن تتقدّم فوقها من دون خطر السقوط.

كنّا، كلما أتمَّت قراءةَ كتابٍ، نتبادلُ حديثاً جميلاً، حيثُ كنتُ أرى تجلّيات ما يُقنِعُها وما يُقلِقُها في الوقت نفسه، ولكن أيضاً ما كان يجعلها سعيدة.

ليس من فصل، في أوزيس، إلّا وله سحرهُ المخصوص.

شتاءً، لا تنام المدينة. إنه فصلُ أولئك الذين يعيشون هنا على مدار الحول. العالِمون بالأسرار...

يشكِّلُ عيدُ الكَمْأةِ وقفة موسيقية في فصل الشتاء. في أثناء عطلة نهاية الأسبوع كلِّها، تُسيطرُ على الساحةِ المعارضُ الصغيرةُ المخصَّصةُ للذهب الأسود.

لا تُعرَضُ الكمأةُ في صناديق، مثل الجَزَر أو الكراث في يوم سوق، بل تبدو الكمأةُ كأنها تنبثقُ بفعل السحر بين يدي البائع، الذي يقوم بعد ذلك بوزنها فوق ميزان صغير قصد تحديد ثمنها.

يمكن أن يبلغ ثمنُ 100 غرام من الكمأة حوالي 130 أورو، بثمن الكافيار نفسه!

يمكنني أن أقوم بأشياء كثيرة من أجل الكافيار، ولكن ليس من أجل كمأة. لم أجرؤ أبداً أن أقولَ ذلك لأيٍّ كان، لأنَّ الأمر سيكون هنا تجديفاً، وسأُطرَدُ من المدينة شرَّ طردٍ!

وبما أنها كانت سَنَةَ استقرارنا بالمدينة، فقد حجز ناثان مقعدين في حفل العشاء المنَظَّم من لدن نقابة زارعي الكمأة.

يقوم طبّاخون كبار بطهو الوجبة بكاملها، اعتماداً على الكمأة وحدها. وهناك كان تعميدي بأكلة الكمأة!

اجتمع ثلاثمئة من المدعوّين، ولاحظتُ أن القليل منهم كان من منطقة الغارد: سويسريون، وإنجليز، وبلجيكيون، وأميركيون، وبعضُهم كان قد جاء مسافراً من أجل ذلك العشاء فحسب، وأخبروني بأنهم لا يتغيّبون عنه أبداً.

وبما أنني كنتُ أجدُ صعوبة في استمراء طعم الكمأة، فقد أخذَ بيدي خبيرٌ محلّيٌّ:

- تقطعين شريحة مستديرة رقيقة من الكمأة الطازجة، وتضعين فوقها حبّات ملح، وتُلصقينها بباطن الحنك. احتفظي بها في فمك بعض الثواني قبل أن تمضغيها. أتحسّين بتلك الرائحة؟

كنتُ أشعرُ كأنني في قُدّاس. فدائماً، تلتصقُ رقائقُ خبز القربان بداخل حنكي وأقوم بحركاتٍ كبيرة من لساني لأتمكّن من اقتلاعها. ولا أحتاج لأن أقول إنّ خشوعي يُصيبه بعضُ الاضطراب بسبب ذلك.

وعلى الرغم من نصائح الخبير، كنتُ أجدُ بعض الصعوبة في المشاركة بصدقٍ في المدائح التي كانت تُكالُ لذلك العفن...

كانوا يقترحون علينا أن نُفَتِّتَ، فوق كلِّ طبق يُقدِّمونه لنا، بعضَ الكمأة، كأننا نضع جبنة غرويير فوق سباغيتي.

لكن يجب أن أعترف أنّني لا أزالُ أحتفظُ في ذاكرتي الذوقية بمعكرونة رافيولي طبخها الشاب فابيان فاج، شيف في مطعم لوبريوريه (Le Prieuré) في فيلنوف-ليس-أفينيون (Villeneuve-lès-Avignon)...

لم تعُد كلووي سوى مرّةٍ واحدة من دون أن يُعجبها اختياري.

- لم يُعجبني **سيارة أجرة بنفسجية** (*Un taxi mauve*). أجد أنّ جميع الشخصيات مبالغة ولم أُفلِحْ في الاقتناع بتلك الحكاية!

- لكن، كلووي، لديكِ كلُّ الحق في ألّا تُحبّي كتاباً. أنا من المغرمين بإيرلندا وهذا الكتاب هو إعلان حبٍّ لذلك البلد وسكّانه! لماذا استمررتِ إلى نهاية الكتاب ما دمتِ لم تحبّيه؟

- لستُ أدري.

- ولكي أجعلكِ تسامحيني على ما اقترفتُهُ من خطأ في الاختيار، سأهديكِ الكتاب القادم...

فهمتُ فيما بعد أنّ رواية دِيون (Déon) كانت قد أيقظَت لدى كلووي منطقة ظلٍّ في تاريخ أسرتها. في الغالب تكون الكتبُ التي نقرأها كاملة على الرغم من أننا لا نحبُّها هي التي تحيلُنا إلى جوانبنا السوداء الشخصية.

عندما نتقاطعُ مع مدار كتابٍ، فهذا يعني أننا على ميعاد. وأنّ الوقت قد حان ليحدث اللقاء. عندما نتحدّثُ عن كتاب، فنحن لا نتحدث عمّا قرأنا فحسب، بل عن أنفسنا كذلك.

وهذا ينطبقُ أولاً على الكاتب. فحتى التخييل الأكثر إغراقاً في الخيال إنما يحكي شيئاً عن مؤلِّفِهِ، لكن بعد ذلك يقع تداخُلٌ بين حكايته وحكايتنا.

إنّ كلمات الكتب تشبه أمواجاً وُلِدَتْ في الجانب الآخر من العالم وتلتحقُ بحياتنا متحطِّمةً فوق أجرافنا أو منزلقةً بنعومة فوق شاطئ رمالٍ دقيقة. ولا نجعل الأجرافَ تختفي بمجرد إقفال كتابٍ يضايقنا.

كنتُ أقفلتُ المكتبةَ للتّوِّ وأطفأتُ أضواء الواجهة عندما نَقَرَ شابٌّ الزجاجَ. عادةً لا أفتحُ خارج الساعات المقرَّرة، لأنني لولا ذلك لما توقّفتُ أبداً عن العمل.

تُعجبني تلك اللحظةُ التي أجد فيها نفسي وحيدةً مع الكتب. ينتابني حينئذٍ الشعورُ بأني الأكثر حظوة في العالم. تحيط بي أجملُ

حكايات الإنسانية، من الدرامات المأسوية إلى اليوتوبيات الأكثر جنوناً. يلاعبُ خيالي الفائزين بالجوائز الأدبية، ويخلطُ بين العصور، وأصيرُ الصديقَة الحميمَةَ لمن يحوزون إعجابي.

يكون حينئذٍ جويس كارول أوتس (Joyce Carol Oates) وبول أوستر (Paul Auster) كاتِمَيْ سِرِّي، ويُعَرِّي كامو (Camus) وسارتر (Sartre) بنظريهما آميلي نوثومب (Amélie Nothomb) بتواطؤ ظاهر، بينما أُنَظِّمُ اللقاء بين سيمون دو بوفوار (Simone de Beauvoir) ونانسي هوستون (Nancy Huston). ما أكثر الأشياء التي تحتاجان إلى تجاذب الأحاديث حولها!

في ذلك المساء، فتحتُ البابَ للشابّ.

يجب أن أقول إنه كان فتًى جميلاً جدّاً. تحسبه ربّانَ طائرةٍ زمنَ بدايات الطيران. كان يرتدي سترة جلدية رائعةً ذاتَ عنقٍ من فروٍ، وحذاءين طويلَي الساق كأحذية الفرسان. عيناه رائعتان. عينان تُذكِّراني بشخص ما من دون أن أستطيع تحديد هويته.

- طابَ يومكِ سيدتي، أشكركِ على فتح الباب. لولاكِ، لوصلتُ إلى عيد ميلاد شقيقتي الصغرى خاويَ الوفاض.

- هل تعلم ما هو الكتاب الذي تريد إهداءه إليها؟

- لا، مطلقاً.

- كم عمرها؟ هل تعلم ميولاتها؟

- عمرها ثمانية عشر عاماً. إنها قارئة كبيرة. يبدو أنها تُنفق كلَّ مصروف جيبها عندكِ!

- كلووي؟ أنتَ شقيق كلووي؟ لكنني لم أكن أعلم أن لها أَخٌ أكبر!

- هذا لا يدهشني. أنا المثال السّيئ، الأخ الملعون! لم أعُد إلى أوزيس منذ ثلاثة أعوام.

قال ذلك بابتسامة مصحوبة بنظرة حزينة.

- أعود من إيرلندا حيث أكملتُ دراستي. لا أعلمُ إن كان هذا يُرضي والدَيَّ، لكنني كنتُ حريصاً على أن أكون حاضراً للاحتفال ببلوغ كلووي سنَّ الرشد. لن أتأخّرَ. أيّ كتابٍ تنصحيني به من أجلها؟

كنتُ مضطربة، فقد فهمتُ للتو لماذا لم تَرُقْ روايةُ **سيارة أجرة بنفسجية** لكلووي. «جيري كينْ»، شخصية غامضة ورومانسية، نَفَتْهَا أسرتُها الأمريكيةُ إلى إيرلندا، وتُشبهُ هذا الشخصَ الذي كان يقف أمامي.

- أعتقدُ أن كلووي ستحبُّ رواية **مَنْفَذٌ جميلٌ** (*L'Echappée belle*) لآنا غافالدا (Anna Gavalda).

- لم أكن أعرفُ هذه الكاتبة. لكن لا بد أنها مناسبة جدّاً.

بقيتُ وحدي، جالسة فوق كرسيٍّ الكتْبيّة الصغير. وفي الخارج كان يسود ظلامُ الليل.

أجدُ تمزُّقَ الأُسر أمراً محزناً بعمق. وأعرفُ أن التمتّع بحبِّ أقربائي قد كان ضرورياً بالنسبة إليّ عندما كنتُ في طور ذاتي. حاولتُ أن أعيد إنتاج ذلك الجوَّ مع ناثان والأطفال، وأعتقد أنني توفَّقتُ، على الرغم من أنني، في سبيل ذلك، قد أغفلتُ نفسي بعض الشيء أحياناً، لصالح إيليز وغيوم.

منذ عهد قابيل وهابيل، يمتلئ الأدبُ بتلك الحكايات التي تصف أُسَراً تتناحر.

تبدو أحياناً علاقاتُ زنا المحارم وتَقاتُلُ الأشقاء موصوفة بكثير من الدقة من لدن الكتّاب، إلى درجة أني كثيراً ما تساءلتُ عن طبيعة أساس تلك السرود التي تواري السيرةَ الذاتية خلف التخييل.

تُعتبر **رواية طيبة** (*Le Roman de Thèbes*)، التي كتبها كاهنٌ مجهولٌ في القرن الحادي عشر، بمثابة إحدى أقدم الروايات الفرنسية. تحكي قصةَ ابنَيْ أوديب، إيثيوكل وبولينيس، اللذين يتقاتلان في معركة فردية أمام جيشيهما لكي تتوقّفَ أخيراً الحربُ من أجل حكم طيبة.

كان كتابُ غافالدا أكثر إيجابية، مبيّناً كيف أن إخوةً يقرّرون، بعد أن صاروا كباراً، أن يتبرّعوا على أنفسهم بعودةٍ إلى الصِّبا خلال يومٍ واحد، ليلتحقوا بأصغرهم سنّاً، والذي أصبح دليلاً سياحياً في قصر عتيق بالتُّورين.

عادت كلووي لزيارتي عشرة أيام بعد ذلك.

- هكذا فقد أصبحتِ تعرفين شقيقي «تانكي»! أحببتُ كثيراً الكتابَ الذي أهداني. اختيار موفَّقٌ جدّاً.

كانت كلووي متألِّقةً.

- كيف كان حفلُ عيد ميلادكِ؟

- هائل! أدينُ لكِ بتفسيرات...

- لا، أبداً. لا تدينين لي بأيّ شيء، لستُ سوى كُتْبِيَّةٍ، بائعة كتب، مثلما يبيع آخرون قبّعات أو جُبنة! ليس لي أيُّ حقٍّ عليكِ، وأنا جدُّ مسرورة بهذا.

- أنتِ تبالغينَ! أنتِ كُتْبِيَّةٌ رائعةٌ، أعظم كتْبِيَّة!

- لم أعهدْكِ أبداً فصيحةَ اللسان، جيّاشةَ القلب، بهذا الشكل! أيكون بلوغُكِ سنّ الرشد ما يمنحكِ جناحين؟

- لا، لا تتصورين كم تمنّيتُ طويلاً أن تتجمّع أسرتي أخيراً! والدايَ شديدا الصرامة، وكانا قد قرَّرا إبعاد تانكي عندما اكتشفا أنه مستهلكٌ مثابرٌ للعشب الممنوع. لم يريدا أن يقتنعا بأنّ الأمر في النهاية جدّ شائع بين شباب الثانوية، وتوجد طرائق أخرى لمعالجة الأمر أقلّ تطرّفاً من ذلك النفي. كان تانكي يرغب في أن يدرس الهندسة، وبدل أن يتركه والدي في فرنسا، قرَّرَ أن يُرسله إلى مدرسة خصوصية في دبلن. عندما رحلَ تانكي كنتُ في الرابعة عشرة. عاد مرةً واحدةً، منذ سنتين، ليقضيَ عطلة أعياد الميلاد في البيت. كانت لحظات رهيبة حيث كان كلٌّ واحد يعمل بإصرار على استفزاز الآخر. كان أبي يريد أن يستمرَّ في بسط سلطته على ذلك الشاب ذي الإحدى وعشرين سنة، والذي من جهته، كان يستغلُّ كلَّ فرصة ليتحدّى الصلابةَ الأبوية. كنتُ ألقي اللوم على أبي لحرماني من أخي. وكانت أمي تحاول أن تُبرِّرَ صرامةَ والدي، لكنني لم أكن أرغب في الإنصات إلى كلامها. في ذلك المساء، استعدتُ تانكي. كان يبدو فرحاً لوجوده هنا. وأبي بدوره كان هادئاً، وأعتقد أننا كنّا، في أثناء عيد ميلادي، نشبه صورة أسرة مثالية. كان ذلك أجمل هدية.

في اليوم الموالي، ذهبنا لقضاء النهار في «إيك-مورت»، مثلما كنا نفعل في طفولتنا، حيث كان والدايَ يأخذانا إلى المطعم في المدينة الكامارغية. كان أصحابُ المطعم الذي نقصده لم يتغيّروا، ولم تتغير كذلك كعكةُ المِلفوي بالتّوت الرائعة التي كانوا يصنعونها! سيظلُّ معنا تانكي أياماً قليلة قبل أن يعود إلى لندن حيث سيشرع في العمل. أمّي موافقة على أن ألتحق به مدّةَ شهر كاملٍ في أثناء فصل الصيف المقبل بشرط أن أستغل الأمرَ لتحسين إنجليزيتي!

- هذه أخبار طيبة، كلووي!

- أجل، أتدرين، لقد أهديتُ كتاباً لشقيقي. كتاب اشتريتُهُ من عندك...

- آه، دعيني أُخَمِّنُ... ألا يتعلق الأمرُ بقصة أسرة، تحدثُ في قصر إيرلنديٍّ جميل، ولكنها تنتهي نهاية سيئة جدّاً؟

ابتسمتُ للفتاة وأنا أقولُ لنفسي إن الأمر لا يحتاج في بعض الأحيان سوى القليل، بعضِ الكتب فحسب، لتستعيد الحياةُ ألوانَها التي كانت قد فقدتها.

عندما التحقتُ بناثان، قصصتُ عليه التئامَ شمل تانكي بشقيقته.

يُحسن ناثان الإنصاتَ، لكنني كثيراً ما أتكدَّرُ بسبب ضعف انفعاله وتأثره.

يوافقُ بابتسامة، ويرفضُ بعبوس يتميّزُ بحركة من شفتيه مصحوبة بهزِّ رأس خفيف.

لا مجال عنده لانسياقٍ عاطفيٍّ أو لحماسٍ حقيقيٍّ.

غير أنه، في ذلك المساء، فهم كلَّ الفهم أن تلك القصة كانت تؤثِّرُ فيَّ لأنها كانت تتصادى مع قصتنا نحن.

- أخبريني، ناتالي، أنتِ لا تعتقدين بأن ابنتكِ لا تريد أن تراكِ مدى الحياة؟

- لماذا تقول لي هذا؟

- لأنكِ تُفكِّرين في إيليز عندما تتحدّثين عن كلووي.

- أنتَ على حق. الإحساسُ بأنها بعيدة كلّ هذا البعد، أمرٌ في غاية القسوة.

- لكن لا شيء يجمع بين هذا وبين قصة تانكي! أنتِ لم تواجهيها بكلامٍ جارح!

- لستُ أدري...

- لكني أنا أدري، وأؤكِّدُ لكِ أنها تحتاج إلى أن نمنحها بعض الوقت فحسب. ليس من اليسير أن تجد مكانها في ظلِّ أُمٍّ مثلكِ.

- لكنني أنا لا أصنعُ ظلاًّ. كنتُ دائماً أُمّاً مُحِبَّةً أسعى إلى أن أعطي الأفضل.

- هذا ما أقصد تحديداً... يصل وقتٌ يتوجب فيه على الطفل، إن كان يريد أن يواجه العالمَ مُسَلَّحاً بكافة إمكاناته، أن يُفلِتَ من رقابة ضابط الأمن الذي هو أُمُّهُ، أو أبوهُ...

- ما الذي تقصد بضابط الأمن؟

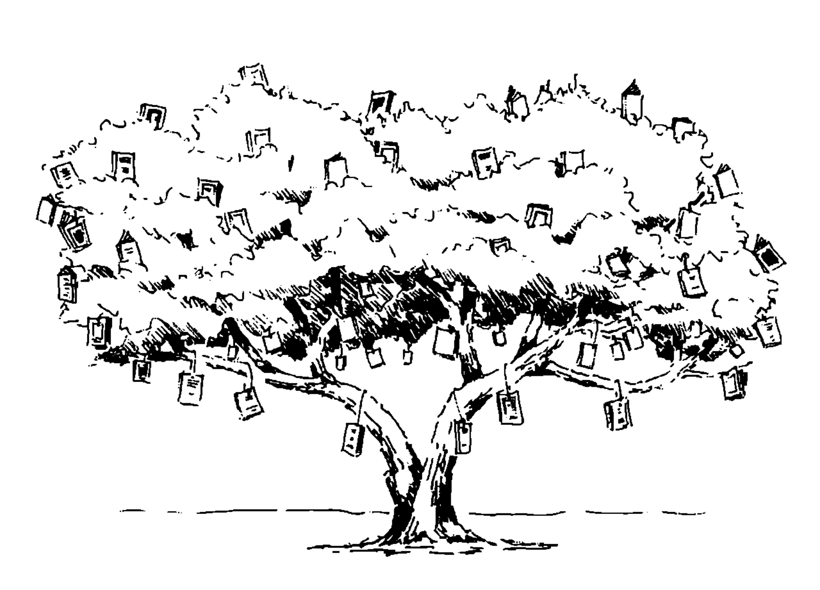
- هم أولئك الذين يرافقون رؤساء الدول أو الوزراء. رجال بلباس مدنيٍّ يكونون دائماً بجانبهم ويسهرون على حمايتهم من أن يصيبهم أيُّ سوء.

- فهمتُ. لكن ذلك لا يمنعهم أحياناً من أن يتلقّوا بيضة على الوجه...

- أجل... مع إيليز، يجب أن تُرخي لها الزمام، وأن تتركيها تعود من ذاتها. إنما تريد أن تُبرهِنَ لكِ أنتِ قبل أيٍّ كان على أنها تستطيع أن تصبح امرأة كاملة، حرة ولكن أيضاً مستقلة، قادرة على أن تأخذ وتمنح بالقدر نفسه. فإلى الآن لم تفعل سوى أن تتلقى منكِ. كان الأمر غير متوازن.

- أتقبَّلُ حججكَ، لكن يجب أن تعترف مع ذلك أن الأمر صعب!

- يمكن ألَّا يكون كذلك. لا يتوقَّفُ الأمرُ إلا عليكِ أنتِ. إما أن تنظري إلى العصفور الذي ينطلق محلِّقاً، أو إلى القفص الفارغ...



جاك

تأملات المتنزِّه
المنفرد بنفسه



كلَّ خميس، أتلقّى صناديق الكتب التي ستُغَذّي مكتبتي. منها كتبٌ طلبتُها، ولكن أيضاً كلّ تلك التي هي جزء من الخدمة.

والخدمةُ نظامٌ أنشأهُ لويس هاشيتْ في القرن التاسع عشر، لا يزال إلى اليوم يُنظِّمُ تموين المكتبات بالكتب. المبدأ بسيطٌ، يتمثل في الالتزام بتعاقد مع الناشرين باستقبال جميع الكتب الجديدة، لكن مع إمكانية إرجاعها على الأقل بعد ثلاثة أشهر على ظهورها وقد يمتد الأمر إلى اثني عشر شهراً. وهذا يخلق حركة تنقّل مهمة، لأن ثلثَ الكتب لا تفعل سوى المرور برفوف المكتبة من دون أن تجد لها قراء. وفي المقابل، يسمح ذلك للكُتْبِيِّ ألّا يركب مخاطرة مالية بشرائه كتباً لن يبيعها أبداً.

ويمنح هذا المبدأُ كلَّ عملٍ جديد الفرصةَ أن يصير، مدّةَ سنة كاملة، مرجعاً يُشكِّلُ جزءاً من مخزون المكتبة، بشكل يجعله يجتاز خطواته الأولى. وقد يكون الأمر قاسٍ في بعض الأحيان، لأن العديد من المنشورات لا تتجاوز عيد ميلادها الأول.

فالأمر، بالنسبة إلى مؤلِّفٍ احتاج إلى سنوات تكوين قبل أن يولد كتابُهُ، يكون شديد الكآبة.

بيدَ أنّ حتى كبار الكتاب، من أمثال ميسو (Musso) وغافالدا (Gavalda)، ورولينغ (Rowling)، قد مرُّوا من تلك المحن قبل أن يعرفوا النجاح والذّيوع.

صباح الخميس هو يوم عيد لأني أفرغُ صناديقي مثل طفلة تفتح هداياها صباح نويل.

أصنع ثلاث أكوام: تلك التي ستذهب لتلتحق مباشرة بالرفوف لأني أعرفها من قبل، وهي دراسات أو كتب عملية لا تحتاج بالضرورة إلى تجربتي لدى القراء؛ وتلك التي طُلِبتْ مني وأحتفظ بها في قعر الصندوق لأسلِّمها إلى مشتريها، والروايات التي لا أعرفها والتي سيتعلق مستقبلُها كثيراً برغبتي في أن أنصح بها، أو لا...

هذه الأخيرة هي المفضلة لديّ. إنها حقيبة الكنز! وفي بعض الأحيان تكون حقيبة الخيبات، عندما يُخيِّبُ أملي كاتبٌ أحببتُهُ كثيراً بإصداره كتاباً لا أستطيع من مقته الاحتفاظَ به بين يديّ.

وبما أنني لا أستطيع أن أقرأ كلَّ تلك الكتب في يوم واحد، فإنها تلتحق بالطاولة الخشبية العتيقة حيث تتربع اللافتةُ الصغيرةُ «مقتنياتٌ جديدة».

من الكتب ما تستهويني أغلفتُها من الوهلة الأولى، أو تلك التي تحدّثَ عنها النقد بمديح لدرجة أنني لا أقاوم رغبتي في قراءة الصفحة الأولى.

أعيشُ حينئذٍ لحظةً استثنائية أطلقتُ عليها اسم «عتبة القُبلة». والعتبة مصطلح يعني الكلمات الأولى، أو الجملة الأولى من النص.

بعض العتبات ترقى إلى أعمال فنية راقية وتدفعكَ إلى قراءة مثل قذيفة من العاطفة، والذكاء، والغرابة. وبعضها يظلّ بارداً من دون تأثير.

عتبة القُبلة، هي القبلة الأولى... المالحة، والحلوة، والناعمة، والـمُرّة، والرطبة، والجامحة، والمتمردة، والمختَطَفة، والمضروبة، والمداعِبَة، والشهوانية، والغريبة، والجليدية، والمخنوقة، والمتّقِدة...

الانطباع الأول. غالباً، يكون هو الصّائب.

غالباً، لكن ليس دائماً!

ينبغي في بعض الأحيان منحُ الوقت للعاشق الذي كان لا يُحسن التقبيلَ كي يتعلّمَ، ليصيرَ، أحياناً، خبيراً...

في ذلك الصباح، كنتُ قد فتحتُ **رحلةٌ مع الغائبة** (*Voyage avec l'absente*)، كتاب آن برونسويك (Anne Brunswic) الأخير...

«الطفولة غابةٌ غامضة، ملأى بالهمسات المقلقة والرسائل غير المقروءة، والمسكونة بمليارات الحيوانات التي سيظهر أن أغلبها غير مؤذٍ بشرط ألا نُقلقها لا في نومها، ولا في هضمها، بينما ستبدو أخرى مفترسة، وليست أضخمها التي يجب أن نخشى، ومسكونة أيضاً بالغيلان، والسحرة، واللصوص».

العتبة اللامعة. في جملةٍ، طويلة بالتأكيد، قدرٌ، وطموحٌ، واليقينُ بأن الكتابة ستكون جريئة وصاخبة. تتردَّدُ أصداءُ الكلمات في عقلي مثل أمواج المدِّ والجزر في نهر كروزون.

كثيراً ما قلتُ لنفسي إن دراسة ممتعة يمكن أن يكون محورها تتبّع مسير قارئ داخل مكتبة. ينبغي استعمال كاميرا خفيّة لتصوير جميع حركاته. الكتب التي لم تنَل منه سوى لمحة بصر، وتلك التي

أخذها بين يديه، والتي فُتحتْ أحياناً، أو تلك التي لم يقرأ منها سوى ظهر غلافها، قبل أن تعود إلى مكانها!

استفسار الزبون عمّا استهواهُ أو نَفَّرَهُ بعد أن أبدى حركة اهتمامٍ أولى.

الصورة فوق الغلاف أولية، وبالتأكيد أيضاً الكلمات المكتوبة فوق ظهر الغلاف، التي تكون أحياناً ملخَّصاً أو مجرد نصٍّ مقتَطَفٍ.

أؤمنُ بأهمية شهوانية الشيء. فالقارئ الذي سيقضي عدداً من الساعات في اتصال مع الورق، يجب أن يجد متعةً؛ متعة الصفحة التي نفركُها بين أصبعين قبل أن نقلبها، ومتعة الغلاف الذي نداعبه مداعبةَ الحرير، ومتعة الحاشية التي يمكن أن نضعها فوق الشفتين من دون أن نجرح أنفسنا بحدِّ الأوراق.

يمكن للمرء أن ينام عارياً فوق الورق مثلما ينام في أغطية الفراش التي جفَّتْ في الريح والشمس!

ولستُ متأكدة من أن النوم فوق لوحة إلكترونية قد يمنح كثير متعة...

بالنسبة إليّ، تعويض جميع الكتب بشيء واحد حيث نستطيع أن نقرأ جميع القصص، أمرٌ شبيهٌ بحذف كلِّ الأطعمة، وأيضاً تقديمها في الصحن، فلا يقترح سوى قوارير تُرمى بعد الشرب مكتوب عليها «كرز طري»، أو «كاسوليه»، أو «شوكولا بالبندق»، أو «كعكة بالليمون»...

أتساءلُ أيضاً حول الكلمات التي تولَدُ من كاتبٍ يرقن فوق لوحة مفاتيح، أو تلك التي يرسم المدادُ طريقَها فوق الورق، فأحياناً تنزلق، أو تحفر مجراها، أو تمسّهُ مسّاً رفيقاً.

أَلَمْ تتغيَّرْ كلماتُ النّاس بمجيء الحواسيب... أكان هوغو، أو لامارتين، أو ستندال ليكتبوا الشيءَ نفسَهُ فوق لوحة مفاتيح؟

دخل الرجلُ إلى المكتبة، بصمتٍ، من دون أن أنتبه إليه، مع أن الباب مزوّد بجرس.

لا بد أني كنتُ منشغلةً بفتح الصناديق أو مستغرقة في قراءة عتبة برونسويك.

عندما رفعتُ رأسي، كان يقف أمامي، وهو يُقَدِّمُ لي **خمسة تأملات حول الجمال** (*Cinq méditations sur la beauté*) لِفرانسوا شانغ (François Cheng).

لم يكن شديد الطول.

كنتُ أجد صعوبة في تحديد سِنِّهِ، وفي جميع الأحوال لم يكن لا يزال شاباً. كانت لحيتهُ الطويلة بعض الشيء والكثّة، مثلها مثل شعره، الطويل والكثيف، يشهدان بأنّ الزمن قد جرى قليلاً في حياة هذا الرجل.

عند رجليه، حقيبة ظهرٍ. حقيبة ظهر كبيرة جدّاً، عُلِّق عليها فراشٌ ملفوف في غطاء.

كانت له عينان جميلتان زرقاوان، شديدتا الحيوية والمكر، ترتسمُ عليهما دائماً بسمة صغيرة.

كان يُذكِّرني بجورج موستاكي (Georges Moustaki)، لكنه كان من دون غيتار.

- صباح الخير، سيدتي، اسمي جاكْ، أودُّ أن أكتريَ من عندكِ هذا الكتاب.

- صباح الخير، أنا آسفة، لكنني لا أشتغل بكراء الكتب.

- إذاً، سأشتريه منكِ، ولكن إن وافقتِ، فسأعيدُهُ إليكِ بعد قراءته.

- يا لها من فكرة غريبة. قدِّمهُ هديّةً!

- لا أعرفُ أحداً في أوزيس. كما ترين من حقيبة ظهري، أنا مَشّاءٌ، حاجٌّ إن أردتِ التدقيق. انطلقتُ منذ شهر تقريباً من «سان-جاك-دو-كومبوستيل»، وأتوجّهُ إلى «مون-سان-ميشيل». غير أنني، منذ يومين، اضطرّني ألمٌ في ربلة الساق إلى الذهاب لرؤية الطبيب الذي ألزمني بالتوقف عن المشي مدَّةَ ثلاثة أسابيع إن كنت أريد الوصول يوماً إلى مون-سان-ميشيل على رجليَّ. وها أنذا إذاً، محكومٌ عليَّ بالمكوث في أوزيس في أثناء كل هذه الفترة، والمشي أقلّ ما يمكن.

- المكوث هنا ليس عقوبة، فأوزيس مدينة رائعة.

- أجل، بدأتُ ألاحظُ ذلك. هذه الساحة فخمة! سأخصص وقتي إذاً للقراءة، لكنني لا أرغبُ في أن أُثْقِلَ حقيبة ظهري بالكتب التي سأقرأها في أثناء هذه العطلة. فهذا ما يُبرِّرُ طلبي.

- أفهمُ. لكنني أجد نفسي الآن محرجة جدّاً.

- لا داعي للحرج، وأخبريني بكَمْ أنا مدينٌ لكِ ثمناً لتأملات شانغ هاته. وأودُّ أيضاً أن تُرشديني إلى مكان أنامُ فيه، بشرط ألّا يكون بعيداً عن المكتبة، وألّا يكون شديد الفخامة.

- أنصحكَ بالذهاب عند باتريك، في شارع لاغراند بورغاد. في هذا الفصل، لا أظنه سيكون مليئاً. توجد لديه غرفُ ضيوفٍ جميلة بأثمان جدّ معقولة.

انصرف جاك وهو يعرجُ، حاملاً حقيبته الضخمة، متوجهاً إلى لاغراند بورغاد.

بعد ذلك، عند مغادرتي للمكتبة، أخذتُ معي كتاباً من فوق طاولة المقتنيات الجديدة: **المستشفى البحري** (*L'Hôpital maritime*) لباسكال روفناك (Pascal Ruffenach).

بقراءتي لكتابين أو ثلاثة كلَّ أسبوع، كنتُ أتمكّنُ من تكوين فكرة عن الكتب التي لم يتحدث عنها النقاد بعد. والكتب التي أفضّلها أضعُ على غلافها علامةً ملوَّنةً. وبذلك كانت طاولة المقتنيات الجديدة تتزيّنُ بلافتات ملوّنة حيث كانت استدعاءات قصيرة يمكن أن تجتذب نظر القارئ:

«قبل الانطلاق في الطريق نحو سان-جاك-دو-كومبوستيل» هذا ما كان مكتوباً فوق لافتة زرقاء صغيرة معلَّقة على غلاف **جولة خالدة** (*Immortelle randonnée*) لروفان (Rufin).

«كآبة حلوة» فوق لافتة وردية على كتاب **حياة امرأة أخرى** (*La Vie d'une autre*) لديغيلت (Deghelt).

أما **المستشفى البحري** لروفناك فقد كان من نصيبه «تأمُّلٌ بحريٌّ حول نهاية الحياة».

هذا الكتاب شبيه بالصحون الطائرة. لا نعرفُ شيئاً عن القصة التي قادَت رجلاً إلى أن يأتي ليعيش أيامه الأخيرة في ذلك

المستشفى على ساحل البحر. لا نجد تدقيقاً حول الساحل المعنيِّ، ولا حول أسماء الشخصيات. الكلُّ ليس سوى تعبيرٍ عن إحساس عارٍ عن أيِّ تزويق. الجمل نفسها قصيرة. والكلمات قليلة، من دون تنميق، ولكن بإيقاع مصاحَبٍ بكتابةٍ شاعريةٍ وحسّاسة. إيقاع يعانقُ الموجة التي تُقبِلُ ثم تنسحبُ، ترافقُ المَدَّ الصاعدَ، ثم الجزْرَ الذي يُعرّي الشاطئ.

أحبُّ كثيراً كتابةَ روفناك، ولديَّ إحساس أن الصَّقلَ الأدبيَّ الذي يبرعُ فيه يلائمُ تماماً البحثَ عن الأشكال الأكثر بساطة، بل تقشّفاً، التي يراهنُ عليها القراء.

منذ اليوم الموالي لاقتراضه، جاء جاك ليُعيد لي الكتاب.

- فرانسوا شانغ فيلسوف كبير حقيقة. أعلمُ أنه قد نشر أخيراً **خمسة تأملاتٍ حول الموت**، لكنني ليست لي رغبة كبيرة في الاستعداد لذلك الموعد. وعلى العكس من هذا، أنا بحاجة حقيقية إلى من يرافقني في طريق الجمال!

كانت عيناه تحتفظان بابتسامتهما، وبما أني كنتُ أعرفُ أنه لا ينقصه الوقتُ، فقد واصلتُ الحوار...

- لكن لا بد أنك قد شاهدتَ أشياء جميلة في الطريق منذ خروجك من سان-جاك!

- بالتأكيد، أنت تفكرين في الكنائس، والمناظر، والأضواء، والطيور، والأشجار الكبيرة؟

- أجل، أفكّر في كل ذلك.

- رأيتُ كلَّ ذلك، لكن، مثلما يقول شانغ، يوجد شكل من المحافظة في أن نجد ذلك جميلاً. نحن مهيؤون لأن نُعجَبَ بشجرة كبيرة، أو بشمسٍ عند الغروب، أو بزجاجيات سولاج (Soulages) في دير بلدة كونك (Conques)، أو بقوسٍ مزخرفٍ فوق باب كنيسة صغيرة. لكن، هل نجد، في أعماق ذواتنا، طريقَنا نحو الجمال؟ هل نُردِّدُ، خلف ملايين الآخرين، أن الجوكاندا قمّة فنية أم إنها قمة فنية بالنسبة إلينا نحن، تلك التي ترجُّنا من الداخل وتخاطبُ تاريخنا؟ ما وجدتُهُ جميلاً حقّاً عندما جئتُ إلى سان-جاك، إنما هو الطريق. الطريق في حدِّ ذاته. هذا الطريق الذي سلكَهُ كلُّ أولئك الناس قبلي وحيث كنت أضع خطوتي، فأضغطُ بدوري على الأرض الحاصبة. خطوة تُدحرج ذاك الحجر الصغير، الذي اقتلعه من قبلي حذاءُ حاجٍ آخر. أحبُّ ذلك الحجر الصغير. لم أكن سوى واحدٍ من بين عدد لا يُحصى من المارّة قبلي ومثلهم من بعدي، ولكني مع ذلك مشاركٌ بقسط ما في صنع ذلك الطريق. مع كلِّ الإنسانية، ولكن أيضاً بفرديتي.

- أشكركَ على هذه التأملات! اسمي ناتالي.

- كانت «ناتالي» عند بيكو (Bécaud) تنتمي إلى الساحة الحمراء، أما أنتِ فتنتمين إلى ساحة الأعشاب... من الممتِع أن نتشارك الأفكار. هذا أيضاً، تعلَّمْتُهُ من الطريق. كنتُ أعتقد أني سأمشي وحيداً من سان-جاك إلى سان-ميشيل لكنني لم أتوقف عن الالتقاء بمشّائين آخرين، أو مضيفين كرماء في أثناء الاستراحات.

مدَّ إليَّ جاك **القضية الإنسانية** (*La Cause humaine*) لباتريك ڤيڤريه (Patrick Viveret).

- ها هو كتاب اليوم. سأقرأه في الشرفة الموجودة في الساحة. تحت أشعة الشمس.

- إذاً، أعيرُكَ إياه.

- لكن هذه ليست مكتبة عمومية!

- بالنسبة إليكَ بلى...

في اليوم الموالي أعاد إليَّ صعلوكي السّماويّ الكتابَ حيث كان قد وضع مُعلِّم صفحاتٍ مصنوع من ضفيرة أوراق البامبو.

- لقد نسيتَ مُعلِّمَ صفحاتك...

- احتفظي به... أجد هذا الاقتصاديَّ الفيلسوفَ شديد الإثارة! لو أنني كنتُ قد قرأْتُهُ من قبل، لم أكن أبداً لأنَشِّطَ فِرَقي مثلما فعلتُ. ڤيڤريه على صواب. المنافسة ليست سوى إغواء. إنها تستهلك الناسَ فوق حلبة السلطة. يوجد يومٌ يسقط فيه على الأرض حتى ذلك الذي لم ينهزم أبداً. يجب المراهنة على دعم التعاون باعتباره بديلاً حقيقياً للمنافسة. لم أتوقف عن وضع الإنسان في خدمة الاقتصاد وليس العكس.

- هل قمتَ بتسيير شركة؟

- أجل، لكن ذلك لم يعد يهمُّ... ليس هذا هو الأساس. كنتُ النموذج الذي يصفه ڤيڤريه. كنت أنتقلُ من إثارةٍ إلى اكتئاب. مثل تلك الأُسر التي تدخل إلى متجر كبير بعربة تَسَوُّق، ويملؤونها عن آخرها، حيث يستجيبون لعروض التخفيضات وإشهارات المعارض الرئيسة،

التي تُسوِّقُ لكل السِّلع التي لا يحتاجون إليها، ويُصابون بالاكتئاب بعد أن يمروا إلى صندوق الأداء، ويكتشفوا ما أنفقوا من أموال ولكنهم لا يملكونها... السكينةُ أمرٌ مختلف. إنها ما أبحثُ عنه... هي بكل بساطة تقديرُ ما نملكُهُ، من دون أن نبكي على ما فقدناه أو أن نحلم بما لم نتملَّكْهُ بعد. سآتي لآخذ كتاباً غداً، لأن هذا المساء هو للسينما! اكتشفتُ أن لديكم قاعة فنٍّ وتجريب استثنائية بالنسبة إلى مدينة صغيرة مثل هذه! سأذهبُ لأشاهد **بياض الثلج**، فيلم صامت بالأسود والأبيض!

- فرجة ممتعة، إذاً!

- ألا ترغبين في مرافقتي؟ أدعوكِ، مقايضةً بالكتاب الذي سأقرأه غداً.

- أوه، لا. شكراً.

- هل تقول ديانةُ الكُتْبِيِّين بأنهم لا يحقُّ لهم الذهاب إلى السينما رفقة زبائنهم؟ ليس لك ما تفعلينه هذا المساء، أليس كذلك؟

- كيف تعلم ذلك؟

- حدسٌ. سأكون عاقلاً. في السادسة عشرة، كنتُ لا أشاهد من الفيلم إلّا القليل، لأني كنتُ أنشغلُ بتقبيل جارتي. لكنني اليوم قد كبرتُ قليلاً عن...

- أنا موافقة إذاً!

وهكذا ذهبنا لمشاهدة ذلك الفيلم الرائع: **بياضُ الثلج** وقد انتقلتْ إلى عالم مصارعة الثيران في إشبيلية! ترافقكَ الموسيقى

على طول قصة تحملها صورٌ بالأسود والأبيض في إيقاع مثير. حكايةٌ حُلميةٌ حقيقية، رَاقَتْنا كثيراً أنا وجاك.

يُهيِّجُ وسطُ مصارعة الثيران الأهواءَ، فَيَفْتِنُ البعضَ ويُغضِبُ الآخرين. ويوجد في منطقتنا الكثيرُ من الهواة الذين لن يُضيِّعوا، مهما يكن السبب، عرضاً من عروض الفيريا بمدينتَي نيم أو آرل. بالنسبة إليّ، فإن الشيء الوحيد الذي أحبُّهُ في الكُورّيدا، هي اللّافتات التي تُعلِنُ عنها. تتشكَّلُ في الغالب من الأحمر، والأسود، والذهبي. والبعض منها أعمالٌ فنية حقيقية.

ثلاثُ نسخ جميلة من توقيع ماريانو أوتيرو (Mariano Otero) تُزيِّنُ المطبخَ في البيت. فأنا شديدة التأثر بتلك الخطوط المطبوعة والمنحنيات الرجولية والشهوانية في الوقت نفسه. أما بالنسبة إلى الباقي، فأشعر أن الحشود التي تتزاحم في ساحات الثيران، إنما يبحثون عن متنفَّس للتعبير عن الدوافع العنيفة المكبوتة خلف حُسن الأخلاق في الحياة اليومية. عندما كنتُ طالبةً، حدث أن انسقتُ لمرافقة أصدقاء إلى حضور مباريات كرة القدم حيث كنتُ أجدُ صعوبة في التعرّف على أصدقائي من شدة ما كانوا يتغيّرون بمجرد أن يجلسوا فوق المقاعد. لا أعتقدُ أن كلَّ ذلك يخدم مجد الإنسان...

في اليوم الموالي لأمسيتنا في السينما، كنتُ قد جلبتُ للمكتبة أريكةً من قماش.

كان المطر يهطل، وكنتُ قد حدّثتُ نفسي بأن مَشّائيَ الفيلسوفَ لن يكون في إمكانه أن يذهب إلى شرفة مقهى، وأنه سيرافقني في

أثناء ذلك الخميس الرماديِّ، حيث إني لم أكن أتوقع كثيرَ زحامٍ في المكتبة.

كنتُ قد وضعتُ فوق الأريكة كتابَ ألان كونيو (Alain Cugno): **اليعسوبُ والفيلسوف** (*La Libellule et le Philosophe*).

- طابَ يومكَ، جاكْ.
- طابَ يومكِ، ناتالي.
- لقد هيّأتُ لكَ ركناً صغيراً، وكتاباً يمكن أن ينال رضاكَ...
- يا لجميل لطفكِ! ها أنتِ تصبحين مُرشدتي الأدبية!
- ذاك لأنّي أنصتُّ إليك. ألان كونيو يُدرِّسُ في مركز سيفْر. إنه كاثوليكي. لكنه كاثوليكي من مناصري البيئة. يحكي هذا الكتابُ كيف اضطرَّ إلى العمل ليُصالح ما بين الفيلسوف والطبيعي اللذين كانا يعيشان بداخله.
- ستكون قراءتُهُ جد ممتعة.

شرع جاك في القراءة بصمت. أخذَتْهُ سِنَةٌ من النوم مرّتين، قبل أن يستأنف قراءته. كنتُ أفكّرُ في أبي. هو أيضاً، كان يغفو في أثناء قراءته في حضن أريكته المريحة. وكنتُ أجدُهُ، في تلك اللحظات، هشّاً، فأرغبُ في أن أضمَّهُ بين ذراعيَّ. الاختلاف شاسع بين صورة الأبوين في شبابنا وصورتهما عندما يشيخان. تُفسِحُ القوةُ المجالَ للضعف، واليقينُ للشكِّ، ويصير ذاك، الذي كان يمسكُ بيدك لتتعلَّمَ المشيَ، في حاجة إلى يدكَ لتسند خطواته.

أنهى جاك كتابَهُ بملاحظة بصوت مسموع كأنه يخاطبُ نفسه:

- لم أجد ما كنتُ أبحث عنه إلّا عندما لم أعُد أبحث عنه.

- عذراً؟

- آه، لا شيء. أيُّ نعمةٍ تلك اليعاسيب! صحيح أن الحيوان المتوحش، مهما يكن حجمُهُ، يسمحُ بأن يراهُ من يعرف كيف ينتظره من دون أن يُطارده. إنها هدية يُقدِّمُها إلينا بِحُرِّيَّةٍ، يمنحنا عاطفةَ لحظةٍ مجانية تماماً. أحبُّ عالم الحيوان. مثلما يقول ريلكه (Rilke)، فالحيوان يعيش في عالم مفتوح. وانطلاقُهُ الحيويُّ لا تَحُدُّ منه فكرةُ الموت التي لا يعيها. يعيش، فحسب، من دون الهوّةِ المُظلمة المقابِلة، التي تستبدُّ بالكثير من المعاصرين، وتصيبني بالهوس أنا كذلك. ولحسن الحظِّ أني تمكّنتُ من اكتشاف ريلكه، لأنه يمنح بديلاً للعدمية بدعوته إيانا إلى أن نعيش وجودَنا في مملكة مزدوجة تتكوَّنُ من الحياة ومن الموت. ما دامت الواحدة منهما لا تستطيعُ أن توجد بمعزل عن الأخرى، فإنه يدعونا إلى المزج بينهما في اللحظة التي نحيا، في الحاضر. أجتهدُ كلَّ يومٍ في أن ألتزمَ بتلك الدعوة، وألاحظُ أن الموتى يسكنون حياتي مثلهم مثل الأحياء. وأنهم يُدمجونني في مصير الإنسانية، في مكاني الصغير، ولكن في كامِلِ مكاني.

- أيمكنني أن أسألكَ لماذا أنتَ ذاهبٌ إلى مون-سان-ميشيل؟

- لأنني اهتديْتُ من قريب، وعليَّ الكثير من الخطايا التي أحتاجُ إلى التكفير عنها. مثل أولئك الأطفال، في العصر الوسيط، الذين كانوا يصعدون الجبل للتكفير عن خطايا آبائهم.

- آه. صرتَ مسيحيّاً.

- لا، كنتُ مسيحيّاً من قبل، ولو أن الوراثة كانت تشكِّلُ قسماً كبيراً من تديّني. لقد صرتُ من أنصار الطبيعة! وجبلُ مون-سان-ميشيل هو رمز واضح للعلاقة بين الطبيعة والروحانية. اشتغلتُ مسيِّراً لشركة ضخمة تعمل في مجال الكيمياء. ضخمة جدّاً. وجدُّ ملوِّثة. كنتُ مدةً طويلةً «شيطان» أنصار الطبيعة مثلما كانت تقول ابنتي.

لمحتُ ظلاً في نظرة مديري العام ذي الأسمال.

- ألديكَ أطفال؟

لم يُجب عن سؤالي واستأنف:

- أنتِ تعرفين أنهم في مون-سان-ميشيل قد قرروا هدمَ الرصيف الذي كان يربطه بالقارة. لقد انتبهوا إلى أن الخليج إنما تغمره الرمالُ بسبب ذلك الرصيف. ولو أنهم لم يفعلوا شيئاً، لصار مون-سان-ميشيل ذات يوم متربِّعاً وسط المروج والخرفان، ولم يعد جزيرة. بيد أن طابعه البحريَّ هو من يمدُّهُ بطابعه الروحاني. فالحاجُّ الذي يريد أن يلتحق بالجبل، عليه أن يغادر الأرض، ثم أن يعبر البحرَ والتيّاراتِ التي يمكن أن تجرفهُ، قبل أن يصعد نحو كبير الملائكة، هناك نحو السماء. بين الأرض، والسماء، والماء، يتفرَّدُ الجبلُ باستحضار الطبيعة. إنه أيضاً المكانُ الوحيدُ في فرنسا حيث وافقت السلطة العمومية أن تقوم بأشغال تبلغُ كلفتُها عشرات الملايين من أجل إصلاح خطئها! أتفهمين؟

- أفهمُ بالتأكيد. لم أنظر أبداً إلى الأمر بهذه الطريقة. إذاً، في الحقيقة، المشيُ نحو الجبل هو الحجُّ بالنسبة إلى القرن الواحد والعشرين!

- أتعرفين گاييل جيرو (Gaël Giraud)، ناتالي؟

- أجل، عالِم الاقتصاد اليسوعي الذي يفضح سلطة المال؟

- هذا هو. أيوجد لديكِ كتابُهُ الأخير؟

- أظن ذلك.

- إذاً، أشتريه منكِ.

- لا، بل أُعيركَ إياه، ويومَ يكون الجوُّ رائقاً ستدعوني إلى العشاء. لا أجد الفرصة دائماً للحديث إلى فيلسوف جوّال، وأرجو أن أستغلَّ توقُّفَكَ الاضطراري ما أمكنني الاستغلالُ، لنستأنف حواراتنا.

كان جاك يداوِلُ بين القراءة في شرفات مقاهي الساحة والقراءة في المكتبة.

أعاد قراءة بيغ سور (*Big Sur*)، كتاب كيرواك (Kerouac)، ذلك الشقيق الأكبر لجميع الهيبيين، وروسو (Rousseau) حيث أعاد اكتشاف أفكاره التي لم يكن قد أدركَ أبعادها في صغره. وعرّفتْهُ على ثورو (Thoreau)، شاعر فيلسوف، مناصر لحفاظٍ جذريٍّ على الطبيعة، حيث كان يمكن للإنسان أن يُعتبر بمثابة الحيوان الذي يجب أن يُقتَل.

كنتُ أرى الأيامَ تنصرمُ، وكنتُ أعرفُ أنّ جاك سيستأنفُ مسيرهُ قريباً.

كنتُ أعتبر حضورَهُ امتيازاً. لحظات نادرة كنّا نتقاسمها وتتواصلُ كلَّ يوم، تصدر شرارتُها الأصليةُ دائماً عن كتاب.

كلُّ حوار يحمل في أحشائه الإبداعَ، مثلما يحمل الدَّمار. تأتي الأفكارُ، وتولد في اللحظة التي يتحدَّثُ فيها الآخرُ إلينا. ودقائق قبل ذلك، لم تكن تلك الأفكار موجودة حتى في مستوى النوايا.

تستطيع الكلماتُ المكتوبةُ، ثم المقروءة، المتلَفَّظة أو المسموعةُ، أن تُغيِّرَ مصيراً.

توجد كتبٌ صُنِعَتْ من أجل ذلك. نعثُرُ عليها في جناح «التطوير الذاتي». يبحث فيها قرّاؤها عن سُبُلٍ، أحياناً منافذ روحانية، وفي الغالب عن وصفاتٍ لأجل سعادة «جاهزة لأن تُعاش».

تبدو لي البساطةُ أحسن سبيل. والحقيقة كذلك. توجد بالفعل حريّاتٌ لا نصلُ إليها إلّا عندما تتضافرُ الحقيقةُ مع البساطة.

هذا ما يُجَسِّدُهُ جاك.

كنتُ أتصوَّرُ، عبر الكتب التي كان يقرأها، غايةَ بحثه. الكتبُ مثلها مثل التوابل، لا تعيد التوازن إلى أيامنا بإعادة توجيهنا إلى وضعنا العادي، ولكن بأن تُتيحَ لنا أن نؤكِّدَ كيف أنَّ كلَّ واحدٍ يمكن أن يعثر في حياته على فضاء، يُطوِّرُ فيه رغبتَهُ في الفرح، والحبِّ، والسلام، والمغامرة.

مثلما يمكن للبعض أن يحدِّد ما هو اللقاء الذي غيَّر مجرى حياته، كذلك يمكن، بقليل من التفكير، أن نضع قائمة بالكتب التي شكّلت بالنسبة إلينا مراجعَ، كأنها معالم في طريقنا. قد تكون أحياناً

معالمَ مُطَمْئِنَةً في طريقٍ كنّا نحسب أنفسنا تائهين فيه، وقد تكون، في أحيان أخرى، دعواتٍ لتغيير الاتجاه، بل لإحداث تحوّل.

أردتُ أن أجعل ناثان يستفيدُ من لقائي مع جاك، فاقترحتُ على هذا الأخير أن يأتيَ للعشاء في البيت يوم السبت، لكنه اعتذر عن تلبية دعوتي.

- أنامُ مع الشمس وأصحو معها. ذاك إيقاع المشّاء. لم أكن قد أدركتُ إلى أيِّ حدٍّ يمكنني أن أكون مُتَّحِداً مع الطبيعة، ومن ثَمَّ مع الحياة، إلّا عندما اخترتُ أن أسير وفق هذا التوقيت الطبيعي.

- إذاً ستأتي يوم الأحد للغداء.

- بكل سرور، إذا قبلتُم أن أذهب أولاً لحضور القدّاس في الكنيسة، سأكون معكم عند الواحدة زوالاً.

على الرغم من أنني كنتُ أعرفُ أن جاك مسيحيٌّ، تفاجأتُ من فكرة كونه يُشاركُ في طقس الأحد. الكثير من الكاثوليك يعتبرون تلك الممارسة اختيارية، لدرجة أني أظن أنهم لم يعودوا يجتمعون إلّا في قدّاسات عيد الفصح، والميلاد، وعيد القديسين.

عندما وصل جاك إلى البيت، كان يحمل بين ذراعيه باقة رائعة من الميموزا. قدَّمَها إلى ناثان مصحوبة بهذا التعليق:

- اسمح لي أن أهديكَ هذه الورود لأنني اخترتُ أن أُهديَ كتاباً لناتالي.

قدَّمَ إليَّ **الرجل الذي يمشي** (*L'Homme qui marche*) لكريستيان بوبان (Christian Bobin). كان الكتاب مستعمَلاً، باديَ التّلف، يحمل غلافُهُ آثارَ قراءة متكررة، ولكن أيضاً آثارَ الرطوبة

والعشب الذي وُضِعَ فوقه، صفحات فُتِحت على الأرض مباشرة، مثل راهبٍ مبتدئ يُعلنُ نذورَهُ منبطح الوجه فوق أرضية الكنيسة.

- شكراً جاك، هذه هدية جميلة جدّاً. كان لديك إذاً كتاب في حقيبة ظهرك!

- أجل. كتابان على وجه الدقة: هذا الكتاب، و**عشرون قصيدة حبّ** لِبابلو نيرودا، كانت قد أهدتْهُ إليَّ فرانسيسكا، زوجتي.

كان غداء استثنائياً. ليس فقط لأنني توفّقتُ في إعداد طاجين الخروف بالبرقوق، ولكن أيضاً بفضل وجود إنسان، نادراً ما التقينا بمثيله، تتكافأ لديه الحكمةُ وآلامُ التجارب التي مرَّ بها.

أطلقت شرارةَ حوارنا جملةٌ صغيرة لمالرو (Malraux) كانت مُلصَقَةً بمكتب ناثان: «الحياةُ لا تساوي شيئاً، لكن لا شيء يساوي الحياةَ».

- لماذا يتصدَّرُ هذا الاستشهادُ مكتبك بهذا الشكل؟

- لستُ أنا من كتبها، ولكنه غيوْ، ابننا. لم تكن الحياةُ رفيقة به، لأنه مرض كثيراً في صغره. كثيراً ما كنّا نفقد الأمل، ولم نكن نصمد إلّا بفضل ابتسامته. لم يكن من حقنا أن نتوقف عن المقاومة ما دام هو نفسه لم ينهزم. وعندما شُفِيَ من سرطانه، سافر إلى اسكتلندا. إنها الرسالة التي بعث بها إلينا.

- السرطان العاهر!

اندهشتُ لسماع تلك الكلمات من فم جاك الذي كان دائماً يتأنّقُ في انتقاء معجمه بشكل يعكس تربيتَهُ وحرصَهُ على الكلمة المناسبة.

فهمتُ أنّ السرطان معاناة تجربة مشتركة بيننا.

- زوجتُكَ؟

- ليس فقط. سأحكي لكم.

- لستَ مضطرّاً لأن تفعل ذلك.

- ليس الأمر مقلقاً. لم يعُد مقلقاً، لأكون دقيقاً. صرتُ أعيش في المملكتين معاً أفضل من السابق، عندما كنتُ لا أجرؤ على الاقتراب من الثانية، كما لو أنها مُعْدية. أصيبت زوجتي بسرطان الثدي. أصبح اليوم مرضاً عادياً ويعالَجُ بشكل أفضل كلَّ يوم، لكن فرانسيسكا كانت مصابة بنوع من السرطان لا يُهادِنُ المريضَ أبداً. كان عمرها خمسة وثلاثين عاماً. وعندما ماتت انغمستُ في العمل لأنسى تلك التي كنتُ أحبُّ. واليوم أعلمُ أننا نُخَلِّدُ الناس الذين نُحبُّهم وأن الموتَ الحقيقيَّ لا يأتي إلّا من النسيان. كان لدينا، أنا وفرانسيسكا، ابنة اسمها جاد. وعلى الرغم من أعمال الشركة، كنتُ دائماً مهتماً بجاد. وأعتقد أني كنتُ حاضراً في الأوقات المهمة، وحرصتُ على ألّا أضحّيَ بعُطَلِ نهاية الأسبوع لصالح ملفاتي التي كنتُ أُحَرِّمُ على نفسي حملَها إلى البيت. في الثانية والعشرين، أجرَت جاد فحوصات واكتشفت أنها مصابة بالسرطان نفسه الذي أصاب والدتها. فقرَّرت ألَّا تُعالجَ نفسها، وأن تعيش كلَّ لحظة ما دامت أنفاسها تسندها. وإنما تعاطيتُ الفلسفة معها، لأنها كانت طالبة في السوربون. بفضلها دخلت الروحانياتُ إلى حياتي وأستطيع اليوم أن أُحدِّثكم بابتسامة إنسانٍ يعيش في سلام. توقّفتُ عن مزاولة أعمال مهنتي، وبعتُ البيت الذي كنا نسكنه في فيرساي، وكذلك ذاك الذي كنا نملكُهُ في بروڤانس. تنازلتُ عن كلِّ ثروتي لمنظمة السلام

الأخضر. على الرغم من أننا لا نعرف كلَّ شيء عن الموضوع، إلّا أننا نعرف ما فيه الكفاية لِنُجَرِّمَ الكيمياء باعتبارها أصل الأمراض الجديدة التي ما تفتأ تتزايد منذ القرن الماضي. غادرنا فيرساي أنا وجاد ذات بداية مارس. على الأقدام، لكلٍّ حقيبة ظهره. وجهتنا سان-جاك-دو-كومبوستيل. كنا نعرفُ أن قوى جاد تضمحِلُّ وأننا كان يمكن ألَّا نصل كلانا إلى سان-جاك. توقفنا في الأوبراك، فوق تلك الهضبة العليا حيث تبدو الأرض مُعلَّقةً في السماء اللّانهائية. لم يعُد نَفَسُ جاد كافياً لنتقدَّمَ أكثر. وجدنا مأوى في مزرعة قديمة. حجرة هائلة تنفتح على المراعي. لا شيء كان يَحُدُّ البصر. قَبِلَ رجلٌ طيّبٌ، وهو طبيبٌ، لكنه إنسانٌ طيّبٌ قبل كل شيء، أن يرافق جاد في أيامها الأخيرة، ليُخفِّفَ من آلامها قبل رحيلها. وذات صباح، أزهر النرجسُ في المراعي أمام المزرعة، كأن الإشارة قد أعطِيتْ لتلك الورود البيضاء أنه قد حان موعدُ فتح أبواب الصيف. في ذلك اليوم، خرجت جاد إلى العشب، حافية القدمين، وانهارَتْ بين ذراعيَّ.

كان جاك يتحدّثُ بصوت هادئ. وتحتفظ عيناه بحيويّتهما وفرحهما على الرغم من الدموع التي سالَت عند ذكره لموت ابنته.

- ومنذئذٍ، لا أنسى كلَّ يوم، أن البذرة لا تنمو من دون أرض يُغذّيها الدَّبَالُ. وأن الحياة لا يمكن أن تولد إلّا من الموت. وأنني سبق أن كنتُ وردةً، ثم فاكهةً، وأنني ذات يوم سأهوي فوق الأرض، مثل جاد.

شدَّ ناثان على يدَي جاك بين يديه كأنه يشكره. كنتُ متأكدةً من أنه قد خطا خطوة كبيرة باحتكاكه بعاشق الكتب والحياة ذاك.

بعد أن شيَّعْتُ جاك، وجدتُ ناثان جالساً في الشرفة المطلَّة على الدّغل، ساكناً لا يفعل أيَّ شيء. ولم يكن ذلك من عادته.

دنوتُ منه فرأيتُ عندئذٍ عَبراتٍ تسيل فوق خدّيه.

دموع ناثان جدُّ نادرة. وليس الأمر لنقص في الإحساس، ولكن لحياءٍ متأصِّلٍ في تربيته.

وتردَّدْتُ حول ما يجب أن أفعل أمام هذا الموقف.

بدا ليَ الصمتُ هو الأليَقُ. لم أكن أريد أن أجعله يبحث عن تبريرات بسؤالي عنٍ سبب حزنه، بل كنت أريد أن أتركه يعيش تلك اللحظة من دون أن أُزعِجَ فكرةً آتية من بعيد.

الإنسان الذي يبكي هو إنسان حيٌّ، تماماً مثل الإنسان الذي يضحك!

جلستُ إلى جانبه، متأخرة عنه قليلاً، يدي فوق ظهره.

كنتُ حاضرة.

مرت عشرون دقيقة كاملة قبل أن يكسر ناثان الصمتَ.

- أتعرفين، ناتالي، أبي... لم أقل له أبداً إني كنتُ أحبُّهُ. رحل فجأةً من دون أن يعرف أني كنتُ أشعر بإزائه بالعرفان لكونه كان الأب الذي كان. منذ خمس سنوات، وأنا أشتاق إليه، لأنه كان الوحيد الذي كنتُ أستطيع أن أبوح له بكلّ شيء. الوالدان هما الوحيدان اللذان يحبّان من دون شرط. منذ أن رحلَ، أقفُ في وجه الرياح وأحاول أن أصمد، لكنني في بعض الأيام أجدُ ذلك صعباً. أشعرُ أني في السابق كان يوجد مَن هو لا يزال مسؤولاً عني. كوني لم أقل له إني أحبه يعاودني دائماً مثل ندمٍ أبديٍّ، ندبة تنفتح من جديد، مثل صمتٍ

يصرخُ. جاك يتحدَّثُ بكل سهولة عن نفسه، وعن أَلَمِهِ، ومع ذلك هو مرتاح.

تركتُ الصمتَ يسود بيننا قبل أن أتكلّم بدوري.

- أي ناثان...

يبدو أنكَ تكتشفُ أنَّ أفكارنا، وإن كانت صامتة، فذلك لا يعني أنها لا تحيا فينا. كان أبوكَ دائماً يُحِسُّ بحبِّكَ له، لأن حبَّكَ سابقٌ على كلماتك. وعلى الرغم من كل شيء، فأن نضع كلماتٍ على أفكار، ثم أن نقول تلك الكلمات، يسمح لها بأن تحيا بشكل مختلف. عندما نتشاركها مع الآخر، وتتحرّر من الذهن الوحيد، تلتحقُ أفكارُنا بالنسيج الممزَّق، والمُرَقَّع، والذي هو، على الرغم من ذلك، حبكة العالم. لا يمكننا أن نُشارك إلّا ما أخضعناه كفايةً للضمير، وطهّرناه من طفيليات الأنا، ولكن أيضاً من معاطف الحرير أو من تلك المظاهر الزائفة التي ألبَسَنَا إياها تاريخُنا العائليُّ وثقافتُنا. اضطلعَ جاك بذلك العمل الطويل والعميق. سمح لغضبه المُحِقِّ أن يصعد، ولكنه من الأكيد أيضاً، أنه قد غَفَرَ لنفسه كلَّ ما لم يستطع أن يكونَهُ. اليوم يومٌ جميلٌ. ما تشعر به قد وضعتَهُ فوق الطاولة. وأنا أجلسُ معكَ إلى هذه الطاولة. قل لنفسكَ إنّه لا يزال في إمكانكَ أن تقول لأبيكَ بأنكَ تحبُّهُ. ولو أنّكَ لا تؤمنُ بذلك كلَّ الإيمان، دع فائدة الشكِّ لحقيقةِ أنه يسمعك...

- ستُعلِّميني كيف أقول كلَّ هذا بشكل أفضل؟

- سأكون دائماً حاضرة إلى جانبكَ، أنا وحبّي، مهما يحدث، لكن لا تنسَ أنني أنا نفسي لا أزال أتعلّمُ كلَّ يوم هذه الحياةَ لأكون

في سلام مع ذاتي. تلاحظ ذلك بشكل واضح في علاقتي بإيليز، حيث لا أستطيع أنا ذلك بينما تجد أنتَ الكلمات المناسبة لمساعدتي.

- قد يكون هذا ما يعنيه زواج اثنين...

- بلا ريب...

في مساء اليوم الموالي، أهديتُ ناثان كتاب **أصلُ حُبِّنا** (*L'origine de nos amours*). أُعجِبتُ دائماً بإيريك أورسينا (Erik Orsenna)، وتابعتُهُ في ملحمته المالية (نسبة إلى مالي، البلد) مع السيدة با (Madame Bâ)، مثلما تابعتُهُ عندما جعل قلمه في خدمة أدبٍ ملتزِمٍ، يليقُ بكاتبٍ تحقيقات كبير في طريق القطن أو الورق.

لم يسبق لأورسينا أن ألّفَ كتاباً أقرب إلى حياته الحميمة من **أصل حبّنا**. تتحدَّثُ العديد من المقاطع عن جزيرة «بريهات» في منطقة بريتون، حيث يوجد بيتُ أسرة «آل أَرْنُولْتْ» (الاسم الحقيقي للكاتب الأكاديمي). خصَّص كلَّ محكيِّهِ لعلاقته بوالده. حوار لا يتطوَّرُ حقيقةً إلا عندما يَقبل الواحدُ منهما والآخرُ أن يتصارحا حول كيفية حبِّهما نساءَ حياتهما. يحتفظ المؤلِّفُ بمساحة واسعة لتحليل علم نفس أنساب عوائق العشق لدى الرجلين.

كان ذلك الكتاب قد ذكَّرني بأبي. يجد رجالُ ذلك الجيل، في الغالب، صعوبةً في التعبير عن مشاعرهم، وفي أن يَقبلوا بأن يَدَعوا البحرَ ينسحبُ تاركاً مكشوفةً صخورُ عواطفهم الناتئة؛ شاطئ مطبوع بِبِرَكِ الطفولة العَكِرَةِ قليلاً أو بالمشاعر التي تُدحرجُها أمواجٌ صارت في صلابة الحصى. «كُنْ قويّاً» أمرٌ يُحوِّلُ الرجالَ أحياناً، عندما تتقدّمُ الحياةُ، إلى خنفسة بطيئة، تترنَّحُ تحت ثقل درعٍ لم تُنْزَعْ أبداً.

كان أبي يشترك مع إيريك أورسينا في مرجعٍ أدبيٍّ أساس: **على ضفاف خليج السِّرت** (*Le Rivage des Syrtes*) لجوليان غراك (Julien Gracq). وبالفعل، فإنّ مدينة شطّ السِّرتيون المتخيّلة، حيث يحملنا غراك وسط مستنقعات الروح الإنسانية وضبابها، اسمها أورسينا. هي التي ألهمَتْ اسمَها للكاتب الأكاديمي!

عندنا أيضاً، في بيتنا بمنطقة شومون، كان المحل الذي يقوم مقام مكتب والدي يُسمى «غرفة الخرائط»، مثل تلك التي يختلف إليها بطلُ غراك في إدارة البحرية الواقعة على ساحل بحر السرتيون. في غرفة الخرائط تلك، كان أبي يحتفظ بمكتبته، حيث كان الوحيدَ من يحقّ له أن يأخذ منها كتاباً أو يودِعَهُ بها، وكانت أيضاً المكان حيث كان يكتب، وحيث كان يستغرق الساعات في قراءة خرائط من كلّ صنف.

بتلك الطريقة تعلّمتُ سريعاً، من قراءة الخرائط البحرية مثل تلك التي من سُلّم 25/1، الشديدة التفصيل، بحيث كان والدي قادراً، بفضلها، على وصف الأماكن من دون أن يكون قد زارها بالفعل، ويستطيع أن يستخرج منها محكيّاً حول منظر طبيعيٍّ، كانت مخيِّلتي تُترجمُهُ، من دون صعوبة، إلى صور. كان أبي، بهذه الطريقة، يجمع خرائطَ البلدان التي لن يزورها أبداً، ليُتحِفَ نفسه برحلات في الصحراء، واختراقات لممرّات جبال الهمالايا، أو عبور مضطرب للمحيط الهادئ قبالة باتاغونيا.

بعد ذلك بأيام قليلة، مرَّ جاك بالمكتبة، ليُودِّعني.

احتضن الواحدُ منّا الآخرَ بقوة بين ذراعيه، مع ابتسامة توضِّحُ ما كان يقود حواراتنا من حدب وعطف متبادلين.

كنتُ قد أعددتُ له كتاباً.

- هذا كتاب **خمسة تأملات حول الموت - أو بعبارة أخرى حول الحياة** (*Cinq méditations sur la mort - autrement dit sur la vie*). أتذكرُ أنك حدّثتَني عنه في أثناء زياتك الأولى، من غير أن تذكر الجزء الثاني من عنوان هذا الكتاب؟

- أتذكّرُ. ربما نتوصل يوماً إلى اختراع كلمة تعني أن الحياة والموت إنما هما مكوِّنان للحكاية ذاتها. حكاية خطية بقدر ما هي دائرية، حيث الواحدة والأخرى تتحاوران في دائرة خالدة.



فيليب

الرحالة الذي لا يتعب

أحبُّ الجانب الكوسموبوليتي في هذه المنطقة الصغيرة من البروفانس.

يبدو لي تمازُجُ الأجناس أفضلَ حلٍّ لزحزحة حدودنا الذهنية.

فقد يكون من المهم اكتشاف كيف يعمل كلُّ واحد على تملُّكِ قطعة أرضية، في ضواحي أوزيس، وتعميرها وفق أذواقه وممارساته، ويقوم في الأخير بتطويرها. وهكذا تتشكلُّ اليومَ سحنةُ ساكن منطقة الغارد من تساكنٍ بين أولئك الذين ينحدرون من المنطقة ذاتها منذ أجيال عديدة، وأولئك الذين اختاروا الإقامةَ بها، حبّاً في الغالب، وقد يحدث ذلك أحياناً من دون لقاء حقيقيٍّ.

هل يوجد بينهم مَن يملكُ حقوقاً أكثر من الآخرين؟ أيكون الذي لم يختر الإقامةَ في هذه الأرض أفضل دفاعاً عنها من ذلك الذي اختارها عن حبٍّ؟ يشتعلُ هذا النقاش في جميع الجماعات القروية.

ويمكن للمحافظين المتزمتين أن يوجدوا في المعسكرين كليهما؛ فالسكان الأصليون يرون أن الكثير من المهرجانات والتجهيزات الثقافية أو الرياضية إنما تُشيَّدُ لصالح مُعَمِّري المنازل الثانوية، وأولئك الذين اشتروا بطاقة بريدية ويريدونها أبديَّةً، ويرغبون في أن يظلَّ كلُّ شيء على حاله.

استقرَّ السويسريون هنا منذ زمن بعيد، لأن المنطقةَ كلَّها، من الأرديش إلى كافين، قد كانت مَقَرّاً كبيراً للبروتستانتية.

وعلى الرغم من أن الممارسات الدينية لم تعُد قوية هنا مثلما هي ليست كذلك في مناطق أخرى، إلّا أن الدين يظلُّ معياراً يُبرِّرُ تشكيلَ اللوائح البلدية في الجماعات الصغيرة بصورة مدروسة، بحيث تشتمل كلُّ لائحة على ممثلٍ لكل واحدة من الديانتين المسيحيتين.

قامت مؤخَّراً صحيفة **الغوارديان** بتصنيف للأماكن الأربعين الأولى في العالم التي تجدر زيارتُها. وحصلت أوسيز على المرتبة الثانية. يجب أن أعترف أن الأمر أقلقني أكثر ممّا أفرحني. أخشى أن تتحوّلَ ساحةُ الأعشاب إلى واجهة لجنادبَ من خزفٍ وسكاكين سَلَطَةٍ من خشب الزيتون، على حساب المنتجين المحليين!

أنوي تطوير أجنحة اللغات الأجنبية في مكتبتي الصغيرة. فعدد الأجانب يتزايد، ومن ثم يتكاثر عددُ المشترين، لكنني ألاحظُ أن الألمان أو الهولنديين الذين يستقرون هنا يتحدثون لغتنا بإتقان متزايد.

في الوقت الذي يشتد فيه انتقاد أوروبا، أجد صعوبة في الالتحاق بجوقة المنتقدين، لأنني أرى كم شجّعْنا، عبر برنامج «إيراسموس»، الأجيالَ الجديدةَ على السفر، فاتحين بذلك عقولهم، ليتمكّنوا من تجاوز حدود وسطهم العائلي والقاري.

لم أعرِف رحالةً أكبر من فيليب!

كان عاطفياً ومثيراً، ولا يجد سعادة أكبر من تلك اللحظات التي يتشارك فيها أحاديثَ أسفاره مع الآخرين...

عندما لقيتُهُ أولَ مرة، كان عائداً من الأرجنتين.

كان يرتدي حذاء جميلاً طويل الساق من جلد الحصان، ومعطفَ بونشو أحمر.

كان لباسُهُ مثيراً للانتباه، خصوصاً عند بداية فصل ربيعٍ كان قد استهلَّ أيامَهُ بِنُهُرٍ رائعة تسمح بالعشاء في الخارج. لكن فيليب ليس شخصاً كتوماً.

- طاب يومُكِ، سيدتي الكُتْبية!

- طاب يومُكَ، سيدي، إذا كان في إمكاني أن أساعدكَ، فلا تتردّد.

- بالتأكيد، أنا حديث الاستقرار بمنطقتكم الجميلة، وأخبرني جيراني أنَّ لديكِ جناحاً جميلاً من كتب الرحلات. سأسافر إلى أستراليا، وأرغبُ في أن أقرأ ما أمكن من وثائق حولها قبل الرحيل.

- يا لك من محظوظ! أحلمُ بالسفر إلى أستراليا. لا بد أنها رحلة رائعة؛ على الرغم من أنها بلاد جدُّ بعيدة!

- يُحتاجُ إلى عشرين ساعة للوصول إلى سيدني. لكنني لن أمكثَ بها لأنني سأكتري سيارة رانج روفر وأنطلق مباشرة إلى ملاقاة السكان الأصليين.

- مثير...

- تستهويني الشعوبُ الأولى، مثلها مثل جميع الحضارات القديمة. عدتُ مؤخراً من الأرجنتين وبوليفيا، حيث قضيتُ أسابيعَ عديدةً فوق الهضاب العليا، رفقة الهنود. عندما يفكر المرء كيف أن «الأنكا» ملكوا أعظمَ إمبراطورية في أميركا اللاتينية، وأننا قد هدّمنا، في أقل من قرنٍ واحدٍ، حضارتَهم لنُقيم مكانها أنظمتَنا الغربيةَ من أجل بعض مناجم الفضّة أو الليثيوم. أجد الأمر مثيراً لليأس! فقد أصبحت

أثمانُ المواد الأولية المحدَّدة في لندن، هي التي تُفقِرُ أو تُغني تلك البلدان، وفق ما تقتضيه مضارباتُنا.

- أنتَ كثيرُ السّفر إذاً! أمن أجل عملكَ؟

- لا، ليس حقيقة، من حظّي أنَّ لديَّ الكثير من الوقت. وإذاً، فإني أستغلُّ الأمرَ لأكتشف العالم. ولا يزالُ أمامي الكثير لأكتشفه! لا أعرفُ سوى 49 بلداً من 207 من البلدان الموجودة فوق الكوكب!

- تسعة وأربعون! لكن هذا العدد في حدّ ذاته هائل! أنا لم أسافر إلّا إلى بعض الدول الأوروبية وإلى كينيا، وإن كنتُ قد كبرتُ في المغرب. كان كيبلينغ (Kipling) يقول بأن لا وجود إلّا لصنفين من الناس: الذين يبقون في بيوتهم والآخرون. أنت تنتمي إذاً إلى الصنف الثاني وأنا إلى الأول.

كان من الواضح أن فيليب شديد الاعتزاز بما يُحدثُهُ من تأثير. لم يكن حقيقة من هواة التباهي، لكنني كنتُ أشعر أن حديثنا يمكن أن يمتدَّ لساعات، وبما أنه لم يكن زبوني الوحيد، فقد كان عليَّ أن أختصر حوارنا قليلاً.

- أنصحُكَ بكتاب **نشيدُ الآثار** (*Le Chant des pistes*) لبروس شاتوين (Bruce Chatwin).

- آه، لماذا؟

- ألم تطلب مني كتاباً مرجعيّاً لاكتشاف أستراليا؟

- آه، بَلى، أين كان ذهني... بالتأكيد!

- شاتوين مولعٌ بأصول الإنسان. فقد سافر إلى أفريقيا، ثم التقى بعلماء، خصوصاً كونراد لورينز (Konrad Lorenz)، ليفهم العلاقة بين الإنسان وأرضه. كتابُهُ جيِّدُ التوثيق لأنه يوازي بين اكتشافه لأستراليا وأبحاثه في الأنثروبولوجيا.

استغلَّ فيليب الفرصة ليشتري دليل غاليمار المخصص لأستراليا، وشكرني على نصيحتي.

تنتمي الأنثروبولوجيا إلى المجالات التي تستهويني كثيراً. سيقول ناثان إنني منذ أن صرتُ كُتْبيةً تزايد عدد المجالات التي تهمّني.

ذاك صحيح بعض الشيء. يقرأ الكُتْبيُّ كثيراً، ويقرأُ أولاً الكتابات النقدية الكثيرة التي تتناول ما يصدر من كتب. يمنح النقدُ الجيّدُ الرغبةَ في القراءة، حتى الكتاب الذي يتناول مجالاً لم يسبق لنا أن اقتربنا منه.

اكتشفتُ الأنثروبولوجيا عند قراءتي لِـ**مداريات حزينة** (*Tristes tropiques*) لكلود ليفي-شتراوس (Claude Lévi-Strauss). منحني الرغبة في معرفة الذين لا يشبهونني إلّا قليلاً، الذين يأتون من بعيد، والذين لا يأكلون مثلي، ولا يفكرون مثلي، ولا يعيشون مثلي.

كانت طفولتي في المغرب قد زوّدتني من قبل بذلك الميل إلى الاختلاف.

عندما نكبر في بلد أجنبي، نُدركُ سريعاً أن المختلِف هو الذات عينها... وهذا يقتضي انفتاحَ العقل وموقفاً مبدئياً يمنع أيَّ تكبُّرٍ،

ويفرضُ قبل كل شيء احترامَ ما لا نعرفه، قبل أن نُطوِّرَ قدرةً كبيرةً على التأقلم.

ومن المُحزن، اليومَ، أن نرى كم ينبني عدمُ التسامح بإزاء الغرباء، خصوصاً أولئك الذين يأتون من بلاد المغرب، حول قائمة نادرة من الأمور التي تصنع اختلافاتنا، كأن هذه الأخيرة تُشكل خطراً بدل أن تكون حظّاً. كيف يمكن لآكلي الضفادع، وجبنة الروكفور، والمحار، الذين هم نحن، أن يُزعِجَهُمْ أولئك الذين لا يريدون أكل الخنزير... والذين يأكلون المحار الحيَّ، أو الأجبان العفنة، أو أفخاد الضفادع ألّا يمكن أن يُعتبروا أوَّلَ البرابرة... من حسن الحظ أن صديقاتي في مدرسة الرباط لم يكنَّ ينظرن إليَّ بتلك الطريقة، وإلا فإني كنت سأكون جدّ تعيسة.

أحياناً أقول لنفسي إن شعوب البحر الأبيض المتوسط تجمع بينهم أشياء مشتركة أكثر ممّا تجمع بين شعوب أوروبا. قرّر التاريخُ أن يُؤْثِرَ بناءَ أوروبا الموحَّدة، بينما كانت هي الأرض التي وُلِدَتْ فيها الحربان العالميتان اللتان أشعلتا العالم. من دون شك كانت تلك طريقة لخلق روابط لمنع وقوع حرب عالمية ثالثة ذات يوم. وبعد ذلك، انهار سور برلين في مدينة كانت بمثابة القدس الأوروبية وتُكَثِّفُ صورة الصراع بين الغرب والشرق. فاليوم يبدأ الشرق في أوكرانيا...

أرجو أن ننخرطَ في بناء تلك الأخوّة المتوسطية، وأن ينهار بدوره ذات يومٍ سورُ القدس.

أعتقد أنّ الفنانين والكتّاب سيكونون أفضل مَن يصنع ذلك التقارب. هم الذين يسبقون الآخرين بأفكارهم، ويعرفون، على الأقل بواسطة التخييل، والمتخيَّل، والرمزية، كيف يكتبون، ويغنّون، ويرسمون العالم الآتي.

عندما ذهبتُ إلى مرسيليا رفقة ناثان لزيارة الموسم (Mucem)، غمرني تأثُّر كبير. أعتقد أن ذلك المتحف، الذي يقف فوق أرض أوروبا ونظره يتطلّعُ إلى المتوسط، هو أكبر خطوة تحققت من أجل بناء جسر صلبٍ بين الضفّتين.

«الجمالُ سيُنقذ العالم»، كان يقول دوستويفسكي. أعتقد أنه على حق. باسم الجمال، شَعَرَ الرأي العام أنه معنيٌّ أكثر بما يحدث من تدمير للأعمال الفنية السورية، أكثر من أي مناورات ديبلوماسية. يتحدث الجميل إلى القلب وليس إلى العقل. ومن ثم يملك حظوظاً أكبر للنجاح.

إنما أسقطتْ أسوارَ أريحا الأبواقُ، فقد حان دورُ العود اللبناني، والقانون العراقي، والغيتار الإسباني، والكمان المغربي أن تعزفَ الحفل الموسيقيَّ الذي سيلُمُّ شملَ القدس.

لم أقضِ سوى بضعة أيام في المدينة البيضاء، ولكنني أحسستُ بجميع مسامِّ جلدي كم أنها تشكل مركز العالم، وأن الأرض لن تعرف السلام ما دامت القدس لا تعرف السلام.

انصرمت أسابيعُ عديدة قبل أن ينفتح بابُ المكتبة من جديد ليدخل فيليب.

- رائع! أستراليا، يا له من بلد!

- طاب يومُكَ سيدي. كان سفركَ موفَّقاً إذاً؟

- ناديني فيليب، كُتبيّتي العزيزة. أجل، كان رائعاً. ذهبتُ إلى الصحراء الغربية. يا لها من حرارة! وقمتُ بالغوص لاكتشاف حاجز المرجان. رائع! ولكنني تتبعتُ خصوصاً آثار شاتوين، الذي بدوره كان يتتبع آثاراً أخرى، تلك «السونغلاين» المشهورة، والتي تعني «الآثار المُغنّاة». إنها أغنيات، تنتقل من جيل إلى جيل، وتُشكِّلُ الخريطة الافتراضيةَ لمصير كلِّ فرد من الأبوريجين (السكان الأصليين). يمتلكُ أولئك الناس علاقةً بالأرض وبالطبيعة مقدَّسة تماماً. يعتبرون ما يمرُّون به في طريقهم من شجر أو حيوان لا يقل أهمية عن الإنسان. لكن نمط حياتهم القائم على الترحال سَهَّلَ مهمَّةَ البيض الذين استعمروا حرفيّاً جميع أراضيهم! شُرِعَ العملُ في مصالحة وطنية بفضل الاعتذارات العلنية التي قدّمها الوزير الأول للسكان الأصليين سنة 2008. وهذا أمر مهمٌّ لأن لا وجود لسلامٍ من دون عفو. ولكن المرء لا يمكن أن يعفو إلّا عن الذي يعترف بخطئه. وهذا ما حدث في أستراليا.

كان فيليب يحكي لي كلَّ ذلك بحماس. وكان يعتمرُ قبعة رائعة من جلد لم يخلعها عند دخوله المكتبة، وأعجبهُ اهتمامي بها.

- لقد منحتني رحلتي إلى أستراليا الرغبة في زيارة نيوزيلندا.

- لكن الأمر شديد الصعوبة، فيما أعتقد!

- أجل، من دون شك، ولكنها أوقيانوسيا دائماً!

فاجأني ردُّ فعل فيليب. كان يبدو كامل الحرية في حركاته، تقودُهُ رغباتٌ تلقائية.

- أيُّ كتاب لديكِ قادم من نيوزيلندا؟

- لا شك في أن نيوزيلندا هي البلد الوحيد في العالم الذي كان أدبُهُ من شأن النساء أولاً. أنصحُكَ بكتاب لكيري هولم (Keri Hulme)، **رجال السحاب الطويل الأبيض** (*Les Hommes du long nuage blanc*). «السحاب الطويل الأبيض»، هو الاسم الذي يُطلقه الماوُوري على ذلك البلد. لكن إذا كنتَ تريد إعداد سفرك، سيكون عليك أن تشاهد **درس البيانو** (*La Leçon de piano*)، فيلم رائع لجان كامبيون (Jane Campion)، نيوزيلندية عرفت كيف تحكي بشكلٍ رائع مناظر بلدها واستعمارَهُ، عبر حكاية أسرة.

- سأتبع نصائحكِ. لا أدري كثيراً كيف سأحصل على ذلك الفيلم. ربما أستطيع أن أشتريه منك؟

- أنا آسفة، ولكني لا أبيعُ الدّي في دي. إذا أردتَ يمكنني أن أعيرَكَ إياه. لدينا في البيت. أجلُبُهُ لك غداً.

- هذا لُطفٌ كبيرٌ منكِ.

انصرفَ فيليب حاملاً كتاب كيري هولم ودليل غاليمار حول نيوزيلندا.

عملُ الكُتْبيّ يقودُهُ إلى التعرّف على أمور كثيرة عن زبائنه. أحرصُ كثيراً على ألّا أكون متطفِّلة بأسئلتي، لأنني أتطفَّلُ عليهم كفاية بمعرفتي لقراءاتهم. ربما يكون الكتبيّون في نهاية المطاف ضرباً من

المُتَلصِّصين. الكتب مرآةٌ يستطيعون عبرها أن يكتشفوا غيرهم من دون أن يراهم الآخرون. ويكون الأمرُ أكثر حقيقة في مدينة صغيرة حيث ينتهي المرءُ إلى معرفة الجميع. أعتقد أني أستطيع أن أرسمَ خريطةً عاطفيةً شديدةَ الخصوصية لسكان أوزيس.

أهداني ناثان، بمناسبة عيد ميلادي الأربعين، وثيقةً مدهشة. عندما فتحتُ ورق الهدايا الكبير، ظننتُ من أول نظرة أن الأمر يتعلّقُ بشجرةِ نسبٍ. في الحقيقة، كانت بالفعل شجرةً، لكن عند طرف كلِّ غصن كانت توجد أغلفة كتب. كلّ الكتب التي كان ناثان يعتبرها بمثابة مكتبتي المثالية.

فوق أغصان الشِّمال، الكتب التي ألّفَها رجالٌ، وفوق التي على اليمين تلك التي كتبتها نساء.

فوق الأغصان المنخفضة، الرواياتُ التي تحكي قصصاً معاصرة، وفوق الأغصان العالية، تلك التي تحكي قصصاً قديمة.

وقريباً من الجذع، الكتب التي تدور أحداثها في فرنسا، وفي أطراف الأغصان تلك التي تدور في الطرف الآخر من العالم.

وأنا أتأمل الشجرةَ، استرعى انتباهي كونُ الأغصان كانت أكثر امتلاءً في أطرافها من قربها من الجذع، وأعلى الشجرة أكثر ازدحاماً من أسفلها. ومن ثمَّ فقد كانت شجرتي شديدة الامتلاء بالثمار في حواشيها، وأقل من ذلك بكثير في قلبها. لقد كنتُ بجلاء أكثر تأثراً بالمحكيات التي تحملني إلى البعيد، سواء من أجل سفر في الزمن أو في ما خلف البحار.

«قُلْ لي ماذا تقرأ، أَقُلْ لكَ مَن أنت.» كانت شجرةُ الكتب تلك تعكس في الحقيقة صورةَ خيالي الداخلية. ومن يكتشف ذلك التمثيل يستطيع بسرعة أن يُكوِّنَ فكرةً عمّن أكون، وعمّا أبحث. تأثرتُ كثيراً لما قام به ناثان، حيث اجتهد في أن يحكيَ عنّي بصيغة أخرى، من دون كلمات. فقد يكون الذين يعيشون إلى جانبنا أفضل الناس معرفة بنا، وقد يكونون الأسوأ. كما أن ناثان كان يقول من خلال تمثيله كيف يتصوّرني. وكنتُ أجدُ نفسي في ذلك الرسم الصينيِّ المعروض. إن ما يتهدَّدُ الزوجين هو أن يحتفظ الواحدُ منهما بصورة صاحبه أو صاحبته جامدةً كما كانت في الأصل عند التقائهما. فذلك قد يكون، من جهة، مصدر اطمئنان لاعتبار الشريك كائناً ثابتاً، سواء في مساوئه أو في خصاله الأبدية. لكنه من جهة أخرى، لا يُلقي بالاً إلى ما يبذله كلُّ واحد من جهد ليتغيّرَ، ولا إلى كلِّ ما تُحدِثُهُ الحياةُ من تكيّفٍ إما مفروض، أو مختارٍ عن طيب خاطر.

إن التعرّف على الآخر في حركته، إنما هو تمكينٌ له من تلك الحركة. وهذا يعني في بعض الأحيان أن نرافقه، مثل أولئك الراقصين الذين يتابعون حركة شريكهم من دون أن تتماسَّ منهم الأجساد. وليس ذلك بالأمر البسيط. وقد تسير الحركاتُ أحياناً في اتجاهٍ لا يريد المرءُ أن يسلكَهُ، ولا يستطيع ذلك. يُفلحُ بعضُ الأزواج في أن يتركوا فضاءات كبيرة حرّة من أجل استكشافات مخصوصة بكلّ واحد منهما، من دون أن يشعروا بمخاطر تَتَهَدَّدُهم من تلك الأراضي المستكشَفة بطريقة فردية. بينما لا يتحمَّلُ آخرون، إلا مكرَهين، ما

يعتبرونه سُبُلاً تفترقُ. وقد يحدث، حقيقةً، أن نفقد رفيقاً، ليس لأنه قد تغيّر، ولكن لأنه لم يتغيّر بينما نحن في ذواتنا قد صرنا آخرين.

إنّ ممارسة الحرية داخل حياة زوجية تقوم على توازن دقيق.

إن استغراقنا وقتاً كافياً لتحديد ما هو مُهِمٌّ بالنسبة إلينا، وما كان مهمّاً ولم يعد كذلك، وما نودُّ أن نراهُ يطرأ على حيواتنا، يُساعدنا بدوره على أن نكون واعين بحركاتنا.

فعلَ ناثان ذلك بواسطة شجرة كتبٍ، وقلتُ لنفسي قد يكون في إمكاني أن أصنع ذلك من أجل ذاتي بواسطة الكلمات المهمة في حياتي، أُلقي بها فوق الورق، من دون نظام في البداية، ثم أجمعها في سُحُبٍ، وفق تماثلات. فلا ريب أنني سأكتشف عندئذٍ تحت أيّ سماء أعيش.

ولو قام ناثان بالأمر نفسه مع ذاته، فسيكون من المُهِمِّ أن نقارن بين سماءينا!

حكيتُ لناثان لقائي الجديد مع ذلك القارئ الرحالة، فأدهشَهُ كوني اقترحتُ أن أعير دي ڤي دي لأحد زبائني، لأنني في الحقيقة لا أحبُّ أن تخرج كتبي وأفلامي من البيت، فهي في الغالب لا تعود إليه أبداً.

- أخبريني، هل أعجبكِ مغامرُكِ؟ هل يُشبهُ روبير ريدفورد؟

- إطلاقاً. إنه رجل خمسينيٌّ، لا يخرج نهائياً عن المألوف، لكن حياته سلسلة من الأسفار.

- لا بد أنه ثريٌّ!

- لا يبدو ذلك عليه. لكنه كذلك من دون شك.

حضر فيليب يبحث عن فيلم **درس البيانو**، وأرجعهُ إليَّ يومين بعد ذلك، وكلُّهُ حماس.

- هذا الفيلم حقيقةً جميلٌ جدّاً. يُصوِّرُ حضورَ البحر بشكلٍ جيّد. وهذا جعلني أُدركُ بشكل أفضل معنى كون نيوزيلندا جزيرة. لا بد أن العيش فوق جزيرة أمرٌ شديدُ الخصوصية. مهما تكن مساحتها، فإن الجزر تُغيِّرُ طبائع الناس الذين يعيشون بها، كأنهم أقلُّ حرية من الآخرين.

- أنا، أعتقد أن ذلك الشعور ليس شعور من وُلِدوا فوق جزيرة. هؤلاء يُصبحون في الغالب رحّالين كباراً لأنهم يُحسّون، أكثر من غيرهم، بالحاجة إلى أن يتركوا موطنهم ليكتشفوا العالم.

هل قرأتَ **الجزيرة** (*L'Île*) لروبير ميرل (Robert Merle)؟ تصويرٌ رائعٌ للرهانات التي تطرأ عندما يجد رجالٌ ونساءٌ أنفسَهم محكومين بالعيش معاً داخل فضاء محدود بالبحر.

- أين تقع تلك الجزيرة؟

- في مكان ما في بولينيزيا.

- قد يكون في إمكاني زيارتها في أثناء رحلتي إلى نيوزيلندا...

- لا أعتقد أن الأمر بهذه البساطة. على الرغم من أنّ كتاب روبير ميرل مُستوحى من القصة الحقيقية للنّاجين من سفينة البونتي، فإني لا أظنُّ أن مكانها محدَّدٌ بدقة.

ظلَّ فيليب فترة طويلة يتصفّحُ **مذكرات الرحلة** (*Carnets de voyage*) لتيتوان لامازو (Titouan Lamazou).

- هل تكتبُ مذكرات رحلاتكَ، فيليب؟

- أجل، لديَّ علبة ألوان مائية لا تفارقني أبداً. البعضُ يأخذُ صوراً فوتوغرافية، غير أني ألاحظُ أنها تُعوِّضُ ذاكرتهم وأنهم عاجزون عن حكاية رحلتهم من دون ألبوم صورهم. كما لو أنّ الصورة الفوتوغرافية تقوم مقام الشاشة لما يشعرون به.

تُدمجني الألوانُ المائيةُ في المنظر الطبيعي، تسمح لي أن أكون جزءاً منه، من داخله. لا أستطيع أن أرسم جيّداً سوى ما نظرتُ إليه جيّداً. أحياناً، تُلهِمُني تفاصيل بعينها: وجهٌ، ظلُّ بناية ممتَدٌّ، شجرة. أصير حينئذٍ، بواسطة الفرشاة، الوجهَ أو الظلَّ، أو الشجرةَ. أنا ما أرسُمُ.

- أيمكنُكَ أن تُطلِعَني على دفتر مذكراتك حول نيوزيلندا؟

- أعدُكِ.

سرحتُ أفكِّرُ بعد انصراف فيليب. كنتُ متأثرة بما قاله.

احتجتُ إلى وقت طويل لأتعلّمَ العيشَ في الحاضر، ومع ذلك، فلا وجود لزمنٍ نعيشُهُ غير الحاضر... الماضي قد ذهب، والمستقبل، ليس هنا بعد. إذا كنا لا نعيشُ الحاضر، فإننا لا نعيش سوى ذكرياتنا وانتظاراتنا، تتهدَّدُنا الكآبةُ والإحباط.

لم أتوقَّفْ كثيراً عند الماضي أبداً، ولم يشغلني يوماً الحنينُ، لكن ربما لم أبلغ بعد السِّنَ التي يُعلِنُ فيها الحنينُ عن حضوره.

وفي المقابل، عشتُ مدةً طويلة لا يحرّكني سوى انتظار ما سيحدث. العشاء مع أصدقاء الغد، عطلة نهاية الأسبوع المقبلة حيث يمكننا أن نذهب إلى كروزون، الرحلة المدرسية إلى فيينا التي كنتُ أنظِّمُها لفائدة تلاميذ القسم النهائي، اليوم الذي سيكون لي طفل، واليوم الذي سيتعلم فيه الطفلُ المشيَ... إلخ.

وعندما كان يأزفُ الحدثُ المنتَظَرُ، تافهاً أو مُهمّاً، كنتُ لا أعيشُهُ، وكان يطردُهُ المشروعُ اللاحقُ.

لم يكن الأمر يتعلّقُ بنفاد الصبر، أو بالشراهة.

كنتُ واعية بطريقة اشتغالي. وقد انتبه ناثان سريعاً إلى ذلك الخلل وقال لي ذات يوم: «كم سأحبُّ أن أعيش مع امرأة اليوم وليس مع تلك التي ستكون غداً، لأن دائماً سيوجد بعد غدٍ يُعوِّضُ الغدَ، بينما اليوم واحدٌ، وهو الآن!».

في بعض المرات كان يمسكني بين يديه ويرجُّني:

- إيه ناتالي، أتعلمين أين نحن الآن؟ أتُحسّين بالرمال تحت قدميكِ؟ أترينَ نباتات الخلنج وهي تصير حمراء تحت شمس الأصيل؟

ثم حدث ذات يوم، منذ عشر سنوات، أن قدَّم لي دفتر رسومه، وفتحه على صفحة بيضاء، وأعطاني قلم رصاص.

- هيّا، ارسمي لي ما ترينَهُ.

لا يتجوّلُ ناثان من دون دفتر رسومه وعلبة ألوان صغيرة. لا يرسم، في الغالب، سوى بالأسود، لكنه أحياناً، قد يغمسُ فرشاةً في كوبٍ ويُضيف لوناً أو لونين.

توجد دفاترُهُ تحت الرفِّ الذي أضع فوقه دفاتري المملوءة بالكلمات. اشترينا الدفاتر جميعَها من المكان نفسه، من عند متجرٍ مختصٍّ في الفنون الجميلة يقع في جهة سان-سوبليس. ربما أننا، ذات يوم، عندما سنصير كباراً في السن، وقد قلَّتْ حركتُنا فوق الكرسيين الطويلين، سنستطيع أن نلعبَ لعبةَ البحث عن أفضل استشهاد مناسب لكلِّ رسمٍ من رسوماته.

عندما قدَّم لي ناثان قلمَهُ، كنّا في كروزون، أمام كوخنا الصغير، والبحرُ أُفقٌ ممتدٌّ تحت أبصارنا.

- لكنني لا أعرف الرسم!

- لا يهمُّ، هيَّا!

رسمتُ خطّاً طويلاً يعبُرُ الصفحةَ وأعطيتُهُ الدفتر.

- ها هو، إنه البحر.

- جيّد، لكن ليس هذا كلُّ شيء. ألا ترينَ شيئاً آخر؟

- لا.. بلى هناك الفنار إلى اليمين.

ورسمتُ فناراً كأنني أرسمُهُ في لعبة البيكشيوناري.

- طيّب، لكن ماذا أيضاً...

- أنصِتْ ناثان، هذا كلُّ ما هناك...

- ألا ترينَ المركب عند قدم الفنار؟

- بلى، أكيد!

- إذاً ارسمي المركب. والسفينتان الشراعيتان قبالة رأس «دينان»؟

- أجل، أجل.

- إذاً ارسميهما كذلك.

- والغابة خلف البيت، والسور الصغير الذي يحفُّ الطريقَ، ونباتات السرخس التي تُساير السورَ الصغيرَ وإحداها أطول من الأخريات، والمقعد الصغير عند نهاية الحديقة وقد حطَّ طائرٌ فوقه، ونبات الخلنج الذي تزداد قتامتُهُ جهةَ البحر وتقلُّ قربَ الغابة مع ذلك الفضاء الصّخريِّ حيث لم يستطِعْ أن ينمو...

في ذلك اليوم، منحني ناثان مفتاحاً لم أتوقف يوماً عن استخدامه. لا أقصدُ درسَ الرسم، لأنني لا أملك أي موهبة، وإنما أقصد ذلك الدرس الذي يُمكِّنُني من ألّا أعيش لحظةً واحدةً من دون أن أقبض عليها بجميع الحواس التي أملك.

في البداية، كان ذلك تمريناً حقيقياً. تفحُّصُ تفاصيل ما أراهُ، وما أسمعُهُ في محيطي القريب، ولكن أيضاً الأصوات البعيدة، ما أُحِسُّهُ تحتَ رجلَيَّ، الروائح التي تطفو في الهواء، أأشعُرُ بالحرارة أم بالبرد...

شرعتُ أسكنُ أفضلَ، ليس في جسدي فحسب، بل أيضاً في الأماكن والأزمنة التي كنتُ أحياها...

اليوم، لم يعد ذلك تمريناً، وأنا صرتُ بكُلِّي لِما أعيشُ، كما أني بكُلِّي لِمَنْ أعيشُ معهم.

الحياة بكامل الوعي أمرٌ قد يبدو على الموضة، لكنني أعترفُ أن الحاجة إليه قد ازدادت مع تفاقم سرعة الزمن وازدحامه. لقد تمكّنّا،

باختصارنا زمن تنقلاتنا، وبإلغائنا زمن البحث عن المعلومة، وإكثارِنا من الشّاشات التي تجذبنا وتربطنا بالعالم أجمعه، من أن نخلق إنساناً شديد الاتّصال بكلّ شيء إلّا بذاته.

يُفلحُ البعضُ في الاحتفاظ بمحور، ويكونون قادرين على الانسحاب من العالم ليجدوا من جديد شكلاً من أشكال التركيز، ويُدركُ آخرون أنَّ ما يقودُهُمْ إنما هي قوةٌ طاردة غير معروفة.

باستثناء ذاك الذي يكون مستعدّاً لتقبُّلِ المفاجآت الجميلة والقبيحة على حد سواء، فليس من المستحسن أن نتركَ دَفَّةَ القيادة لهذا القائد الأتوماتيكي الذي لا نعرفه.

الإبطاء هو بداية الحركة. الإقامة في الزمن بدل الجري خلفه. أن تكونَ لشيءٍ بكاملكَ أفضل من أن تكون لأشياء كثيرة بشكلٍ غير كامل.

لا أشكُّ في أن فيليب، من خلال الرسم، يكون أكثر وعياً برحلته بواسطة فرشاته من الآخرين الذين يمدُّون أرجلهم إلى أقصى العالم، لكن رأسهم لم يغادر فرنسا أبداً، يتغذّون على رسائل يتلقّونها وتكون إجاباتُها دائماً فورية، وعلى صورٍ فوتوغرافية يتشاركونها في الزمن الحقيقي، كأن الزمن والمسافات قد تقلّصتْ، مضغوطةً في وحدةِ قياسٍ جديدةٍ، والتي صرنا نحن موضوعَ قياسها.

رأيتُ فيليب من جديد شهراً كاملاً بعد ذلك.

- ها أنا قد عدتُ! إذا كنتِ تحبين الخرفان والفضاءات الواسعة ينبغي أن تذهبي إلى هناك. إنه بلد لا يزال قائماً كُلِّياً على تربية الماشية. هل تعلمين أن **سيّد الخواتم** (*Le Seigneur des anneaux*)

قد صُوِّرَ في غالبيته في نيوزيلندا؟ وتحديداً في المنتزه الوطني بـ«تونغاريرو» حيث توجد تضاريس متكوِّنة من براكين خامدة، كانت جدّ مناسبة لديكورات أرض الوسط.

- لم أكن أعرف ذلك. أمن هناك اشتريتَ سترتَكَ الجميلة المصنوعة من صوف الخروف؟

- أجل، لكنه ساخن جداً بالنسبة إلى هذا الفصل!

لكن انظري ما جلبتُ لكِ...

كان فيليب قد حضر يحمل صندوقاً من ورق مقوّى، أخرج منه لوحةً مائيةً مُدهشة. كانت تُمثِّلُ شاطئاً جميلاً جدّاً تتكسَّرُ فوقه مياهٌ عاصفيّة، بينما يوجد بيانو وحيد وسطَ الساحل، تجلسُ أمامه امرأة.

كانت الإشارةُ إلى فيلم **درس البيانو** صريحة جدّاً، لكن ما أثارني هي ملامح المرأة.

فقد كنتُ بلا ريبٍ نموذجَ الرسام.

ارتأى فيليب، الذي لم يكن يؤثِّرُ فيه شيء، ضرورةَ أن يُضيف:

- أرأيتِ، إنها أنتِ، في نيوزيلندا!

- أوه... رائعة. شكراً. لم أكن أتوقّعُ هذا...

- إنها كاريكاري بيتش. الشاطئ الذي كان ديكوراً لـ**درس البيانو**! لقد أصبح وجهة سياحية رفيعة!

- رائع! ودفتر مذكرات رحلتك؟

- سآتيكِ به ما أن أُنهيَ كتابته. لكن الأمور تتدافع بعض الشيء، وعليَّ أن أسافر إلى تشاد قبل موسم الحرارة...

- آه! أنتَ لا تتوقف إذاً أبداً... ثم ستكون أيسلندا في أثناء الصيف؟

- لم تبتعدي عن الحقيقة! أُفكِّرُ جدّياً في السفر إلى الأنتاركتيكا، في إطار رحلة بحرية، على متن إحدى تلك البواخر التي تقوم باستكشافات، لكنها تقترح أيضاً أسِرَّةً معدودةً لمسافرين عاديين.

- بالنسبة إلى تشاد، لا وجود لدليلٍ عند غاليمار، قلتُ له بلطفٍ بلهجة ساخرة.

- آه حقّاً! أجابني فيليب، بادي الانزعاج. وعند ناشرٍ آخر؟

- ولا عند الآخرين، أنت تعلم أن تشاد لم تعد وجهةً مطلوبة ومن دون خطر بالنسبة إلى السياح إلا منذ شهور معدودة...

- طيّب... هل تنصحينني ببلد آخر؟

- لكن فيليب، أنا لستُ وكالة أسفار، وأنتَ أكثر خبرةً مني في هذا المجال! كيف تريد مني أن أُوَجِّهَكَ؟

- لديَّ فكرة! أخبريني عن آخر كتاب قرأتِهِ وأحببتِهِ حقّاً، وتدور أحداثُهُ في بلد أجنبيٍّ!

خلتُ للحظة أن فيليب لم يكن جادّاً في كلامه. شعرتُ كأني في سياق حوار سوريالي حيث أجدُ نفسي منخرطة في تحديد مشروع، من أجل شخص آخر، للسفر إلى الجهة الأخرى من العالم. بالإضافة إلى أن ذلك الشخص الآخر كان قد رسمني، عارية تقريباً، أمام بيانو فوق شاطئ نيوزلنديّ...

- أنصِتْ إليّ فيليب، لستُ أدري. قرأتُ الكثير من الروايات البوليسية في الآونة الأخيرة.

- لكنك لا تستطيعين أن تتركيني هكذا...

- القاضي تي (*Le Juge Ti*)...

- ماذا؟

- هل تعرف الصين؟

- لا، لا أعرفها.

- إذاً، هذا هو. ستسافرُ إلى الصين مقتفياً خطوات القاضي تي!

- مَن هو القاضي تي؟

- بطل الكاتب روبير ڤان گوليك (Robert Van Gulik). كاتب هولندي، مات في السبعينيات لأنه كان يغالي في تدخين السيگار! كان متخصِّصاً كبيراً في الصينيات، تزوَّجَ من ابنة موظف صينيٍّ كبير. حبكاتُ كُتُبِهِ شديدة الحيويّة وستحملكَ إلى صين ما قبل ماوْ بكيفيةٍ جيّدةِ التوثيق.

- اتفقنا! عاشت الصين!

- أفترضُ أنكَ تريد أيضاً دليلَ غاليمار المخصّص للصين؟

- بالتأكيد!

انصرف فيليب حاملاً تسعة من كتب القاضي تي الاثني عشر، لأني لم أكن أملكها جميعها في الرفوف.

في المساء نفسه، تكلمتُ مع ناثان في الهاتف لأحكيَ له تلك اللحظة الكبيرة في نهاريَ الصغير بالمكتبة.

- لكن هذا غير ممكن ناتالي، لا تقولي لي إنه سيذهبُ إلى الصين لا لشيء سوى أن يقتفيَ أثر قاضيكِ شانغ!

- القاضي تي، وليس شانغ.

- لا يهم. يبدو أن هذا الكوبوي مجنون بشكلٍ مطلق!

- في كلّ حال، إن يكن مجنوناً، فما هو بخطير. ثم، سترى عند عودتك، ستجد رسماً مائياً حيث يمكنُ التعرّف بسهولة على زوجتك. ما كنتَ أنتَ لترسمني بتلك الطريقة! مع أن المهندسين يُتقنون استعمال القلم، أليس كذلك؟

كنتُ شديدة المرح، وناثان كذلك...

- سأنتظر إلى أن أرى بنفسي. إن كنتِ كثيرة العري، سنضعها في الغرفة، وإلّا فإنها ستجد مكانها في الصالون! قد يكون عليك أن تستضيفي في البيت ذات يوم رسّامَكِ غوغان إمبراطورية الوسط! سيصنع لنا «معرفة العالم» بالرسوم المائية!

ما أن تحُلَّ الأيامُ المشمسة الجميلة، حتى يرافقها السيّاحُ، وتمتلئ أزقّةُ أوزيس بمعارض الأوشحة الهندية، والصابون المصنوع من المواد الطبيعية، وببائعي الأساور الجلدية أو اللوحات البروڤانسية الصغيرة.

ويكثر الإقبالُ على المقاهي المعرَّضة للشمس.

ولدينا، أنا وناثان، عاداتنا المخصوصة، وعندما يكون في عطلة، نُحبُّ أن نقرأ الجريدةَ في مقهى سويسريّ الجزائر (Suisse d'Alger) قبل أن أذهب لأفتح المكتبة.

مقهى لطيف جدّاً، يقع في زاوية ساحةٍ صغيرةٍ، قُبيل ساحة الأعشاب المشهورة. كان مؤسِّسُها من الأقدام السوداء من أصل سويسري. تُديرُهُ اليومَ امرأتان رائعتان لا تزالان تصنعان الشوكولا الساخن بالحليب وليس بالماء الساخن!

يبتسم ناثان كلّما دخلتُ مقهى وسألتُ عن كيفية إعدادهم للشوكولا الساخن، حتى عندما لا أطلبه لنفسي! أما أنا فأرى أن ذاك معيار من المعايير لتقويم جودة مَحَلٍّ. أعتقد أن على المرء أن يتفادى أكل طبق كُسْكُس أو لحم بالخضار في محلٍّ لا يعرف حتى كيف يطهو شوكولا!

كنتُ إذاً أشربُ الشوكولا بينما يقرأ ناثان الجريدةَ، عندما أثار انتباهي معرضُ الفتاة الذي كان يقابلني...

وسط لوحاتٍ صغيرة تُمثِّلُ حقلَ خزامى مع حظيرته الصغيرة أو مرعى مع خرفانه وهي ترعى بين أشجار الزيتون، كانت توجد رسومٌ مائية. كان من الواضح أنها من إبداع الفنان نفسه وتمثّلُ فضاءاتٍ متراميةَ الأطراف مع الكنغر، وأشجارَ جوز الهند على ضفة شاطئ أزرق بلون الفيروز، وهنوداً حمراً بعباءات ملوّنة رفقة حيوانات اللّاما، وأزقّة بيكين المزدحمة بالدراجات والعربات!

انحنيتُ لأقرأ بوضوح التوقيعَ في أسفل اللوحات: ف. ك.

- طاب يومُكِ آنستي. ما أجمل هذه الأعمال التي لديك هنا.

- شكراً، سأقول هذا لأبي؛ إنه هو من يرسم كلَّ هذه اللوحات.

- يمكنك فعلاً أن تُهنئيه!

- الأمر اللافت حقّاً أنه يرسمُ انطلاقاً من صور يجدها في الكتب. كان يملك من قبل متجراً حيث يُخرِجُ الصور الفوتوغرافية التي يلتقطها الآخرون، خصوصاً صور المسافرين الذين يعودون من مختلف أصقاع العالم. ثم وصلَ الرقميُّ فاختفت الصور التقليدية. لم يكن الأمر سهلاً، لكن والدي نجح في التحوّل. لقد أصبح هو

الفنان! بفضل ذلك تمكَّنا من المجيء للاستقرار في الجنوب. الأمر مهمٌّ بالنسبة إليّ لأني مصابة بالربو والجوّ في منطقة بريطانيا لم يعُد يناسبني.

- أصلكم من بريطانيا؟

- أجل، من مورغات. هل تعرفينها؟

- بالتأكيد، إنها عاصمة شبه جزيرة كروزون، التي هي منطقتي المفضَّلَة في بريطانيا!

كان ناثان قد التحقَ بي ولاحظ الدّمع في أطراف عينيّ.

- ألستِ على خير، ناتالي؟

- بلى، بلى، أنا بخير، سأحكي لك...

- لكن، أخبريني، أنتِ لا تعتزمين حقّاً وضعَ مسخٍ بروفنساليٍّ يمثِّلُ خروفاً صغيراً وراعيَهُ في بيتنا؟

- ليست مسوخاً، وإنما هو عمل رائع!

أبعدتُ ناثان عن المعرض وحكيتُ له ما اكتشفتُهُ للتّو. وجدتُ تلك القصة جدّ مؤثِّرة ووجدها هو مسلِّيَةً!

عندما عاد فيليب ليزورني في نهاية شهر يوليو، تحدَّثنا عن الصين.

مرَّ سفرُهُ في ظروف جيدة، وأثَّرَ فيه ما رآه من خلخلة الحداثة لتقاليد الأسلاف.

- بيكين مدينة يصعب العيش فيها بسبب التلوّث، لكن ما أن نبتعد عن المدينة الكبيرة حتى نعثر على الصين الخالدة، مثلما نراها في بطائق البريد!

- أنا سعيدة لأجلك، فيليب! وإذاً، الرحلة القادمة، إلى أين؟

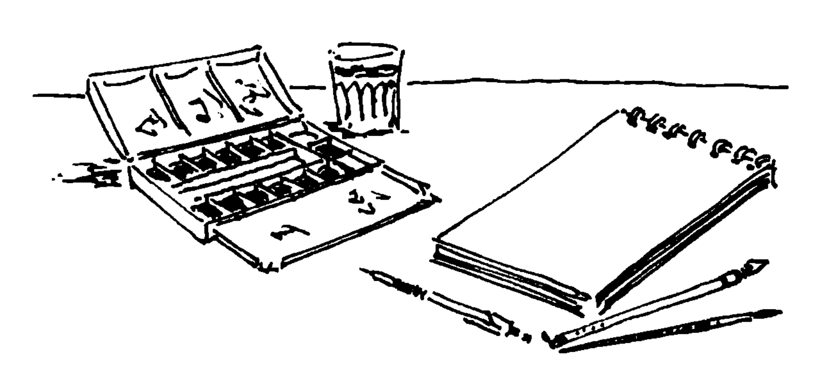
- ما أزالُ متردِّداً قليلاً، أيسلندا، سبيتزبيرغ، النرويج...

- إذاً، سافرْ إلى الثلاثة! يوجد لكل واحد منها دليلٌ لدى غاليمار وليس عليك إلا أن تقرأ **شعوبُ القطب الشمالي القنّاصون** (*Peuples chasseurs de l'Arctique*) للكاتب فريزون-روش (Frison-Roche)! هو أيضاً كان رحّالةً عظيماً، بالإضافة إلى كونه كاتباً يعرف كيف يجعلُ قرّاءهُ يسافرون معه.

ومنذئذٍ، مرةً كل شهرين تقريباً، يدفع فيليب باب المكتبة. مرة مرتدياً قمصاناً من هاواي، ومراتٍ لابساً سترة من الفراء المصنوعة لمجابهة الشمال الأقصى.

يسافرُ دائماً من دون أن ينسى أن يحكي لي رحلاته عند عودته. ضربٌ من كلود ليفي شتراوس شخصيٌّ خاصّ بي.

ورأيي أنه قريباً سيسافر إلى البلدان الـ207 التي تُشكل كوكبنا الصغير!



ليلى

في استكشاف
الكلمات والذّات



الصيف هو فصل الفواكه، وإذاً فهو فصلُ المُربّى...

في باريس، تُباعُ الفواكهُ فجَّةً بأثمنة جدّ مرتفعة! فليس من المدهش ألّا تُحبَّها أجيالٌ من سكان المدينة. كنتُ سأكون مثلهم لو لم أذق فواكهَ المغرب.

علّمَتْني أمي كيف أستمتع بها، وأُحبّ منها أكثر تلك التي بدأ يصيبها التلفُ، لأنها تكون أكثر حلاوة من غيرها.

هناك، لن يخطر ببال أحدٍ أن يرمي فاكهةً بسبب بقعة بئيسة فوق قشرتها!

الموز ذو القشرة الحالكة أفضل بكثير من ذاك الذي لا يكاد يَصفَرُّ. والمشمش يُؤكلُ عندما يصير نحاسيَّ اللون، وخصوصاً عندما لا يكون صلباً لدرجة أنه يُقضَمُ مثل التفاح!

تذوُّقُ فاكهةٍ تمرينٌ مناسبٌ كذلك لاختبار القدرة على التمييز. قد يتوجب خلقُ أكاديمية للفاكهة على صورة تلك التي خلقها ستيفن سبورغيي بالنسبة إلى الخمر. سيأتي هواةٌ ليقوموا بالتذوّق بعيون مغمضَة، في أثناء أمسياتٍ مُكَرَّسةٍ للبرقوق، أو الخوخ، أو الطماطم...

مثلما يحدث مع الخمور، ستُوضع العصاباتُ على عيون المتعلِّمين، وسيستكشفون بالتناوب طعمَ الفاكهة.

توجد آلافُ الأنواع من الطماطم في العالم، وأكثر من ثلاثمئة نوع من الخوخ، ومئات الأنواع من المشمش.

ستسمحُ مجموعة كبيرة من نعوت حاسة الشَّمِّ، وكذلك أذواق الأنسجة، لكلِّ فاكهة بأن تروي حكايتَها في فم المتعلِّم.

إني واثقة كل الثقة من أن الفواكه التي ستفوز بمدح الأكاديميين ليست الفواكه «الأجمل»!

أعتقدُ أن مجرّد أن يأكلَ المرءُ بكلِّ وعيه يربطه بالحاضر. إننا نعيد، بشكل آليّ، إنتاجَ فعلٍ متوارثٍ وحيويٍّ. وقد يكون من المفيد أن نهتم قليلاً بهذا الموضوع...

في سوق أوزيس، يصنع المنتِجون جراراً صغيرة يبيعونها خصّيصاً من أجل المُربّى.

المربى، هو اختصاصي المفضل!

الفراولة، المشمش، التّين، البرقوق، أستعملها جميعها!

في البداية، كان ناثان يسخر مني وهو يرى جِرارَ المربّى تتراكمُ فوق رفوف المطبخ.

- لقد نسيتِ، حبيبتي، أننا لم يعد لدينا أطفال! هل تقومين بهذا للتشبّه بمجلات الديكور؟

- لا تقلقْ، ستصلحُ هدايا للأصدقاء، وسيفرح غيوم وإيليز بأن يحملا معهما البعض منها عندما يعودان من زيارتنا!

اليومَ، يمكنني أن أشارك في مسابقة للمربّى، فأنا أقوم، كلَّ عام، بتحسين وصفاتي وأخترع أخرى جديدة!

أولاً، لديَّ تقنية: لا أضيفُ سوى نصف وزن الفواكه من السكر الأشقر؛ فذاك جدُّ كافٍ ويمنح مذاق الكراميل. إبداعاتي التي أحرزت الإعجابَ أكثر من غيرها مشتقات المشمش (المشمش-اللويزة،

المشمش-النعناع، المشمش-الزعتر)، لكن أيضاً البرقوق-الكستناء، أو التّين-الفستق.

عندما أصنع المربّى تعبق رائحتُها في كامل أرجاء البيت. تُصدر النّار الهادئةُ، من تحت الحوض النحاسيِّ، هسيساً مخصوصاً يدفعُ ناثان إلى القول بشراهة: «أعشقُ صوتَ المُربّى».

بل إنني عملتُ على تحسين طريقة تقديمها، حيث اصطنعتُ بطاقات صغيرة لاصقة مخصوصة بِجِراري: «مُرَبّى الكُتْبِيَّة». وتحت العنوان حيّزٌ فارغٌ لأكتب فيه رائحة كلٍّ واحدة.

أُهديها بالفعل إلى أصدقائي، لكنني أقايِضُ بها كذلك مع تُجَّار السوق. بائع عصير الزنجبيل من هواة المربى، مثله مثل ليلى التي تمنحني ثلاث قطع من جبن الماعز مقابل جَرَّةٍ واحدة من المُربّى.

المقايضة أمرٌ يتطوّرُ بسرعة في البادية. إنها ممارسة لم ينقطع المزارعون عن ممارستها فيما بينهم، لكن مع تجدُّد الدعوة إلى «العمل الذاتي»، بدأت تلك المبادلات، القائمة على استبعاد رواج المال، تحصل على مزيد من الدعم.

لستُ واثقة من أن المراقبين الماليين لن يروقهم الأمرُ، لكن إذا ما حصل أن قال بعضُهُم شيئاً فإنني أعتقد أني سأعرفُ كيف أستلطفهم بجرّة من المُربّى...

في صباح السبت، تقيمُ ليلى معرضها الصغير حيث تبيع جبنَ الماعز، عند زاوية ساحة الأعشاب، أمام المكتبة تماماً.

عندما أصلُ، أجد ليلى قد وصلت قبلي، وكذلك باقي تُجّار السوق.

تلك أفضل الساعات. الساحة نشطةٌ، لكنها لا تزال لم يتعذّر بها السيرُ. إنها ساعة أهل البلد. ساعة الأشخاص المُسِنّين الذين يأتون ليملأوا أكياسهم. وهو أيضاً الوقتُ الذي يكون لا يزال في إمكان المرء أن يتحدث مع الآخرين عن أحوال الطقس، وجودة المحاصيل أو عن صحة هذا أو ذاك من السكان.

تسبح الساحةُ حينئذٍ في رفقٍ يُنشِدُ اللهجةَ المحلِّيَةَ، الأَقل بروزاً من لهجة الجنوب الشرقيّ، لكنها مع ذلك مفعمة بالشمس.

ليلى فتاة فرنسية جميلة من أصل مغاربيٍّ. ذات نظرة متلألئة، وشعر فاحم، ليست بالفارعة الطول، وتميلُ أكثر إلى النحافة. عندما رأيتُها خطَرَتْ على ذهني الأغنية البريطانية التي تتحدث عن الفتاة الشابّة مادلين دو لاروشيل التي تمشط شعرها من دون مرآة ولا مشط، ولكنها مع ذلك هي الأجمل. يُكمِلُ أنفُها الأفطسُ قليلاً، وشفتاها الغامقتان، جمالَ وجهها البالغ السحر مثلما يقول غيوم. يحسُّ بنوعٍ من الانجذاب إلى الفتاة التي يمرُّ بها كلما جاء لزيارتنا يوم السبت. غير أنّ ليلى ليست قلباً مباحاً لأنها لديها حبيبها، مارتان.

قرَّر الاثنان، وما يتجاوزان العشرين من عمرهما، أن يخلقا قطيعاً صغيراً من الماعز في منطقة سوسين، عند سفح جبل بوكيه.

لقَّنَهُما راعٍ شيخٌ كيفية صنع الأجبان، وأجدُ أنها الأفضل في السوق. وبينما كنتُ أُهنِّئُها على منتوجها، أجابتني قائلة:

- هذا أمر طبيعي، لأن ماعزنا تتبع مسالكَها مع مارتان طيلة النهار، وتأكلُ من كل شيء، وسط الطبيعة، وليس داخل حظائر حيث تأكل دائماً من العلف نفسه!

«المسالكُ»، هي الفضاءاتُ التي يقود عبرها الراعي قطيعَهُ بِحُريّة. وتتحدَّدُ باتفاق مع أصحاب الأراضي، الذين نادراً ما يكونون هم الرعاة أنفسهم. والأراضي الجماعية هي جزء من تلك الأراضي المخصصة للقطعان لكي تظلَّ فضاءاتٍ مفتوحةً أمام الجميع. بَيْدَ أنَّ الرعاة الذين يسيرون خلف القطعان هم في تناقص مستمرٍّ، ولكنَّ جهةَ لوسان لا تزالُ تحتفظ بأفراد منهم.

يُشكِّلُ الراعي جزءاً من صورة جماعة «إيبينال» المُطَمْئِنَةِ، مثلها مثل حقول الخزامى أو أشجار الزيتون. ومهنة الفلّاح شديدة الصعوبة، وتتطلَّبُ تضحياتٍ مهمة. لا يعرف الكثير منهم معنى العطلة، ويضحّون بأُسَرِهم من أجل مزارعهم. وعندما نشتري بالأورو كيلو واحداً من الطماطم أو الفول من السوق، فإننا لا نُدركُ كَمّيةَ الطاقة البشرية التي استوجبها إنتاجُها.

عندما كنّا باريسيين، قلتُ مراراً للأطفال، إذ يشرعون في تناول وجبة، أن يستحضروا أمام أبصارهم، قبل كلِّ طبقٍ، الفاكهةَ أو الخضارَ وهي في حقلها أو فوق شجرتها، والرجلَ الذي حرث أرضهُ، ثم زرعها، وانحنى ليجمع خضاره وفواكهه، قبل أن يحمل أكياسَهُ ليوصِلَها إلى السوق.

وبذلك، يضعون الوعيَ في حركتهم، ويعترفون بفضل ذلك الرجل أو المرأة اللذين لن يروهما أبداً ولكنهما يُطعِمانهم.

عندما يحضر غيوم وإيليز في زيارة، ويرافقاني إلى سوق المُنتِجين يومَ الأربعاء، فإنهما يلتقيان بوجوه أولئك الفلاحين. وهكذا تلجُ البيتَ عيونُ مارسيل الضاحكةُ رفقة كومة ريحان، ويدا بييرو

التالفتان رفقة البطاطس، وابتسامةُ جاكلين تتربَّعُ وسط كيس الخوخ، بينما ابتسامة ليلى فوق طبق الأجبان! بما أن مارتان صحبة الماعز، فليلى هي التي تبيع في الأسواق.

نتشاركُ، أنا وهي، كلَّ صباحِ سبتٍ، أكلَ قطعة من جبن الماعز مدهونة فوق الخبز المسقِيِّ بزيت الزيتون.

صار الأمرُ شعيرة.

وأشتري منها أيضاً الأجبانَ التي أحتاج إليها طول الأسبوع، وأراها وهي تطوي كشكَها عند بداية ما بعد الزوال، قبل أن تودّعني بإشارة من يديها وتنطلق نحو سوسين على متن شاحنتها الصغيرة. حكَت لي ليلى أنها كبرت في زاكورة، في الجنوب المغربيِّ. كان والدُها يستغلُّ قطعة من الواحة، وأمُّها تعتني ببستانٍ لزراعة الخضار يُطعم الأسرةَ كلَّها.

أتذكَّرُ جيّداً زاكورة. إنها أجمل واحة في المغرب! عندما كنّا نقطن في الرباط، كنّا نلجأُ إلى الجنوب في كلّ عطلة. وبعد توقف بمراكش، كنا نلتحق بورزازات ثم ننطلق إما نحو وادي دادس حيث كانت الحرارةُ تَظلُّ رفيقة حتى في الصيف، لأنه يقع في مرتفع، أو نحو وادي درعة وزاكورة في الخريف أو في الشتاء.

لا شيء أروعُ من جولة في الواحة، وسط البساتين وعلى صوت الماء الذي يسيلُ في قنوات الريّ.

أتذكّرُ جيداً النساءَ في ثيابهنَّ الملوَّنة وهن يقمنَ بكلِّ الأعمال الفلاحية. كنَّ يملأن القُفف المضفورة المتدلِّيَةَ على جوانب الحمير بمحاصيل اليوم. وكانت الواحة حيوية في جميع أركانها. وأحياناً

كانت رائحة الشاي بالنعناع تقودنا إلى نار صغيرة فوقها إبريق مليء بالمشروب الوطني المغربي. المغاربة كرماء وكانوا يُقدِّمون إلينا النعناعَ الطّريَّ، والتمر، وكأس شاي عندما كنا نجلس للحديث إليهم.

كنتُ أحاولُ أن أتخيَّلَ ليلى صبيّةً. لا بد أنها كانت تُشبه تلك الفتيات اللواتي يجرين حافيات الأقدام، يبتسمن على الدوام، ويرغبن في اللعب معنا. لم تكن لدينا لغة مشتركة، لكن الابتسامة وسيلةٌ كونيةٌ تسمحُ لجميع أطفال العالم أن يتفاهموا.

ليلى لديها أخوان أصغر منها.

ومثلما يحدث كثيراً في المغرب، فقد مات حسن، والدُ ليلى، الذي يكبر زوجته كثيراً، بينما لم تكن ابنتُهُ قد جاوزت عامها السادس عشر.

قرّرتْ أمُّها، التي كان أحدُ أشقّائها يعيش في مرسيليا، أن تسافر إلى تلك المدينة مع أبنائها لتكون تحت حماية شقيقها الأكبر.

اكتشفتُ قصة ليلى في أثناء حواراتنا القصيرة المتواترة كلَّ صباح سبتٍ. وفي حديث من تلك الأحاديث عبّرت لي عن ألمها لفراق المغرب.

- لكن لماذا لم تبقَيْ في مرسيليا مع والدتِكِ، حيث كنتِ ستكونين أكثر قرباً من المغرب؟

- عندما وصلنا إلى مارسيليا، وجد خالي عملاً لي ولأمي في فندق قريب من المرسى القديم.

- لكن ألم تكوني ترغبين في الذهاب إلى الثانوية؟

- أتعرفين، أنا في المغرب لم أذهب إلى المدرسة إلا عندما بلغتُ الثانية عشرة، وهذا في حدِّ ذاته كثير بالنسبة إلى فتاة. في فرنسا، لا شيء كان يُجبرني على الالتحاق بها واستجبتُ لأمر خالي، لأني كنتُ أرى أنه كريم جدّاً لقبوله الاعتناء بنا.

غير أنني سرعان ما بدأتُ أكتئبُ. كنتُ أحنُّ إلى الواحة، وأشتاق إلى الطبيعة، وغناء العصافير، ومسالك التراب الأحمر حيث كنتُ أذهبُ وأنا أغني لأجمعَ التمر مع أبي، كنتُ شديدة الحزن. كان خالي مهووساً بفكرة واحدة: أن يُزوِّجني. كان يأتي إلى الشقة رجالٌ كثيرون ليروني، وفهمتُ أنني قد أجدُ نفسي رفقة غريب لا أحبُّهُ. وذات صباحٍ، قررتُ أن أغادر مرسيليا. تركتُ رسالة لأمي أقول لها بأن لا تقلق وأعدُها بأني سأُطلِعُها على أخباري. ذهبتُ إلى جبل لور، جهةَ سيستيرون، وعملتُ في جني الكرز، ثم المشمش واللوز. كنتُ سعيدة بعودتي من جديد إلى الطبيعة والشمس!

- وهناك التقيتِ بمارتان؟

- أجل، كان في طور التعلُّم عند مُزارعٍ يملكُ بعض الأشجار المثمرة، وخرفاناً وماعزاً.

عند نهاية تعلُّمِهِ، أردنا أن نستقرَّ هناك، لكنها منطقةٌ كلُّ شيء فيها أبهظ ثمناً من هنا.

اقترح علينا أحدُ أصدقاء مارتان أن نأتي لنكتشف منطقة الغارد، ولهذا نحن هنا! أحبُّ الدّغل في هذه الأراضي، يُذكِّرُني جفافُهُ أحياناً ببلدي.

فهمتُ سريعاً أن ليلى ومارتان يعيشان وضعاً مالياً صعباً. وبما أنّ قامتي لم تكن تفوق قامتها إلّا قليلاً، فقد قمتُ بإعادة ترتيب خزانة ملابسي لأمنحها ما لم أعد ألبسُهُ.

أحافظُ عادةً على ملابسي فلا أُتلِفُها إلّا نـادراً. لكن بما أنني أتابعُ الموضة وتُغريني أحياناً السْتراتُ الجميلة التي تبيعها هيلين، صديقتي التي لديها متجر للملابس قرب المكتبة، فإن خزانتي لا تني تمتلئ بالملابس.

وقد اعتاد ناثان، الذي يقضي العام كلَّهُ بسروالين من الجينز وزوج أحذية واحد، أن يوجِّهَ إليَّ ملاحظاتٍ حول كثرة ملابسي، ويقترحُ عليَّ أن أتسوّقَ بتخفيضاتٍ داخل خزانتي نفسها بدل أن أُسْلِمَ نفسي لغواية متاجر أزقة أوزيس.

أجيبُهُ في كل مرة أنه، يومَ يتخلّى عن شراء أقلام تنضاف إلى مجموعته المشكَّلة من ماركات مونبلان وواتيرمان في محفظة أقلامه، يومئذٍ سيكون من حقِّهِ أن يُعلِّقَ على خزانة ملابسي.

أعتقد أن هذا الأمر ينطبق على جميع الأزواج؛ تتكرّرُ بعض الأحاديث متطابقة، حيث لا تكاد تتغيّر الحواراتُ على مرِّ الأعوام. لا بد أن ذلك يُمثِّلُ شكلاً من التّطمين. تقريباً مثل قبّعة الحديقة التي نعثر عليها دائماً في مكانها، أو آنية السكر الموضوعة فوق طرف نافذة المطبخ الصغيرة؛ فحواراتُنا المتكرِّرةُ تُشكِّلُ جزءاً من المشهد الذي نعرفُهُ جيّداً ويمنحنا الأمن.

لكن يوجد خطر أن تكتسب الكلماتُ الملفوظةُ بعضَ القسوة بمرور الزمن. لاحظتُ ذلك مع والديَّ، وكنتُ أحياناً يغمرني الحزنُ

عندما كنّا نحيا أياماً كاملة من دون أن نتبادل إيماءة حنانٍ، ولا كلمة لطيفة. لا شيء سوى اشتباكاتٍ صغيرة. إذا أخذنا كلَّ واحدة على حدة فإنها تكون من دون أهمية، لكن عندما نضيفها بعضاً إلى بعض فإنّ ذلك كان يخلق جوّاً لا تشعر فيه الطفلةُ، التي كنتُ ما أزال على الرغم من كل شيء، بالراحة والاطمئنان.

يجب أن نحذر تلك المسابح المتكوِّنة من حبّات صغيرة جدّاً، حيث تكفي حبةٌ واحدة زائدة لينفرط الخيطُ بكامله.

لو أنَّ والديَّ كانا ينتميان إلى جيلي أنا لربما كانا قد افترقا. في أيامنا هذه لا تصمد قوةُ رابط الزواج أمام السنوات عندما يتعرّضُ بشكلٍ متواصل لمضايقة اليوميِّ.

لكني أعلم مع ذلك كم كانا سَنَدي في جميع اللحظات، وكم كان الأمر سيكون مؤلماً لو أنهما لم يظلاَّ معاً.

طفولة مزدوجة، أغنية رائعة لجوليان كلير (Julien Clerc)، تُعبِّرُ عن تلك المعاناة التي لا تختفي أبداً عند أطفال الوالدين المطلَّقين. يُصنِّفُ علماء النفس الطلاقَ بين الصدمات النفسية التي تعادل قوّتُها أثرَ الحِداد. فكون الإحصائيات تجعل منه أمراً مألوفاً لا يعني أن الطلاق، في المستوى الفرديِّ، ليس حدثاً استثنائياً في الحياة بالنسبة إلى الذين يواجهونه.

اليومَ لم يعُد أبي هنا.

أشتاق إليه.

أجدهُ دائماً متربِّصاً خلف الكتب التي أحملها بين يديَّ طول النهار. كم قرأَ من كتاب!

عندما قررتُ شراءَ المكتبة، فإن تفكيري بالتأكيد كان ينصرف إليه أكثر من غيره. فقد كانت أجملُ أحاديثنا تنبعُ من قراءة مشتركة.

«خذي، ناتون (Natoun)، هذا سيُعجِبُكِ!».

كان نادراً ما يُخطئ، وعندما كنتُ أَفرغُ من قراءة الكتاب، كان في إمكاننا أن نقضيَ عشاء كاملاً نعيش من جديد مع شخصيات الحكاية التي أتينا على قراءتها، نندهشُ من ردِّ فعل إحداها، أو نتعرّفُ على ذاتنا في تصرف أخرى، أو نتحدث عن عبارة معينة، أو نُبدي حماسَنا أمام إبداعِ كاتبٍ في مشهدٍ رائع.

كثيراً ما تصعدُ ذكرى أحاديثنا إلى السطح، حيث إني أشعرُ أن أبي جالسٌ في إحدى زوايا المكتبة، وأن حديثنا لا يزال متواصلاً.

يُقالُ إن النساء يخترنَ زوجاً يُشبهُ والدَهُنَّ أو يكون نقيضَهُ تماماً. أعتقد أن ناثان يُشبه والدي بعضَ الشيء، باستثناء هوايته المطلقة للجغرافيا السياسية. كانت تستعرُ بينهما نقاشاتٌ أبديّةٌ يقومان فيها من جديد بمعركة أليزيا (Alésia)، أو يُعيدان النظر في وضعية الشرق الأوسط لو لم تُوقَّع اتفاقياتُ كامب ديفيد، أو لو أنّ بوش لم يُقرِّر غزوَ العراق... كان الأمرُ ممتِعاً، وكنتُ أتلقَّفُ كلماتهما وأنا أتحسَّرُ على كوني غير قادرة على تأليف كتاب في الخيال السياسي انطلاقاً من فرضياتهما.

مات أبي وهو يقرأ سيرةَ ماجيلان (Magellan) للكاتب ستيفان زفايغ (Stefan Zweig).

مات مع كتابه. مُمَدَّداً فوق كرسيِّ الاسترخاء بالحديقة، على ضفة نهر اللوارْ، في بلدة شومون.

اعتقدت أمي في البداية أنه نامَ، وقد وضع الكتابَ فوق وجهه ليحميَهُ من الشمس. وبعد انصرام مدة طويلة، وهي تراه لا يزال مستلقياً، اقتربَتْ منه، قلقة. لاحظَت سريعاً أنه قد توقَّفَ عن التنفّس.

وشاءت الصدفةُ أن أكون قد حضرتُ لقضاء بضعة أيام عطلة معهما قبل أن أستأنف الدخولَ المدرسيَّ.

كنتُ أُحَضِّرُ برنامجَ القراءة الذي أُعِدُّهُ للتلاميذ الذين كنتُ سأستأنفُ العملَ معهم في مونتيني بعد أسابيع قليلة.

كنتُ مسرورة لفكرة أني سأجعلهم يكتشفون الأدب. خصوصاً أني وقعتُ على جوهرة: **حيواتٌ متجاورة** لمحمد برّادة. كتابةٌ فريدةٌ، وسردٌ شديد الأصالة، يسبُرُ منعرجات العلاقات التي تتحكَّمُ في دوائر السلطة في المغرب المعاصر. يحكي برادة عن مغربٍ لم يخطُر وجودهُ على بالي عندما كنتُ أعيشُ هناك. وكنتُ قد قرأتُ من قبل **صديقنا الملك** (*Notre ami le roi*)، الكتاب المشهور لجيل بيرو (Gilles Perrault) الذي أخرجَ للعَلن خبايا سنوات حكم الحسن الثاني. كنتُ قد تأثَّرتُ كثيراً للمصير الذي خصّصهُ العاهلُ لأسرةِ الجنرال أوفقير. كيف يمكن للمرء أن يحبسَ أطفالاً أبرياء باسم أخطاء آبائهم؟

وهكذا توجد بلدانٌ تُعتبر وجهات سياحية، حيث نضعُ جانباً استنكاراتِنا الإنسانيةَ، مدَّةَ استمتاعنا ببضعة أيام عطلة تحت ظلال واحة... كم من سيّاح يذهبون من المطار إلى فندقهم-النادي ليقضوا أسبوعَ عطلةٍ، تحميهم سياجاتٌ جميلة من الدفلى التي تُخفي أسلاكاً شائكةً، يتراكم خلفها البؤسُ والفقرُ في مدن الصفيح. يدافع ناثان عن

فكرة أن تلك الدول إنما هي أقل فقراً بفضل مداخيل السياحة. أما أنا فإني أخشى أن تكون السياحة الأداة التي تسمح للسلطة القائمة بألّا تستجيب لنداءات المنظمات الإنسانية المطالبة بمزيد من العدالة وتوزيع أفضل للثروات.

كنتُ وسط كتبي إذ وصلَتْ أمي بهدوء.

جلسَت أمام الطاولة في مواجهتي، ووضعتْ يدَها فوق يدي مبتسمةً، وقالت لي: «أبوكِ ماتَ... تحت كتاب».

في البداية، لم أفهم، فعقدتُ حاجبيَّ. يموتُ المرءُ تحت شجرة تسقطُ، أو تحت صخرة تهوي، لكن ليس تحت كتاب. ثم تلك الابتسامة الرقيقة فوق وجه أمي، هي الحيوية المنفعلة في الحياة العادية، كانت شديدة الهدوء، لا تسمح لي أن أستوعب ما قالته للتو.

أخذَتْ أمي بيدي تدعوني إلى مرافقتها. عبرنا الصالون، ثم الشرفة. في البعيد، بدَتْ لي هيأةُ أبي المُطَمْئِنَةُ فوق كرسيٍّ الحديقة، حيث كان يُعجبُهُ الاسترخاء في تلك الساعة من النهار. كان اللوار يجري، وهو يهذي من دون تحفّظٍ كما ينبغي لنهرٍ متوحشٍ مثلما هو دائماً. وفوق مجرى النهر، قصر شومون، تغمرُهُ الضياءُ، صحبةَ شجر الأرز الذي يؤنسُهُ.

وعندما اقتربتُ، فهمتُ.

تجري العادةُ بأن نقفل عيونَ الموتى بحركة لطيفة من اليد، أما هنا فقد أقفلَتْ عيونَ أبي صفحاتُ الكتاب.

ابتسمتُ لأمي.

كنتُ أبكي بدوري.

تركنا، فوق سرير الموت، وحتى داخل التابوت، ماجيلان موضوعاً فوق وجه أبي، وستيفان زفايغ يواصل الحوار معه.

ذات يوم كنتُ أتحدثُ إلى ليلى، وأردتُ أن أهديها استعادة (*Regain*)، كتاب صغير لجيونو (Giono)، تدور أحداثُهُ في منطقة سيسرون، وهو ممّا ورثتُهُ عن أبي. صعقتني الدّهشةُ عندما قدّمتُ لها هديّتي:

- هذا لطفٌ كبيرٌ منكِ، لكنني لا أعرفُ القراءة! سأهديه إلى مارتان.

- لكن كيف يكون هذا ممكناً؟ لا تعرفين القراءة تماماً!

- بلى، أعرفُ قراءة العربية، خصوصاً القرآن.

انفجرت ليلى ضاحكة أمام منظر شَدَهي.

- اعذريني. لكنني لم أكُن أتصور هذا. تتحدثين لغةً جميلة جدّاً!

- لا تعتذري. أتعلمين، يمكن للمرء أن يعيش سعيداً جدّاً من دون أن يعرف القراءة، وأن يكون شديد التعاسة على الرغم من ثقافته الكبيرة!

- أنتِ على حق...

أسابيع قليلة بعد ذلك، دفعت ليلى بابَ المكتبة.

كانت قد فرغت من عملها في السوق.

- أيمكنني أن أنظر قليلاً إلى الكتب؟

- أكيد! هذه الغاية من وجودها هنا.

تجولت ليلى بين أجنحة المكتبة وهي تتصفّحُ بعض الأعمال. تابعتُ بنظري جولتها ولاحظتُ أنها لم تكن تنظر في تلك التي بها صور فحسب.

فكرتُ حينئذٍ في عمل الناشرين الذين ينتقون بعناية ورقَ كُتُبهم، وأشكالَها، وأغلفتَها.

كانت ليلى تُداعبُ بعض الصفحات، تتأمل غلاف كتاب؛ كانت جميع حواسها متأهبة بسبب أُمِّيَّتها ذاتها.

عادت نحوي وهي تحمل كتاباً في يدها:

- ما المكتوب هنا؟

- زولي (*Zoli*)، هو عنوان الكتاب. المؤلف هو كولوم ماكين (Colum McCann)، إيرلندي.

- هذه صورة جميلة. كأنها أمي عندما ترقص...

كان الغلافُ يُمثِّلُ امرأة، ذات شعر كثيف، فاحم، ملفوف في عقال أحمر. وكانت ترتدي فستاناً واسعاً أزرق مع تنورة سميكة. لم تكن الصورة واضحة. كانت المرأة تبدو فوق الثلج كأنها تُحيّي القارئ، ورأسها مُطرقٌ نحو الأرض.

- إنها غجرية. هذا الكتاب صورة امرأة ستعيش الأحداث المأسوية في أوروبا القرن العشرين. أصلها من الغجر، وستعبر القارة من بعد أن فقدت والديها في سنِّ السادسة عندما غرقت عربتُهما في بحيرة متجمِّدة انهار جليدُها. قصةُ حبٍّ رائعة، لكنها حزينة كذلك!

- لكن، أنتِ قرأتِ جميعَ الكتب؟ تعرفين جميع حكاياتها؟

- كتبُ مكتبتي نعم، أو تقريباً. ليس جميع الدراسات، لكن أغلب الروايات.

- ما معنى رواية؟

- كتاب نابع من خيال مؤلِّفِهِ. ليس قصة حقيقية!

- ليست مهمّة إذاً.

- بلى، لأنها في الغالب، إذا ما كانت مكتوبة جيّداً، فإنها تكون أشدَّ وقعاً من القصص الحقيقية. إنها تسمحُ للقارئ بأن يتماهى مع الأبطال الذين يكتشفهم. يغادر وضعَهُ، مدَّةَ قراءة رواية، ليعيش بالنيابة وضعَ إنسانٍ آخر.

استجمعت ليلى أنفاسها وأطلقَتْ سؤالَها:

- أتقبلين أن تُعلِّميني القراءة؟

- لكنني لا أعرفُ كيف تُعلَّمُ القراءة!

- بقراءة الكلمات! ستقرئين لي صفحاتٍ وسأنظرُ إلى الكلمات في الوقت نفسه. من فضلك... قولي نعم...

- أنصتي، لا أمانع في أن أقرأ لكِ كتاباً، لكنني لستُ متأكدة من أن القراءة تُتَعلَّمُ بهذه الطريقة...

- سنحاول!

- ينبغي اختيار كتاب سهل في هذه الحال.

- لا، أريدُ زولي!

- لكن عدد صفحاته يفوق الثلاثمئة! إنه كتابٌ ضخم.

- هذا أفضل. هكذا سأجد الوقتَ الكافي لأتعلّمَ.

كانت ليلى ودودة. كانت تنظر إليّ برجاء، كأنني أملك بين يديَّ مفاتيح الفردوس. وكانت نظرتُها بهيجةً لا تُرَدُّ...

- اتفقنا. أقترحُ عليك أن نقرأ معاً بضع صفحات كلَّ سبت، بمجرد أن تفرغي من السوق، قبيل موعد فتح المكتبة عند الساعة الثانية بعد الظهر.

كنّا نقرأ، في أثناء كل حصة من حصصنا القصيرة، نحوَ عشر صفحات.

كانت ليلى تجلس بجانبي، مُفَتَّحَةَ العينين، والأذنين كذلك.

وكنتُ أتابعُ بأصبعي كلَّ كلمة.

بعد ثلاث حصص، أخذَتْ تشاركُ في القراءة.

كانت تستبقُ أداةَ التعريف، والضمائر، ثم «جَدّي»، و«صباح»، ولاحظتُ أنها كلَّ مرةٍ يزداد ما تكتسبُهُ من كلمات.

كانت تلك «المنهجية الكُلِّية» البدائية، ولكنها كانت ناجحة!

عندما وصلنا إلى الصفحة المئة تقريباً، حاولت ليلى أن تستقلَّ بالقراءة.

كان الأمرُ شاقّاً، ولاحظتُ أنها تبذل من الجهد ما يُنسيها أن تفهم ما تقرأ.

والأمر الذي كان يزيد التعلُّمَ صعوبةً إدراجُ ماكين كلماتٍ من اللغة الغجريّة في روايته.

وهكذا اكتشفَت ليلى أن الحروفَ الهجائيةَ ذاتَها يُمكن أن تُنتجَ لغاتٍ متعددةً لا يفهمُ بعضُها عن بعض.

استرجعتُ ذلك الإحساسَ الذي عرفتُهُ مع إيليز وغيوم عندما شرعا يقرآن الكتبَ وحدهما لأول مرة.

يا لروعة منظر الأطفال وهم مستلقون على بطونهم، فوق أسرّتهم، يقرأون بدقة وعناية، والأصبع فوق الصفحة، ويرفعون رؤوسهم بفخر عند نهاية كلِّ صفحة، كأنهم بذلك إنما يعتلون في كلِّ مرة قمةَ إفرست!

كنتُ أُقَدِّرُ كلَّ يوم كيف أن القراءة تمنحُ أجملَ الأسفار، حتى بالنسبة إلى مَن لم يُغادر أبداً أرضهُ.

أن يضع المرءُ داخل ذهنه كلماتِ الآخر، يعني أن تكون له الإمكانية، مدَّةَ قراءة كتابٍ، أن يجعلها كلماته هو.

يشبه الأمرُ قليلاً الممثِّلَ الذي ينبغي له أن يختبر مشاعر الشخصية التي يؤدي دورها. ولا يمرُّ التماهي مع شخصياتٍ معيَّنة من دون أن يترك أثراً في حياتنا؛ فالمنظورات التي تُشرِعُها كلماتُ الآخر تُصبحُ نوعاً ما، بالنسبة إلينا، إمكاناتٍ يمكن أن نسلكَ سبيلَها.

حدث لي، في أحايين كثيرة، أن منحتني قراءةُ كتابٍ صفاءَ الذِّهن الضروريَّ للتعبير عمَّا كنتُ أُفكِّرُ فيه.

وكثيراً ما طلَعَت الاستشهاداتُ من دفتري الصغير، لتساعدني على أن أقول لأطفالي، بكلمات قليلة، ما لم أكن أُفلِحُ في التعبير عنه، اعتماداً على معجمي وحده.

وهكذا قدَّمَ لي جيل كليمان (Gilles Clément) مؤخَّراً ما طعَّمتُ به رسالتي إلى إيليز التي كانت تسخر من قدرتي على الدعم

الحماسيِّ للجمعيات والحركات التي تنجُمُ من الأرض من دون أن يُعرف لها مصدرٌ ولا مقصدٌ على وجه التحقيق.

فبينما كنتُ قد انصرفتُ لأقضيَ قطعة من المساء رفقة «الليل وقوفاً»[1] «Nuit debout»، أرسلتُ إليها كلمات كليمان: «عندما يكون الاختيارُ بين ما يُدَمِّرُ وبين ما هو شيء آخر، غير أكيد، أُفضِّلُ أن أقصِدَ ما هو غير أكيد. لأن الأمل إنما يقومُ في ذلك الشيء غير الأكيد».

الكتبُ فضاءاتٌ غير أكيدة. فليس من الآمِنِ أن نسمح لأفكار الآخر أن تَعْبُرَنا. سيتشبَّثُ بعضُها بأغصاننا ويبقى مُعلَّقاً هناك، ينمو معنا، لينبعثَ بعد ذلك مثل أفكار مطوِيَّةٍ داخل حقائب عِلِّيّةٍ.

ويحدثُ أحياناً أن نستعمل تلك الأفكار في حياتنا اليومية، فتغدو كأنها أفكارنا، إلى درجة أننا ننسى أصلها الأجنبيَّ.

غبطتُ ليلى بحنان على كلِّ تلك الآفاق التي كانت ستنفتح أمامها، إذا ما هي ثابرَتْ بكل ذلك الفرح.

وكنتُ قد لاحظتُ، في أثناء زيارتها الأخيرة، أن جسدها قد انتفخ بعض الشيء، لكنني لم أجرؤ أن أسألها خشية ألّا يكون للأمر علاقة بحمل أوّلٍ.

وبضعة أشهر بعد ذلك، صار الحملُ واضحاً من انتفاخ بطن تلميذتي الشابة، فلم أتردّد في سؤالها مبتسمة:

- أخبريني ليلى... أتُخفينَ عنّي أمراً ما؟

---

(1) تظاهرات احتجاجية حصلت في الساحات العامة في فرنسا عام 2016. -المترجم-

- لا، لا أخفي أي شيء. ماذا تقصدين؟

بدا أن سؤالي قد فاجأ الشابّةَ حقيقةً.

- ألستِ حاملاً بعض الشيء؟

- لا، أبداً!

- آه حقّاً، خلتُ للحظةٍ أنكِ...

عندما انصرفت ليلى، بقيتُ مشغولة الذهن قليلاً، لأنني كان لديَّ إحساسٌ حقيقيٌّ أنها حاملٌ، لكنني لم أكن أفهمُ سبب عدم رغبتها في الكلام عن ذلك.

بعد أربع زيارات جديدة، وبينما نحن في الصفحة 240، لاحظتُ أن ليلى قد عوَّضت سروالَها الجينز بتنّورة واسعة. ولاحظتُ كذلك، أن جسمها قد ازداد استدارةً، ولم يعد يخالجني ريبٌ في حقيقة حملها!

- ليلى، أنتِ حبلى، أليس كذلك؟

- لا، لستُ حبلى. لماذا تضايقينني بهذا الأمر؟

- لأن الأمر صار بيِّناً. لا بد أنك تَرَيْنَهُ؟ لم تعودي تحيضين، أليس كذلك؟

- لا، لكنه تأخُّرٌ في الحيض فحسب.

- لكن، هل ذهبت لزيارة الطبيب؟

- لا، لا يحتاج الأمرُ إلى طبيب!

- عدا هذا، أنتِ بخير؟ ومارتان على ما يُرام؟

- نعم، بأحسن حال، مع حلول الربيع، لا يفارقُ القطيعَ في مراعيه.

- سآتي ذات يومٍ لزيارتكما في سوسين. أحبُّ كثيراً جبلَ «بوكِيه» الذي يتصدَّرُ المَنظَرَ أمام سلسلة جبال «سيڤين» الممتدَّة إلى الأفق البعيد.

- هذا غير ممكن. مارتان يحرسُ وحدهُ!

كنتُ واثقة من حَبَلِ ليلى.

كنتُ قد فرغتُ أخيراً من قراءة كتاب **يلِدْنَ وَلَسْنَ حوامل** (*Elles accouchent et ne sont pas enceintes*) لصوفي مارينوپولوس (Sophie Marinopoulos). وهو مؤلَّفٌ مرصودٌ بكامله لظاهرة إنكار الحمل.

يحكي كيف أنّ النساء اللواتي لا يرغبن مطلقاً في أن يلدنَ طفلاً، يستطعنَ أن يعشنَ كاملَ فترة حبلهنَّ وهنَّ يُخفينَهُ عن محيطهنَّ، وحتى عن أنفسهِنَّ.

لم أكُن أعرفُ كيف أتصرّفُ، ففاتحتُ ناثان في الأمر:

- ماذا كنتَ ستفعلُ في مكاني؟

- صغيرتُكِ تحتاجُ إلى مساعَدة. لكن الأفضل أن تتحدثي إلى رفيقها إذا كانت هي لا تريد أن تتحدث في الأمر.

- لكنني لا أعرفُهُ. إنه «يحرسُ» كما تقول. هذه هي العبارة التي يستعملها الرعاةُ للحديث عن رعي القطعان التي تسرحُ بحرية في الدَّغل.

- لماذا لا تطلبين من فيرجيني أن تكون معكِ عندما تزوركِ ليلى في المرة القادمة؟ هي طبيبة، ولربما تقبلُ محظيَّتُكِ أن تُنصِتَ إليها.

كنتُ أعتبر أن الفكرة جيدة، ووافقَتْ فيرجيني أن تأتي إلى المكتبة في السبت الموالي، لكن ليلى لم تُقِم كُشكها ذلك اليوم، ولم تحضر كذلك إلى درس قراءتها.

في السبت الموالي، شاهدتُ الشابةَ الجميلةَ تصلُ الساحةَ، لا يكاد يُخفي استدارةَ جسدها البارزةَ فستانُها الواسعُ الذي يشبه فستانَ زولي، غجرية ماكين.

طلبتُ فيرجيني في الهاتف لتلتحق بي، لكنها لم تردّ.

وعندما دخلت ليلى إلى المكتبة، لاحظتُ أنّ ملامحها متوترة.

جلسَتْ في مكانها المعهود وشرعَتْ في القراءة...

قاطعتُها وأنا أمدُّ إليها كتابَ مارينوبولوس:

- ليلى، انظري إلى غلاف هذا الكتاب واقرئي لي عنوانَهُ.

- **يَلِدْنَ ولسنَ حوامل: إنكار الحمل.**

- أتعرفين ما معنى الإنكار؟

انهارت ليلى باكيةً...

- لكنني لا أريدُ أن أكون حاملاً! لا أستطيعُ أن أكون حاملاً! لا نملك نقوداً. نعيشُ في حجرة وحيدة، ملاصقة للماعز. مارتان لا يريدُ رضيعاً!

أخذتُ الفتاةَ بين ذراعيَّ.

- ليلى، جميلتي. اهدئي... لا جدوى من إنكار الأمور. انظري إلى بطنكِ.

لمستُ جسدها بيدي وأخذتُ أداعبُ بطنها، ثم أمسكتُ بيدها لتشاركني فعل المداعبة.

- يوجد طفلٌ في هذا البطن. فات أوانُ التفكير في عدم استقباله في هذا العالم، لكن لم يفت أوانُ أن تُحبّيهِ. كيف تعرفين أن مارتان لا يريد رضيعاً؟

- لأن ذلك مستحيل...

- لكن، هل أخبركِ أنه لا يريد رضيعاً؟

- لا، لم يقُل لي شيئاً.

- أتذكرين كيف كنتِ تُحدِّثينني عن الحبِّ الذي كنتِ تُكِنِّينَهُ لأبيكِ عندما كان يأخذكِ إلى الواحة لاكتشاف الطيور، أو لمتابعة نموّ البراعم، أو جني التمور؟ الوليد ليس هدية رائعة تمنحها الحياةُ للأمِّ فحسب، بل إنه هدية كذلك للأب! ألا تعتقدين أنه قد حان الأوانُ لتُقدِّمي هذه الهديّةَ لحبيبكِ؟

كانت ليلى تُرخي دموعاً ثقيلة ترسم خدوداً لامعةً فوق بشرتها السمراء، وتتلقَّفُها بلسانها وتبلعها عندما كانت تصل إلى شفتيها.

- لستُ أدري. ربما تكونين على حق.

- أنا بالتأكيد على حق! أتخافين من مارتان بعض الشيء؟ أيكون عنيفاً في بعض الأحيان؟

- آه لا! أبداً! إنه ولدٌ بالغ اللطف!

- إذاً، أنت لستِ في حاجة إلى أن أرافقكِ لأُخبِرَهُ بالأمر؟

- لا، لكن هل أنتِ واثقة من أني حامل؟

- أجل، وأنتِ أيضاً. ألا يتحرّكُ الجنينُ أحياناً؟

ابتسمَتْ ليلى ابتسامتَها الأولى في ذلك اليوم.

- بلى. أظنُّ أنه يتحرك في هذه اللحظة. لكنها المرة الأولى!

- المرة الأولى التي تسمعينه فيها من دون شك... لكن لا بد أنه قد مرَّ عليه حينٌ وهو يرسل إليكِ الإشارات راجياً أن تُجيبيه...

وضعت ليلى يدها فوق بطنها، متابِعةً رِجْلاً صغيرة أو يداً بالغة الصغر، تستمرئ تلك المداعبة...

في يوم السبت الموالي، لم تكن ليلى وحدها في السوق. كان يرافقها شابٌّ وسيمٌ أسمر.

فهمتُ مباشرة أنّ العاشقين قد تحدَّثَ بعضُهما إلى بعض.

- صباح الخير، ليلى!

- صباح الخير، ناتالي، أُقَدِّمُ لكِ مارتان.

- نهارَكَ سعيد مارتان، أنا مسرورة للتعرف إليك.

- نهارك أسعد، أنا أيضاً سعيد لمعرفتك. ليلى لديها ما تُخبرُكِ به.

- نعم، كنا نريد أن نخبركِ أننا ننتظرُ طفلاً. ستكون الولادةُ بعد شهرين. نحن في غاية السعادة. جاء مارتان للتسوّق معي لأنه لا يريد أن أُرهِقَ نفسي. لا نعرف بعد أين سأضعُ مولودي. ربما في سكن الرعاة مع الماعز!

- أتعلمين، يوجد رجال عظماء وُلدوا في الإسطبل!

ابتسم مارتان وليلى.

- لديَّ أمرٌ آخر أقولُهُ لكِ، أو على الأصح أقرأُهُ عليكِ...

أخرجت ليلى كتاباً صغيراً، وشرعت تقرأ:

- «النار في الموقد، لكن الريح خنقت المدخنةَ وتنفخُ موسيقاها بالدخان، والأرمدة المتطايرة، وتمحقُ اللهب».

كانت تلك الجملة الأولى من كتاب **استعادة**، رواية جيونو التي أهديتُها إياها.

لا أدري أيّنا نحن الاثنتين كانت الأكثر تأثّراً.

ازداد نُووِي شهراً بعد ذلك.

جاء مارتان وليلى ليُقَدِّماهُ إليَّ، ويسألاني إن كنتُ أوافقُ أن أكون عرّابةَ الطفل.

تأثّرتُ كثيراً لطلبهما. لم تكن علاقاتي مع إيليز سهلة دائماً، فكنتُ سعيدة أن تمحضني الثقةَ امرأةٌ شابّةٌ من نفس عمر ابنتي تقريباً.

قبلتُ الاقتراح إذاً!

كان ذلك أياماً قليلة قبل مجيء إيليز لقضاء عطلة نهاية أسبوع في البيت.

عندما وصلَتْ ابنتي، حكيتُ لها قصة ليلى. لا أدري إن كنتُ قد خانني التوفيق في العبارة، غير أنّ إيليز صوّبت إليّ ملاحظات ساخرة حول سلوكي الذي شبّهَتْهُ بسلوك سان برنار الذي يُنقذُ العالمَ ليُقام له نصبٌ تمجيداً لشخصه.

جرحني كلامُها.

كيف لها أن تظنَّ ذلك بي؟

كانت إيليز تُصدر حقائقَها من قمة سنواتها العشرين، ولم يكن يوجد من فضاء للحوار معها سوى بالمواجهة في ميدان الصراع. ولم

أكُن أريدُ أن يحدث ذلك بيننا في ذينك اليومين اللذين تقضيهما بيننا، فأسررتُ في نفسي غضبي من أن أُفْهَمَ ذلك الفهمَ الظالم.

كان ناثان قد لاحظ أنني قد جُرِحتُ، لكنه لم يُثر الكلام عن ذلك الحوار إلّا عندما خلونا بعضُنا إلى بعض.

- لماذا تشعرين بالحاجة إلى أن تُحدِّثي إيليز عن ليلى؟

- لأنني سعيدة بالثقة التي أولتْني إياها هذه الفتاة عندما اختارتني عرّابةً.

- وإذاً، ما هي الرسالة التي تُمَرِّرينَها إلى ابنتكِ؟

- لا أُمَرِّرُ أية رسالة. أحكي لها حياتي فحسب.

- هذا هو... ألا تعتقدين أنكِ تقولين لها أيضاً: «أرأيتِ يا إيليز، توجد فتياتٌ لا يرفضنني، بل على العكس، يتمسّكن بي ويشعرنَ بالتقدير نحوي»، وضمنياً تقولين لها: «الغلطُ منكِ أنتِ، فالأخرياتُ يرينَ أنني جيدة جدّاً».

- ليس ذاك ما أردتُ أن أصنع.

- بطريقة واعية ربما...

- ماذا إذاً؟ ينبغي ألّا أحكيَ لإيليز الأمورَ المهمة في حياتي؟

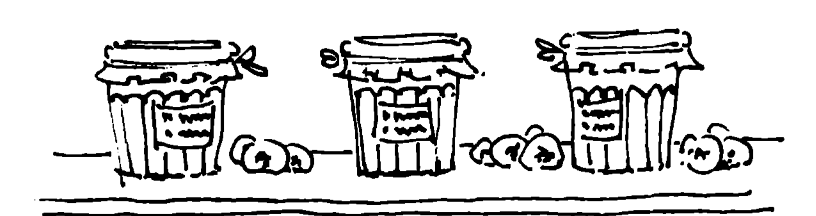
- أنتِ تفهمين جيداً ما أقصده... عندما تُصابُ علاقةٌ بين اثنين بالعطب، فإن كلَّ شيء يمكن أن يُؤَوَّلَ بشكل سيّئ، لأن الكلام يصير لا يُحملُ على ما هو في ذاته فقط، بل يُنصَتُ إليه من أول كلمة باعتباره صكَّ اتهام.

- هذا ظلمٌ!

- بالتأكيد. لكن الأمر لا يرتبطُ بالعدل في العلاقة بين أمٍّ وابنتها، بل إنها قصة حبّ... أحياناً يكون الحبُّ ليس أن نقول بعض الكلمات، ولكن أن نمتنعَ عن قول بعضها.

- لم أتعلّم هذا، أنا أحبُّ العلاقات الحقيقية.

- إذاً، إن اخترتِ أن تلعبي بهذه الطريقة، فانتظري منها أن تُصوِّبَ إليكِ كرةً لا تستطيعين ردَّها.



باستيان

الرسولُ الصّامتُ



أُدرِكُ أنَّ طاقتي كثيراً ما تتغيّرُ وفق ما يحيطُ بي. فأنا أتشرَّبُ، مثل إسفنج، مزاجَ أقربائي حين يروقُ أو حين يسوء. أتأثَّرُ سريعاً بالخطاب الغاضب، واللهجةِ المحتَدَّة، لكنني أيضاً أكون أوَّل من تبتسمُ وتضحكُ من دون تردّد.

أحياناً أتأسَّفُ قليلاً على افتقاري للاستقلالية والمقاومة عندما أكون واقعة تحت تأثير طاقةٍ سلبية، لكن بما أنني أستعيدُ توازني بسهولة، فإني أُفضِّلُ أن أكون سهلةَ التأثر بدل أن أنسج حولي شباكاً غليظةً أحتمي بها.

باستيان أربَكني.

لم يعرف ذلك أبداً، غير أني نادراً ما ارتبكتُ بتلك القوة بسبب حضورٍ ذكوريٍّ إلى درجة أن أشعر بهشاشتي الذاتية.

أعتقدُ أنّ كلَّ واحد منّا يملك هالةً تحيطُ بنا وترافقنا. تشبهُ قليلاً جسماً حسّاساً لكنه غير مرئيٍّ، يستقبل النداءات الأولى، ويُخدَشُ باحتكاكه بالآخرين، ويُدرِكُ مداعبةَ الروح المجاورة، أو ظلّها.

كنتُ مع هيلين عندما دخل باستيان.

شرع يتجوّل، من دون أن يبحث عن شيء حقيقةً، ينتظر أن أفرغَ من حديثي مع هيلين فحسب.

اخترقتني رعشةٌ حتى قبل أن أنظر إليه.

كان يملكُ هشاشةَ وجه الملاكِ الغريبة.

كانت جدائلُ شعرٍ شقراء، طويلة، تنزلُ فوق كتفيه.

ويزيدُ منظرَهُ غرابةً ارتداؤهُ معطفاً طويلاً، غامق اللون، بأكمامٍ مذهَّبة مثل أكمام ضابط في البحرية.

- إيه، ناتالي، ألا تزالين معي؟

- أجل، آه، لا...

- هل تعرفين الرجلَ الذي دخل إلى المكتبة؟

- لا، لم أرهُ من قبل.

- لكنكِ غريبة. أأنتِ بخير؟

- أجل، أجل، أنا على ما يُرام.

- إذاً أخبريني، فأثَرُهُ واضحٌ عليكِ. كأنَّهُ «كورتو مالتيسي» أشقر!

كانت هيلين على حق.

- أتريدين أن أبقى معكِ؟

- لا، لا، ماذا تخشين أن يحدث لي؟

- لستُ أدري. لكن قد يحدث لكِ أيُّ شيء تقريباً، بالنظر إلى ما أصبحتِ عليه منذ وصوله.

عادت هيلين لبيع الملابس وتركتني وحدي. أقصد في مواجهة الزبون الجديد.

- نهاركِ سعيد. لاحظتُ وجود اللاصق «بوست بوكْ» فوق زجاج الواجهة. أيعني ذلك أنكم تتكفَّلون بإرسال الكتب إلى المكان الذي يُطلبُ منكم؟

- أجل، هذا صحيح. نعملُ بهذه الخدمة منذ سنتين. إنها شراكة بين نقابة الكتبيين والبريد، نحاولُ بذلك التصدي لأمازون الذي

ينافسنا أشدَّ المنافسة. إذا كان عنوان المرسَل إليه داخل فرنسا فإنّ الكتاب يصل صاحبَه في غضون 24 ساعة؛ وإذا كان داخل أوروبا ففي 48 ساعة، أمّا إلى باقي العالم ففي 72 ساعة.

- إنه إرسال داخل فرنسا.

- طيّب. هل تعرف ما هو الكتاب الذي تريد إرسالَهُ؟

- أجل: **الرجل الذي كان يغرسُ الأشجار** (*L'Homme qui plantait des arbres*) لجيونو (Giono).

- يوجد هذا الكتاب في طبعاتٍ متعدِّدة؛ إحداها ترافقُها رسومٌ توضيحية مقصوصة تُشكِّلُ خيالاتٍ عند فتح الصفحات.

- لا، أريد الطبعة الأكثر كلاسيكية.

ذهبتُ لأبحث عن ذلك الكتاب الصغير في الرفوف. كانت رجلاي لا تكادان تحملاني كأنها صُنعت من قطن، وأشعرُ أني يمكن أن يُغمى عليَّ وأفقد الوعيَ في أيّة لحظة. «لكن، ما الذي يحدثُ لي؟»، تساءلتُ. لم يسبق لي أن غمرني إحساسٌ بالطّفو مثل هذا.

الرجل الذي كان يغرسُ الأشجار، كان هو أول كتاب أهداهُ لي ناثان.

إنّ قصة إلزيار بوفييه (Elzéard Bouffier) أمثولةٌ حقيقية تدعو كلَّ واحد إلى الشروع في تغيير العالم الذي تطوله يداه، وألا يُبرِّرَ القعودَ عن الفعل بانتظار القرارات الكوكبية الكبرى.

- هذه بطاقة يمكنك أن تكتب فوقها نصّاً صغيراً سيرافق الكتاب.

- لا داعي لذلك. أيمكنني أن أُملي عليكِ العنوان؟

- أجل، أكيد.

- «يان كيرميزين - ميزون دو لا كلاري - 05230 نيڤاش».

- هذا اسمٌ بريطانيّ قحّ...

- أجل، لكنه يقطُنُ في جبال الألب.

منذ أن دخل الرجلُ إلى المكتبة لم تتغيّر قسماتُ وجهه. لم يكن يبتسم، لكنه أيضاً، لم يكن كريهاً. كان يبدو عليه نوعٌ من الكآبة. ولا يبدو شخصُهُ حاضراً كلَّ الحضور، يُحدِّثُني بأدبٍ، لكنه لا يهتمُّ بي أكثر ممّا قد يهتمُّ المرءُ بكُتْبِيّةٍ اشترى منها كتاباً...

أما أنا فقد عشتُ تلك اللحظات بشكلٍ بالغ الاختلاف، لأنني بعد انصرافه، احتفظتُ مدةً طويلةً بانطباع أني قد فقدتُ بوصلتي.

عاد باستيان بانتظامِ البندول، مرةً كلَّ ثلاثة أسابيع.

وعند كلِّ مرة كنتُ أشعرُ بالارتباك نفسه. وأخذتُ أعتاد الأمرَ كذلك، مثلما يُدَجَّنُ حيوانٌ متوحشٌ يبدأ بالنفور منك قبل أن يقبل بحضوركَ.

وما كان يزيدني حيرةً، هو أن الشّابَّ كان يسلكُ دروبَ آثار أدبية مطابقة لدروبي، ويبعثُ إلى جبال الألب، بصفة مجهولة، كتباً تنتمي كلُّها إلى مكتبتي المثالية. فبعد كتاب جيونو، **والرَّجل-الفرَح** (*L'Homme-joie*) لبوبان (Bobin)، **والحبشيّ** (*L'Abyssin*) لروفان (Rufin)، كان قد طلب مني أن أرسل كتاب حرير (*Soie*) لباريكو (Baricco).

وكان الكتاب الأخير قد حصل على صدى طيّب في المنطقة لأنّ كل ما يتعلق بمربّي دودة القزِّ، وبتربيتها، يدخل ضمن التراث الثقافي والتاريخي لسكان الغارد.

وكان باريكو قد نسج من حريرٍ علاقةَ حبٍّ، مستحيلة ورقيقة، بين أرديشيٍّ وشابة يابانية.

قرّرتُ أن أنطلق...

- عذراً، لكنني حائرةٌ بعض الشيء، لأن الكتب التي تختارها تبدو كأنها خارجةٌ لتوِّها من مكتبتي الشخصية. أيمكنُكَ أن تزيدني تنويراً حول ما يقود اختياراتك؟

- أجل، يرتبط الأمرُ بأسباب شديدة التباين. بصفة عامة، أجدُ أنَّ بوبان يُعبِّرُ بكلمات بسيطة عن أفكار رائعة. لقد أدركَ قبلي بمدة طويلة أنَّ ما هو مُعَقَّدٌ لا يحقِّقُ السعادةَ أبداً. ويدعو، على العكس من ذلك، إلى أن ننظر إلى تحليق طير سنونو، أو إلى طفل يذهبُ إلى المدرسة، باعتبارها حكايةً فريدةً ومقدَّسة. نقلتني روايةُ الحبشيّ إلى فترة كنت أودُّ لو أني عشتُ فيها، لأن الإنسان كان في ذروةِ تاريخه، يعتقد بوجود عالم من دون حدود، حيث تتمخَّضُ كلُّ رحلةٍ عن اكتشافاتٍ جديدة. أما باريكو فهو بدوره كتاب رحلة، ليست رحلة نحو اليابان فحسب، بل هي كذلك رحلة داخل حبكة العواطف الحسّية. من أجمل ما أعرف من قصص الحب. ما هو اسمكِ؟

- ناتالي.

- أنا، اسمي باستيان...

كان الرجلُ يعرف كيف يبتسم. لأول مرة!

لم أجرؤ أن أطيل الحديثَ. فقد كانت تلك الكلمات القليلة المتبادلة تمنحني الإحساسَ بأني على بُعد خطواتٍ من شفا هاويةٍ...

كاد باستيان يحتكُّ بي وهو ينصرفُ من باب المكتبة. أغمضتُ عينيَّ، عندما غمرني عطرُهُ. كان عطرَ عنبر، ممزوجاً برائحة حمضياتٍ، ذا طابع شرقيٍّ قويٍّ، يكاد يكون أنثوياً في الواقع.

حنقتُ حينئذٍ على ذلك الخجل الذي استبدَّ بي، ولم يكن من عادتي.

لم أُحدِّث أبداً ناثان عن باستيان.

مُذنبة. كنتُ مذنبة منذ اليوم الأول. مذنبة لأني انجذبتُ لرجل آخر غير زوجي.

على أيِّ وجهٍ خُلِقنا لنكون قادرين على أن نقضي عقوداً من الزمن نتقدَّمُ بتوازن فوق صراط الحبِّ، حتى إذا هبّتْ مجردُ نسمة رجّت الكلَّ وتكاد تنسفُهُ.

لم يكن ناثان رفيقَ قراءة لي أبداً. وأحياناً أشتاقُ إلى ذلك الإحساس، فليس أقوى من ذلك الرابط الذي ينشأ بين قارئين، تجمع بينهما عاطفةُ الكتاب نفسه. يصير الكتاب عندئذٍ الوسيطَ الذي يسمح لنا بأن نعرف الآخر وأن يعرِفنا الآخر بشكل أفضل، وقد عرَّتْنا الكلماتُ التي اشتركنا في قراءتها.

مذنبة...

بأيِّ أمر أذنبتُ؟ أنكون مذنبين حتى عندما لا يتكلم الجسدُ؟ أنكون مذنبين حتى عندما نستغرق في وحدة عاطفةٍ لا تصلُ إلى الطرف الآخر المقصود بها؟

وكنتُ أيضاً عاجزةً عن أن أُحدِّثَ هيلين بما يحدثُ.

كانت قد انتبهت إلى انتظام الزيارات، لكنها عدلت عن السؤال بعد أن أخبرتُها أني لا أعرفُ شيئاً عن ذلك الرجل، وأن لا شيء يمكن أن يُقال لا عني، ولا عنه، كأن ما بيننا أرضٌ حرامٌ خالية من المعنى.

كنتُ أعرفُ أن باستيان لن يتأخر في العودة... مرَّ على آخر زيارة له ثلاثة أسابيع تقريباً.

أُرسِلَ كتابُ **جمالُ العالم** (*La Beauté du monde*) لميشيل لوبري (Michel Le Bris) إلى جبال الألب.

- هذا أيضاً أحببْتِهِ؟ سألني باستيان.

- بالتأكيد! أنا على يقين أننا يتوجب علينا أن نوازن ما بين نصيبنا من التوحش الذي نغالي في خنقه، وبين الحداثة التي تحكمنا جميعاً بالشفرات نفسها، في السلوك، والطعام، واللباس... كان لهذا الكتاب الفضل في اكتشافي كينيا التي سافرتُ إليها بعد ذلك رفقة زوجي.

تساءلتُ إن كان الاحمرارُ قد علا وجهي عندما ذكرتُ ناثان.

عندما لفظتُ كلمة «زوجي»، أحسستُ كأني أُشْرِكُ ناثان في حفل لتبادل الأزواج. كان الأمر سخيفاً.

لم يكن يبدو أن باستيان قد لاحظ أيَّ شيء من كلّ ذلك.

كان في البعيد.

أين؟

لم أكن أريد أن أعرف أيَّ شيء، ولا أن أسأل عن أي شيء، غير أني كنتُ أعلمُ أنه لم يكن معي.

بعد ذلك بثلاثة أسابيع، كان دور كتاب **صحراء** (*Désert*) للوكليزيو (Le Clézio) أن يسلك طريق جبال الألب.

كانت قراءتي لذلك الكتاب قد أفعمتني بالحماس.

يحكي لوكليزيو في ذلك الكتاب بإتقان، كيف أننا نحتفظُ، على الرغم من كل ما يمكن أن يحدث لنا، بفضاءات للحرية، وبنيران تتوهَّجُ، نحلمُ دائماً بالعودة إليها.

كانت الصحراء، بالنسبة إلى لالّة، بطلتِهِ، هو ذلك الفضاء المقدس.

بالنسبة إلي، كانت شبه جزيرة كروزون، في بريطانيا. ما دامت كروزون موجودة فسيكون لديَّ دائماً مأوى ألجأ إليه، قبالة المحيط، وسط أراضي الخلنج الرملية.

عندما أكون في كروزون تمَّحي شكوايَ، وتلتئم جروحي.

أشعر كأن ليس جسدي الفيزيقي الذي يتأثر ويُعبِّرُ، بل جسد غامض، منفصل عن لحمي، ويلفُّني ويتآلفُ مع العناصر.

أنتمي إلى تلك الأرض المنعزلة حيث يشكّل الريح والبحر ضفّتي الداخلية مثلما يشكِّلان الأجرافَ المحشوَّةَ بالزبد.

أنا منها. أصيرُ تلك الصخرةَ الجرانيتية ذات الشكل المستدير، وتتخذ نظرتي انعكاس الخلنج الأحمر، ويستثير الملحُ حواسي عندما أُمَرِّرُ لساني فوق طرف شفتي.

أشعرُ أني أقبضُ على معنى الخلود.

أرجو لكلّ واحد أن يعثر على قطعةٍ بين الأرض والسماء تصير مأواهُ، مكان بالغ القوة حيث تنبثق الحياةُ على الرغم من كلّ شيء وتُمزِّقُ ثيابَكَ حزناً ومرارةً.

لم أسأل باستيان لأعرف ما هو مأواه. سؤال شديد الخصوصية...

غير أني سألتُهُ إن كان قد قرأ **الأفريقي** (*L'Africain*) للوكليزيو.

- أجل، قرأتُهُ. لم أحبَّهُ.

- حقيقة! هذا أمرٌ يُطَمئنُ. فأذواقُنا ليست متطابقة كلَّ التطابق. أنا كنتُ أتمنى أن أكون كاتبة فقط لأتمكَّنَ من أن أقول للعالم أجمع ما أكِنُّهُ لأبي من عظيم الإعجاب.

لم يردَّ باستيان على كلامي. وخامرني إحساسٌ أني قد ارتكبتُ هفوة.

بعد ذلك بأيام معدودة، أُعيد إليَّ كتاب **صحراء** مرفقاً بكلمة تقول «لا يقطن في العنوان المذكور».

ضايقني الأمر.

راجعتُ قوائمي، لأتأكَّد من أني لم أُخطئ في العنوان، لكن الكتب الثمانية الأخرى كانت قد أُرسِلت بالفعل إلى العنوان نفسه.

وقلتُ لنفسي، وأنا أراجعُ عناوين الكتب، إن جميع القصص المختارة من لدن باستيان كانت حكايات رائعة. ولم يكن حزنُهُ الرقيقُ يشبهُ تلك الباقة من الكتب التي كانت إيجابية بشكل مقصود ومنفتحة على العالم.

ولم يكن بين يديَّ أيُّ وسيلة لإخباره بالأمر بما أنني لم أكن أملكُ أيَّ معلومات عنه.

سيتوجب عليَّ أن أنتظر أسبوعين...

طردتُ من ذهني فكرة غريبة: سيتوقف باستيان عن زيارة المكتبة إن لم يعُد بحاجة إلى إرسال كتب.

طرأ باستيان على حياتي مع بداية الخريف، وكنتُ أظنُّ أنه سيختفي منها مع أول أيام الصيف.

بعض الناس ينتظر الصيف كأنه الفصل الوحيد الذي يستحق أن يُعاش.

يحمل الصيفُ جميعَ آمال اللقاءات العائلية، والحفلات رفقة الأصدقاء، والأيام الطويلة، والعطل في مختلف أصقاع فرنسا أو العالم، فيكتسي طعمَ عصيرٍ مُرَكَّزٍ مفعَم بالفيتامينات.

تُراجَعُ دلائلُ الأسفار طولَ العام، وتُسفِرُ الاستشاراتُ الأُسريةُ عن نقاشات عديدة: ماذا سنصنع هذا الصيف؟ إلى أين سنذهب؟ رفقة من؟

ثم يصلُ الموعدُ المنتظَرُ، فنجتهدُ في أن نُدْرِجَ في برنامج عطلة الصيف الوالدين اللذين لا بد من زيارتهما، والأختَ التي يجب أن نعرِّج على بريطانيا لزيارتها وإن كنا نعلم أننا لن نستطيع أن نتحمَّلَ زوجَها أكثر من ثلاثة أيام، وحفلَ زفاف أبناء العمومة في منطقة الدروم، ولكن أيضاً حفل عيد الميلاد الخمسين للصديقة الفضلى التي تعيش في بلاد الباسك. يشبه الصيفُ عندئذٍ سيارةً في الطريق السيّار بالجنوب، تغمرها العواماتُ، والدراجاتُ، وأحذيةُ رياضة المشي، ولكن أيضاً ملابسُ الرقص في حفل زفاف أبناء العمومة...

كم قضينا من رحلة مع ناثان على متن تلك السيارة المُكَدَّسة وهي تطوي بنا المسافات في الطريق السيّار بالجنوب.

كانت فصول الصيف تبدو لنا شديدة القِصر، ما أن تبدأ حتى تصل نهايتها سريعاً.

وكان يكفي أن تسوء أحوالُ الطقس، أو أن يكون أخو الزوج أو الزوجة شديد الثقل، أو أن يوجد البيتُ المُكتَرى في منطقة الدروم قريباً من محطة بنزين، ليُخَلِّفَ الصيفُ في النفوس مذاقاً مريراً.

منذ أن تركنا باريس، لا نزال نحب الصيف بطبيعة الحال، لأنه الفصل الذي نستقبل فيه جميعَ الذين يأتون لزيارتنا، ويغمرنا جوُّ العطلة البهيج، حتى عندما نكون لا نزال نعمل. لكننا نحبُّ أيضاً الفصول الثلاثة الأخرى.

حرارةُ الغارد جافّةٌ وأحياناً لا تكفي تلك الدرجاتُ القليلةُ التي تنزل في الليل أن تُلطِّفَ من حرارة الجو. يعاني ناثان بعض الشيء في تلك الفترات ولا يحلم سوى بالهروب إلى كرزون حيث يستطيع أن يظلَّ يعمل النهارَ كلَّه.

أما هنا، فإنه مضطرٌّ لأن يبقى محتمياً بمصاريع النوافذ المقفَلَة بإحكام في أثناء أكثر ساعات النهار حرارة.

أما أنا فإني أحبُّ الحرارة. ما أن أجدني في البيت حتى أتخلَّص من كل حذاء، وأكتفي بفساتين خفيفة، وقد عقدتُ شعري إلى الخلف بواسطة عقيصة فوضوية.

وأحب أن أنام لا ألتحف سوى غطاء بسيط، تحت نوافذ مشرعة، أسمع البومةَ توقِّعُ صمتَ الليل بصيحاتها المنتظمة، والريح تُداعبُ شجر المَيْس، وساقية الحوض تملأ فضاءَ الساحة.

ما ألطف تلك الليالي...

أنا ممدَّدَةٌ فوق السرير، رأسي مائلٌ إلى اليسار، وعيناي شبه مغمضتين. واللحاف الذي كان يغطي جسدي ملقى فوق الأرض أسفل السرير.

ينظر إليَّ الرجلُ.

أتجاهلُ نظرتَهُ.

يدنو الرجلُ من السرير ويتمدَّدُ إلى جانبي من دون أن يلمسني.

ينظر إليَّ بإصرار. نظرتُهُ رقيقةٌ ويبدو أنها تتفرَّسُ بتدقيق ملامحَ جسدي.

أفتحُ عينيَّ... باستيان...

أستيقظُ. أسمعُ تنفّسَ ناثان الذي ينام إلى جانبي.

أشعر بالحرارة. حرارة حلم مُحَرَّم.

أخرجُ إلى الشرفة. يصير الليل أزرق، كعهده في أواخر ليالي الصيف.

وقريباً ستحمَرُّ السماءُ من قُبلة شفتَيّ النهار.

أبقى مع الليل؛ مع حلمي.

أُحلِّلُ المحرَّمَ، في الحلم فحسب. حلم، مجرّد حلم في ليلة صيف...

يعود باستيان ذات سبتٍ صباحاً. في خضم يوم سوق. المكتبة مزدحمة. وكان ناثان قد جاء ليساعدني دأبَهُ في أغلب أيام السبت الصيفية.

عند وصول باستيان، خلتُ فجأةً أن دماغي قد صار عارياً مفتوحاً على السماء، حيث يستطيع ناثان أن يقرأ جميع أفكاري.

لكن الأمر لم يكن كذلك. ناثان إنسان صادق وبسيط، يؤمن أنّ العالم صادق وبسيط. إنه متفائل كبير، وهو أمر مصدر اطمئنان له ولمن يعيشون معه.

تركتُ ناثان يديرُ صندوق الأداء وابتعدتُ لأتحدَّثَ مع باستيان:

- وقع مشكلٌ. لقد أُرجِعَ إليَّ كتابُكَ مُرفقاً بكلمة تقول «لا يقطن في العنوان المذكور».

رأيتُ باستيان يصير شاحباً.

- أنتِ متأكدة من صحة العنوان؟

- يقيناً.

كان باستيان بادي الاضطراب. ودَّعني وانصرفَ من دون أي تفسير.

لم أعرف ما أصنع.

لم أكن لأجريَ خلفهُ وأتركَ ناثان وحده من دون أن أخبره بأي شيء. ثم كيف كان لي أن أُفسِّر له الأمر؟

لم أتحرّك إذاً.

وجدني ناثان غائبة في أثناء عطلة نهاية الأسبوع بكاملها.

- ألديكِ مشكل، ناتالي؟

- لا، لا، كل شيء على ما يرام.

- أنتِ متأكدة؟ لستِ مريضة؟

- لا، أؤكد لك.

وكان ذلك الجواب كافياً لناثان.

بضعة أيام بعد ذلك، دخل المكتبةَ رجلٌ مُسِنٌّ، أنيقٌ، شديد بياض الشعر.

كنتُ منشغلة بخدمة زبونين، ولاحظتُ أن الرجل ينتظر من دون أن يعير اهتماماً للرفوف.

دخل زبائن آخرون منذ أن وصل، ولما حان دوره توجّهتُ نحوه.

- طاب نهارُكَ سيدي، هل لي أن أساعدكَ؟

- أُفضِّلُ أن أنتظر أن تفرغي من عملك لأحدِّثك في هدوء. اعتني إذاً بزبائنكِ.

- لكن الأمر قد يطول فالزبائن يكثرون بعد الزوال. إن كان في إمكانكَ أن تعود في السابعة مساء، لن يكون عليك أن تنتظر، وبما أنها الساعة التي أقفل فيها المكتبة سأكون خالية.

- طيّب، سأذهب لأنتظر في شرفة مقهى «تيروار». أرجو أن تعذري سلوكاً قد يبدو لكِ غريباً وسيضطرُّكِ إلى أن تؤجلي موعدَ انصرافكِ.

- لا عليك، فالأمر لا يطرح أيَّ مشكل بالنسبة إليّ.

كان الرجل مهذَّباً جدّاً. وكانت قامته شديدةَ الاستقامة على الرغم من عمره المتقدِّم، وإن كان التعب باديةً آثارُهُ على ملامح

محيّاه: تحيط بعينيه هالةٌ تميلُ إلى السواد، وتتخذ بشرةُ وجهه الجافَّة شكلَ العظام الناتئة.

كان يرتدي بدلةً من كتّان يميل إلى الصفرة، وربطة عنق على شكل فراشة، وكان قد خلع قبّعة جميلة عن رأسه عندما دخل إلى المكتبة.

عاد الرجلُ في الموعد المضروب.

- جئتُ لزيارتِكِ لأني بحاجة إلى أن تُزوِّديني بمعلومة؛ وأنتِ لستِ ملزَمةً بأن تفعلي ذلك... فأنا على وعي بغرابة ما سأطلبه منك.

- كلّي آذان صاغية.

- في أثناء الأشهر الأخيرة، توصلتُ في إقامة استراحتي بكتبٍ مصدرها من مكتبتكِ...

أدركتُ فجأةً أن الموجود أمامي هو يان كيرميزين. استمررتُ في الإنصات إليه، لكن من دون حاجة حقيقية إلى أن أسمع بقية كلامه. وبالنظر إلى الحال التي كان عليها باستيان عند زيارته الأخيرة، تصوّرتُ أن...

- ... بسبب طبيعة الكتب، فهمتُ سريعاً أنّ مَن كان يرسلها إليّ هو ابني. ابني الذي لم أرهُ منذ أربعين عاماً.

- لكن... لماذا؟ لا، اغفر لي سؤالي...

كنتُ متأثرةً، ومضطربة بعض الشيء. كثيراً ما قرأتُ في الكتب قصصاً تحكي عن التباعد بين والدٍ وولده، والألم الذي يصاحب ذلك، ثم ما يعقبُ الفراقَ من تلاقٍ غالباً ما يطرأ بعد فوات الأوان، في حال حدوثه.

يحتفظ بعضُ الناس إلى آخر لحظة بآثار دامية من حكاياتهم، تقريباً مثل المخابئ الحربية فوق شواطئ الإنزال في الحرب العالمية، أو قطع سور برلين التي تندغمُ في المشهد اليوميِّ لكنها تشي بالعنف الذي كانت شاهدة عليه.

- لا تعتذري. لقد أعدتُ قراءة حكايتي مراراً وعشتُ يوماً بعد يومٍ تحت وطأة ثقل أفعالي، إلى أن استطعتُ ذات يوم أن أسامح نفسي، وأن أضعَ عن كاهلي ثقلاً لم أكن المسؤول الوحيد عنه في نهاية الأمر. قبل أربعين سنة، كنا نعيش في أوزيس، في لوسان بالتدقيق. كنا نسكن بيت العائلة الموروث من جهة ساندرين، والدة باستيان. هجرتُ ساندرين من أجل امرأة أخرى. تانزانيةٌ التقيت بها في أثناء إنجازي روبورتاج في إفريقيا. كان باستيان في الثالثة عشرة، وأختُهُ ماتيلد في الثامنة. وكان باستيان في طور المراهقة. رماني بكلمات قاسية، ورفض أن يُكلِّمني، وأن يراني. في البداية، تفهّمتُ ردّة فعله وتقبلتُ أن أترك له ما يكفي من الوقت. لكن ساندرين انتحرت عامين بعد انفصالنا. وعندما أردتُ أن أحضر الجنازة، توجه نحوي باستيان وهو يشتمني، ويحمّلني بالمسؤولية كاملة عن موت أمه.

- وماتيلد؟

- كانت ماتيلد صغيرة. لم تقطع أبداً اتصالها بي، إلى درجة أنها التحقت بي في تنزانيا حيث أنشأْنا معاً محميةً حيوانيةً ونُزُلاً. كانت ماتيلد قرينتي.

- لماذا «كانت»؟

- لأنها ماتت هي أيضاً، منذ عشر سنوات. حادث سيارة مع شاحنة في الطريق إلى مومباسا.

- آه، يا إلهي!

سالتْ دموعٌ صامتةٌ فوق خدّي. كنتُ أتصوّرُ ألمَ ذلك الأب، لكنني كنت أفهم أيضاً ردّة فعل باستيان. عندما أُعيدَ إليَّ كتابُ لوكليزيو، اعتقد أنّ أباهُ قد مات.

- لا تبكي... ليس الأمر كله حزيناً ما دمتُ أني، بوساطتكِ، قد عثرتُ من جديد على أثر ابني الذي كنتُ أعتقد أني قد فقدتُهُ إلى الأبد. ظلَّ باستيان دائماً على تواصل مع شقيقته. كانت تعود إلى فرنسا كلَّ عامٍ وتزوره في لوسان. وكنتُ قد كتبتُ لباستيان كي يكون مثواها الأخير في مدافن العائلة في إيليزاغ، وهو اسم بيتنا في لوسان. نحن بروتستانت، وتقضي التقاليد في منطقتنا أن ندفن موتانا في المدافن الموجودة داخل بيوتنا ذاتها. وافق باستيان، بشرط ألّا أحضر مراسيم الجنازة. لا بد أنه كان يعتقد أنني لو لم أسكن في تنزانيا لما ماتت أختُهُ. أنا أحاولُ إذاً أن أرى ابني من جديد. أتعرفين، عندما يصل المرءُ إلى ما بلغتُهُ من عمر، فإنه لا يعيش من أجل ذاته، بل من أجل الآخرين. وعندما لا يكون لدينا آخرون... نمتطي آخر قطار من دون أن نلتفت. كنتُ قد اخترتُ أن أقضي آخر أيامي في هذا الوادي من منطقة الألب، الذي هو أجمل مكان عرفتُهُ. يوجد «بيت كلاري» على ضفة النهر الذي يحمل الاسم نفسَهُ. من نافذتي كنتُ أسمع ماء الجدول الدافق. أنا مصابٌ بسرطان كان من المفروض أن يُزهِقَ روحي منذ بضعة شهور. ثم وصلتني الكتبُ.

كل كتاب كان يحكي الحياة، قوةَ الحياة، وكذلك جمالَها. أعادت إليَّ الكتبُ تلك الطاقةَ التي كانت قد غادرتني، وكان أثرها أنجع من ذلك الخليط من المقويّات والأدوية التي وصفها لي الأطباء. وعند نهاية الشتاء، لم تعُد لي سوى غايةٍ واحدة: المجيء إلى هنا والعثور على باستيان. وافق صاحبُ سيارة أجرة على أن يعبر معي فرنسا. لا بد أنها كانت أفضل رحلة قام بها في حياته! كنتُ أنتظر أن أجد باستيان في إيليزاغ، لكن البيت قد أصبح في ملكية هولنديين. وهذا هو السبب الذي دفعني إلى زيارتكِ، لأنك لا بد تعرفين عنوان سكناه، أليس كذلك؟

كنتُ منهارةً. لم أكن قد طرحتُ على باستيان من الأسئلة ما يسمح لي بأن أعرف مقرَّ سكنه.

- أنا آسفة، آسفة حقيقة، لكني لا أعرف أيَّ شيء عن عنوانه. غير أننا سنعثُرُ عليه. أوزيس ليست كبيرة. أين تُقيمُ أنتَ؟

- لا أعلمُ بعد. سأذهبُ إلى فندق.

- إذاً، ستُقيم عندنا في البيت.

- لكنني لا أستطيع. هذا غير ممكن!

- ما دمنا لم نعثر على باستيان، فستُقيمُ عندنا. وهذه ليست دعوة. هو الأمر هكذا!

كان الرجل المسنُّ يبتسمُ.

كان ناثان لن يعود من تنقّله إلّا يوم الجمعة. اتصلتُ به لأخبره بما يحدث.

- لكن لم يسبق أن حدّثتِني عن باستيان هذا؟

- لا، لكنه ليس الوحيد الذي يرسل كتباً بالبريد عبر بوست بوك.

- على كل حال، هذه قصة جدّ مؤثرة. يجب العثور على ابن ذلك الرجل أينما يكن.

- شكراً، ناثان، شكراً، شكراً...

سيظل دائماً لُطْفُ ناثان أكثر شيء يشدّني إلى زوجي. يعلم ذلك أصدقاؤه، فهو إنسان تستطيع أن تعتمد عليه دائماً. دائماً هو مَن يطلبُ الذي ليس في أحسن حال، ويدعو المتعَبين إلى المجيء إلى بيتنا لقضاء بضعة أيام عطلة. وحتى المهندسون الشباب الذين يُوظِّفُهُم تربطهم به علاقةٌ طيّبةٌ ويأتون أحياناً لزيارتنا في فصل الصيف ليُقدِّموا لنا زوجاتهم وأطفالهم.

أسكنتُ يان كيرميزين في الغرفة التي تُطلُّ مباشرة على الحديقة. واقتسمتُ معه جميع الوجبات إلى أن عاد ناثان.

كان رجلاً ساحراً حقّاً. تحدّثنا كثيراً عن أسفاره ولكن أيضاً عن الكتب.

كان يحب أفريقيا حبّاً عميقاً واشتغل المصوِّر الرسميَّ لمجلة أرضٌ برّية (*Terre sauvage*) بالنسبة إلى المنطقة الجنوبية من القارة. بوتسوانا، وناميبيا، وكينيا... كان قد قضى في جميع هذه البلدان شهوراً طويلة وسط الطبيعة، لا يرافقه في غالب الأحيان سوى دليل يساعدُهُ في إعداد المخيّم في الليل، قبل أن يخرج من جديد في الفجر لتتبّع الأسود والنمور والفيلة ليلتقط أفضل المشاهد بأفضل الإضاءات.

أخبرتُهُ أن جميع الكتب التي توصَّل بها كانت أيضاً موجودة في مكتبتي الخاصة، وأنني كنت قد تفاجأتُ من كوننا أنا وابنه نتقاسمُ الأذواقَ ذاتَها. ولستُ أدري إن كان قد أدركَ أن تأثري بباستيان كان عاطفياً بقدر ما كان أدبياً.

أعتقد أني لو أنشأتُ ميتيك[1] (Meetic) من خلال الكتب، سأتمكّنُ حقيقةً من أن أنافس منصّةَ الإنترنت الشهيرة. سيكون على كلِّ واحد أن يذكر الكتبَ العشرين الأخيرة التي قرأها، وكُتُبَهُ العشرة المفضَّلَة، ولكن أيضاً تلك التي لم تُعجِبْهُ، وبذلك سيكون في الإمكان اقتراحُ أزواج على المستعملين! وبالطبع، لن ينجح الأمر إلّا مع قراء!

لاحظتُ في كثير من الأحيان أننا عندما نكتشف، في أثناء محادثة، أن صديقاً، أو صديقة يشاركنا أو تُشاركنا حبَّ الكتاب نفسه، فإن ذلك يُضفي على الحوار كثافة جديدة، كأننا قد عشنا معاً رحلة استكشافية إلى الطرف الآخر البعيد من العالم.

عندما أجدني في حفل عشاء يجمعني بغرباء لأول مرة، فإنني أحاول دائماً أن أخرجَ من حديث المجاملة بأن أسأل الحاضرين عن آخر قراءاتهم. فتنشأ عندئذٍ أحاديث ثنائية أو ثلاثية بين قراء كتاب بعينه، ويتخطى جوُّ العشاء بذلك مجالَ التفاهات.

وعندما ألتقي من جديد بشخص أعلمُ أننا تشاركنا من قبل حبَّ كتاب معيّن، فإنني أسارعُ إلى أن أسأله بحماس عن آخر كتاب فاز بحبِّهِ.

---

(1) موقع متخصص بالتعارف للعازبين. -المترجم-

فإما أننا سننخرطُ مرةً أخرى في حديث حيويٍّ وعاطفيٍّ لأننا سنكون قد أحببناه كلانا، أو أنني سأصير فارغة الصبر لقراءته بدوري.

طلب مني يان أن أصفَ ابنه، وعندما أطلعني على صورة له هو قديمة أخرجها من حافظة وثائقه، اندهشتُ للشبه الكبير بين الرجلين في العمر نفسه. ورأيتُ أيضاً صورةً لماتيلد، فتاة جميلة بادية الشبه بأبيها كذلك.

تحدّثنا عن بريطانيا. كان آل كيرميزين ينحدرون من «كوت-دارمور»، جهة «تريگييه». وكان يان قد وُلِدَ هناك، لكن أبويه كانا قد انتقلا إلى باريس بعد ذلك، ولم يُعتنَ أبداً بأصولهم البريطانية فيما بعد. غير أنه كان يعرف كروزون، ويدافعُ عن الساحل الغرانيتي الورديّ باعتباره ساحراً بصخوره التي يبدو أنها قد وُضعت هناك من لدن عمالقة... نقاشٌ حقيقيٌّ بين فرنسيين، كلٌّ واحد منهما مقتنعٌ أن منطقته هي الأفضل.

تُذكِّرني صخورُ «تريگورْ» بصخور «أوبراك». نشعرُ في الحالين معاً أن عملاقاً ينتعل حذاءً سحريّاً طويل الساق قد أقامَ تلك الكتلَ من الغرانيت مثل معالم الطريق.

في الحقيقة، جميع الفرنسيين على صواب: مناطقنا هي أجمل مناطق العالم!

ناثان هو من تمكّن من العثور على باستيان في يوم السبت الموالي، بينما كان ينتظر دوره أمام بائع السمك في ساحة الأعشاب.

كان ناثان يتسوّقُ، بينما كنتُ في المكتبة، حيث كان يان كيرميزينْ قد شعر بالرغبة في أن يقضي الصبيحة رفقتي، جالساً فوق كرسيٍّ صغير بجانب صندوق الأداء.

تعرّف إليه بفضل الصورة التي كانت في حوزة أبيه فحسب.

- عذراً، سيدي، أنا زوج ناتالي، الكتبيّة. هل يُزعجكَ أن ترافقني إلى المكتبة؟

- أوه... لا. هل هناك مشكل؟

- لا، الأمر مُعقَّدٌ بعض الشيء لا يمكن الحديث عنه أمام كليمان وأسماكه...

كان ناثان قد قال ذلك وهو يبتسمُ. وكان باستيان حائراً، لكنه تبعَهُ.

وعندما دخل إلى المكتبة لم يَرَ والدَهُ، ونظر نحوي بطبيعة الحال. كنتُ واقفةً أمام الصندوق، أُواري العجوز قليلاً.

تقهقرتُ عندئذٍ خطوةً وأنا أضعُ يدي على كتف يان.

تعرّفَ الأبُ في الحين على ابنه وأجهش بالبكاء.

في تلك اللحظة فحسب أدركَ باستيان ما يحدثُ.

لم يتحرّك، ناظراً بإمعان إلى ذلك الذي رفض أن يراه منذ كلّ تلك المدة، ولكنه مع ذلك أرسل إليه شهاداتٍ عاطفيةً عندما علمَ أنه يهمُّ بمغادرة هذا العالم.

سيشرح لي باستيان بعد ذلك أن موثِّق الأسرة هو مَن أخبرهُ أن والده قد عاد إلى فرنسا ليقضي بها آخر أيامه في مؤسسة طبية.

لم أكُن أستطيع أن أتخيّل ما يدور في ذهن باستيان.

كنا أنا وناثان نراقبُ الرجلين.

أراد الأبُ أن ينهضَ ليتوجّهَ نحو ابنه، لكن قواه لم تُسعفه.

اقتربَ باستيان، ومدَّ إليه يدهُ ليساعده، واحتضنه بقوة بين ذراعيه.

كان ناثان قد جاء ليقف إلى جانبي.

- ألديكِ منديل؟

كنا نحن الاثنين متأثرين كلَّ التأثر أمام مشهد التصالح ذاك.

- يجب أن أقول إنَّ مكتبتكِ تشهد أحداثاً رائعة حقّاً!

- أجل، إنه أمر رائع...

تركنا الأبَ والابنَ يتحدّثان ويحاولان أن يستعيدا كلَّ سنوات الفراق، وذهبنا إلى تناول الغداء نحن الاثنين، مشبوبة عواطفُنا بما حدث. لكن سرعان ما عاودَنا المرحُ من جديد.

بداية من فصل الربيع، يستيقظ ناثان دائماً قبلي. توقظُهُ الطيورُ. وعندما ألتحق به، يكون قد أعدَّ مائدةَ الإفطار وسخَّنَ الماء من أجل الشاي.

شرب قهوتَهُ، لكنه ينتظرني لتناول الطعام.

نحبُّ تلك اللحظة نحن الاثنان.

يشوي ناثان الخبزَ، سواء كان طريّاً أو لم يكن. فنحن ننتمي إلى جيلٍ لا يزال يرفض أن يرمي قطعة خبز لأنها يبست بعض الشيء.

الصباحُ بدايةٌ. يُهدينا إياها كلَّ يوم. يشبه الصباحُ سماءً غِبَّ مطر غزير في فصل الصيف، حيثُ تُغسَلُ السماءُ من حجاب الحَرِّ الذي كان يَغُمُّ الأفقَ ويطمسُ الألوانَ. ليس الصباح بوقت الحنين أو الندم، إنما هو وقت الرغبات والمشاريع.

نتخذُ، في الغالب، أنا وناثان، قراراتِنا الصغيرةَ والكبيرةَ، في أثناء تناولنا الفطور.

وفي ذلك الصباح، لم يكن الفطور جاهزاً، وناثان يقرأ فوق أريكة في الساحة.

في الأوقات العادية، أجده في مكتبه، منشغلاً بتصاميمه، ويُحضِّرُ للأسبوع الموالي.

كان ناثان يقرأ روايةً!

كان الأمر مفاجئاً، فهو لا يقرأ سوى الدراسات.

يرفع ناثان رأسه ويبتسم لي وهو يعرض عليّ غلافَ الكتاب: **الطريق الملكيّ** (*La Voie royale*) لأندريه مالرو (André Malraux).

- أوَّلُ كتاب أهداني إياه أبي. كنت في الرابعة عشرة. لم أقرأهُ أبداً... انظري ما كان قد كتب بداخله.

- «إلى ولدي، الذي صار كبيراً إلى درجة أني لم أعُد أجرؤ على حمله بين ذراعيَّ. بابا» هذا إهداء جميل.

- أجل. أشتاق إلى حركات الحنان من أبي. أعرف أني لا آخذُ غيوم كثيراً بين ذراعيَّ، وأتذكَّرُ اليوم الذي قلتُ فيه لنفسي إنه قد كبر ولم تعُد المداعبات تناسبه. لكن الحنان هو مفتاح صغير للسعادة اليومية. عندما تُمررين يدكِ خلال شعري، أو نسير يداً في يد، تلك حركات بسيطة لكنها تجعل الحياةَ أكثر نعومة.

- أنتَ على حق... مثلما يحدث عندما تُعِدُّ الفطور لنا نحن الاثنين.

قلتُ هذا وأنا أبتسمُ...

جلستُ فوق ركبتي ناثان.

- الأمر بيدكَ إذا كنتَ ترغبُ في أن تستعيد ابنكَ لتضمّهُ بين ذراعيك أو أن تكتب إليه كلمات رقيقة. وبالمناسبة، غداً عيدُهُ!

- أنتِ التي تكتبين لهما بمناسبة عيديهما... أنا، تعرفين جيداً أني لا أخالطُ القديسين كثيراً...

- على أي حال، لا شيء يُجبركَ أن تُعامل ابنَكَ معاملةَ أبيكَ لكَ.

- نعم، سأرسل له كتاباً. ربما هذا الكتاب بعد أن أفرغَ من قراءته.

- ستكون بادرةً جميلة. يمكن للكتب أن تكون أيضاً شواهد نتوارثُها.

- أنا، سأذهبُ لأُعِدَّ فطورَنا! وهكذا ستكون بادرتان كبيرتان في حياتنا في يوم واحد!



طارق

إخوان الكُتُب



من المُسَلَّم به بين العموم أن جيلنا جيلٌ محظوظ لأنه لم يعرف الحرب.

كثيراً ما يصدر هذا الحكمُ عن آبائنا، الذين عاشوا مباشرة أو بشكل غير مباشر، فظاعاتِ حرب 1939-1945.

فَقَدَ أبي شقيقيه في بداية الحرب. ورحل هو نفسُهُ إلى الجزائر، وشقيقُهُ الأكبر إلى الهند الصينية. رجعا منها سالمين، لكنهما ظلاَّ يحتفظان في ذاكرتهما بصدمات تلك الفترات. احتاج أبي إلى وقتٍ طويل ليتمكَّنَ من أن يحكيَ لنا مقامَهُ في الجزائر، بل إنه لم يُفلِحْ في أن يُحدِّثنا عن ذلك، فالتجأ إلى الكتابة، سارداً فترةَ الجزائر من حياته في دفتر صغير، حيث سجَّلَ بإيجاز الأحداث الكبرى في حياته. لا تمنحُ مذكراتُهُ سوى حيِّزٍ صغير للتعبير عن مشاعر تلك المرحلة، فيكتفي بعرض متوالية أحداث فحسب.

أعتقد أن مفهوم التطوّر الشخصي إنما وُلِدَ مع أبناء مايو 68. لم تكن الحياةُ الناجحةُ تعني بالنسبة إلى آبائنا، ومن دون شك بسبب معاناة آبائهم في الحرب، سوى تأسيس أسرة، وامتلاك الإمكانات المادية للعيش والسفر لقضاء العطلة، وتناول من الطعام ما يضمنُ عدم التعرّض للجوع أبداً.

أما اليوم، فإنّ البُعد الماديَّ قد انتقلَ إلى المرتبة الثانية، ولم تعُد مسألة التغذية تطرح نفسَها بالطريقة نفسها في بلد غربيٍّ، حيث

الرهان قد صار في الأكل «الجيّد»، ولم يعد في مجرد الحصول على ما يكفي من الطعام، ويوجد الكثير من الناس الذين تحرّروا من فكرة الأسرة، التي لم تعُد تُعتبر شرطاً لا مَحيد عنه للنجاح.

صار تطوير الذات الشخصية هو الشغل الشاغل، وأحياناً يكون ذلك على حساب الجماعة. أما أنا فإني أؤمنُ بضرورة إيجاد التوازن المناسب بين الغيرية وتطوير الذات.

لم نعرف شيئاً عن حروبه الداخلية، وعن الأحزان التي عاشها عند موت شقيقيه.

اليومَ، وقد عرفنا علمَ النفس، فقد وقعنا في المنهج المعكوس. كلُّ شعور يُفَكَّكُ، ويُحلَّلُ، ويُحلَّلُ تحليلاً نفسياً؛ ليس ما نعيشه من مشاعر فحسب، بل كذلك ما نحلم به، وما نأكلُهُ، كلُّ شيء صار مادةً للتشريح السيكولوجي.

يوجد أمرٌ ما، خطيرٌ أحياناً، في تلك الإرادة التي تسعى إلى أن تفهم كلَّ شيء.

فسرطان جارتي سيكون مرتبطاً بكونها تحمّلتْ كثيراً من دون أن تُعبِّرَ عن معاناتها لزوجٍ كان مستبدّاً بعض الشيء؛ وألَمُ ظَهر الصيدليِّ يعود للضغط الذي تمارسهُ عليه الضرائبُ، وحَبُّ الشباب في وجه إيليز يرجع إلى العلاقات الصعبة التي تجمعها بي!

إرادةُ فهم كلِّ شيء تُترجِمُ أيضاً إرادةَ التحكّم في كل شيء، ورعباً من المجهول، وإرادةَ القوة التي لا تترك سوى مساحةٍ قليلةٍ للبُعد الروحي، واللغزِ، وللّذي يأتي لأنه يأتي...

«مكتوب»، يقول المغاربة وهم يتحدثون عن القدر. أمرٌ ما كُتِبَ بعيداً عنّا ويجبُ علينا أن نقبل أن نكون من أجله المدادَ فحسب وليس الريشة...

وهذا لا يعني أننا مُعفون من المسؤولية، ولكنه يُحرِّرُنا من مطلب ضرورة النجاح في حياتنا وفق شبكة معايير مفروضة ستكون متطابقة بالنسبة إلى الجميع.

الرضا بوجود قسم من حياتي لا أتحكَّمُ فيه لا يقلُّ أهمية عن معرفة كيف أجعلُ إرادتي فاعلةً لأحصل على ما أريده حقّاً. ويكون الأمرُ أحياناً مُريحاً لو اكتفينا بأن نقول: «مكتوبٌ، كان الأمرُ قدراً، دعكَ تُسيَّرُ بعض الشيء...».

لا أعرف ما نوع الحرب التي نعيشها حالياً، لكن الأكيد هو أن أبناءنا إنما يعيشون في عالم عنيف. وأنا واعية أنّ حياتي قد كانت أكثر يُسراً من حياتهم.

لقد تعلّم هؤلاء الصغار الحُبَّ مع السِّيدا، ودرسوا من دون أن يعرفوا إن كانت سنوات الدراسة ستقودهم إلى العمل، وخلّفوا أطفالاً والأرضُ قد صارت رهينة أخطار البيئة.

أنا وناثان، نحاول أن نجعل من بيت أوزيس مسكناً هادئاً لولدينا، مثل قوسين يسمحان لهما بأن يحطّا رحالهما عندنا بعضَ الوقت، قبل أن يرحلا من جديد وهما يعلمان علم اليقين أننا سنكون دائماً حاضرين إذا ما وقعت العاصفة.

أستبعد الأخبار السيئة. أتجنَّبُ حقنَ إيليز بالحديث عن مخاطر سرطان الثدي، وغيوم بالسلوكات الخطيرة، والاثنين بمشكل الكحول

عند الشباب. أعلمُ أنهما يعرفان كلَّ ذلك، ويعرفانه جيداً، وأن شبكات التواصل الاجتماعي سبّاقة إلى تداول الأخبار السيئة في العالم، ونادراً ما تتداول الأخبار الطيبة...

تكفي ساعات قليلة ليستعرضا فوق الشاشة الأبَ الذي يبكي كاملَ أسرته الهالكة في أمواج تسونامي؛ والطفلَ من دون ذراعين، تائه العينين بعد رمية صاروخ في سوريا؛ واللّاجئين الصوماليين الذين انقلب قاربُهم في عرض جزيرة لامبيدوزا...

أحياناً أشعر بالخوف. أفهم الذين يُقرِّرون هجرة كلِّ شيء والسفر إلى أقصى أصقاع كندا، أو السافانا في أفريقيا، أو فوق إحدى جزر الماركيز.

أعتقد أن الأمهات أكثر حساسية تجاه هذه الأمور من الآباء. فهؤلاء لا يزالون يحتفظون بذاكرة جينية تعود للقنّاصين الملتقطين، المستعدين للتنقل من أجل القتال والحصول على ما يُطعمون به أهلهم. ونحن اللواتي يُنجبن، اللواتي يستقبلن أولى نظرات الطفل الوليد وهو لا يزال مضطرباً جراء تنفّسه الأول، واللواتي يُشفقن من أن يعشن إلى أن يتلقَّينَ آخر أنفاسه.

هل ستستطيعُ إيليز أن تنظر إلى رضيعها وأن تقول له: «مرحباً حبيبي، ثِقْ بي، الحياة جميلة ولا تنتظر إلاّكَ!».

أودُّ أن يكون الأمر كذلك. أفعل كلَّ ما يجب كي يكون الأمر كذلك.

أجتهدُ في أن أجعلهما يفهمان أن المرء يمكن أن يكون سعيداً في حياته الخاصة، وأن يبنيَ مشاريعه ويبتهج رفقة من يُحب، من دون

أن يشعر بالذنب بسبب الذين يعيشون ظروفاً صعبة. فسعادة البعض لا تزيد من خطورة وضع أولئك الذين يعانون. غير أنني أعتقد أن من المهم أن يعيش المرء وهو يعي الحظ الذي يتمتع به في أفراحه، وفي تعدد الإمكانات المتاحة أمامه، بينما آخرون لا يجدون أمامهم سوى طريق واحد يسلكونه، حفاةً أحياناً، وآمالُ حياتهم جد محدودة تحت ضغط الأمراض، أو المجاعات، أو الحروب التي هي واقعٌ يوميٌّ في البلد حيث يعيشون.

أعلمُ على كلّ حال أنّ عبارة «المجيء إلى العالم» لم يسبق لها أن كانت أشدَّ ملاءمة من الآن. أبناؤنا هم «من العالم»! يتوالى العالمُ فوق شاشاتهم، والبرنامج الجامعيُّ «إيراسموس» يدعوهم إلى تجاوز الحدود، وأصدقاؤهم أميركيون، أو صينيون، أو سويديون. قد تكون الأرض، بفضل هذا، لا تزال تحتفظ ببعض حظوظها إذا ما أثار شبابُ العالم تمرّداً في الضمائر، تمرّداً تُغذّيه الرغبةُ في الحياة، وليس مجرد الاستمرار على قيد الحياة.

لا بد أنّ والدة طارق قد نظرت إلى ابنها بنظرات تتألّقُ حبّاً وحناناً.

متى ضاع؟ أهي التي أضاعتْهُ؟ قد تكون ماتَتْ قبل الأوان، مُخَلِّفَةً يتيماً يواجه قدره وحيداً، مستعدّاً للقفز فوق لغمٍ على متن سيارته الجيب شمالَ قندهار، في أفغانستان.

طارق جنديٌّ فرنسيٌّ ضمن الفيلق الأجنبي.

الفيلقُ فرقة عسكرية مخصوصة لكونه يُجَنِّدُ رجالاً ينخرطون في الجيش تاركين ماضيهم عند أبواب ثكنتهم.

ينتمي طارق إلى فرقة الهندسة العسكرية المستقرة بِ«لودن»، على بُعد عشرين كيلومتراً من أوزيس.

لا شيء كان يؤهِّلني للقائه، سوى أن مكتبة تقود إلى الكلِّ، حتى إلى جوار سرير جنديٍّ مريض.

كانت كامي، المسؤولة عن مركز إعادة التأهيل في أوزيس، هي التي جاءت تطلبني:

- ناتالي، أتيتُ لأطلبَ منكِ أمراً مخصوصاً بعض الشيء. لقد استقبلْنا حديثاً جندياً شاباً من الفيلق الأجنبيّ، لم يصل بعد الخامسة والعشرين، جاء من ڤال دو گراس، المستشفى العسكري الباريسي. لقد عاد من أفغانستان حيث انفجرت سيارتُهُ الجيبْ فوق لُغمٍ. مات اثنان من رفاقه، وأصيب هو في عينيه. لا نعرف إن كان سيستردُّ بصره. خضع مؤخراً لعملية أولى، وتنتظرُهُ أخرى بعد شهرين. ما يميّز طارق أنه لم يعُد ينفعل بأيِّ شيء. لا يردُّ عندما يُكَلَّمُ. يبدو أنه لا يُحسُّ بأيِّ شيء عندما يُلمَسُ. لم ينبس بكلمة واحدة منذ الحادث. أجرى له الأطباءُ جميعَ الاختبارات العصبية الضرورية، وهم قاطعون في حكمهم: لا وجود لأيِّ إصابة في الدماغ أو الأعصاب.

- قصّتُكِ مروعةٌ، لكن ما دخلي أنا في الأمر؟

- فكَّرنا فيكِ بسبب الكُتُب.

- آه... لكن ألم تخبريني أنه أعمى؟

- لهذا تحديداً، تودُّ الطبيبةُ النفسيةُ التي تُعالِجُهُ بألَّا نتوقفَ عن الحديث إليه، أن نتصرَّفَ كأنه يسمع كلَّ شيء ويفهمُ كلَّ شيء. غير أن كلماتنا هي كلمات الحياة اليومية، بينما تعتقد هي أننا يجب أن

ننجح في نقل طارق إلى عالم آخر. قد يكون يرفضُ أن يرجع إلى عالمنا لأن هذا الأخير يُرعبُهُ، ولكنه قد يَقْبَلُ أن يلتحق بعالم آخر، متخَيَّل. نودُّ أن نعرف إن كنتِ تستطيعين أن تختاري كتباً من أجل طارق، وأن تكوني قارئته. وسنتناوبُ على تعويضك قدر الإمكان، لكننا ليس لدينا موظَّفون كثر. أتفهمين؟

لم أعرف ماذا أجيب. فجأةً تصلُ إلى العالم المحمِيِّ الذي هو عالمي، إلى هذه المدينة الصغيرة خارج الزمن حيث يبدو كل شيء متناغماً، أفغانستانُ أخبار الثامنة مساء. كنت أحسُّ كأن جنديّاً مُدَمًّى فوق مِحَفَّتِهِ قد وُضِعَ وسط مكتبتي.

- لستُ أدري، كامي. لستُ أدري حقيقة. ليس بالأمر اليسير ما تطلُبُهُ مني الآن. أليسَ لطارق أسرة؟

- ربما في كرواتيا، لكن تعلمين أن هؤلاء الجنود الأجانب، إنما انخرطوا في الفيلق الأجنبي لأنهم قد قطعوا جميع جسور التواصل مع أهاليهم.

- سأفكر في الأمر وأستشير ناثان.

يُنصَحُ، لإجراء حديث حسّاسٍ، بانتقاء المكان المناسب، والوقت الملائم، والطريقة...

انتظرتُ عطلة نهاية الأسبوع وفاتحتُ ناثان في الأمر ونحن حول مائدة الفطور يوم الأحد.

حكيتُ له القصة كلَّها، والطلبَ الذي تلقّيتُهُ.

- لستُ أدري إن كنتُ قادرة على القيام بذلك. إن كنتُ قوية بما فيه الكفاية. عمرُهُ من عمر ابننا غيوم!

- لكنه ليس غيوم... الجيش، يا له من حماقة!

لا وجود لمُعارض للعسكر أكبر من ناثان. كان قد أدّى خدمتَهُ العسكرية عندما كانت إلزامية، ويَعتبر تلك السنةَ من أسوأ سنوات حياته. لم يتحمّل أن يضطر إلى أن يُطيع أوامر ضبّاط صفٍّ كان مستواهم الثقافي في الحضيض، والذين كانوا يستغلون الفرصة لإذلال المثقفين الذين وقعوا في شباك الجيش.

- هذا ليس هو الموضوع، ناثان. أنتَ نفسُكَ صفَّقْتَ عندما اخترع كوشنر الحقَّ في التدخُّل لمساعدة الشعوب المقهورة في بلدانها. نحتاج إذاً إلى جنود يقبلون القيام بتلك المهمة.

- أجل، ولكن ليس هذا حال أفغانستان. ليس لنا ما نقوم به في تلك الحرب!

- أنصِتْ إليَّ ناثان. لنتوقّفْ عن هذا النقاش. كنتُ أريد أن أخبركَ بالأمر فحسب. لستُ أدري ماذا أجيب. لكن الآن وأنا أعلمُ أن ذلك الفتى موجود هنا، على بعد أزقة قليلة من بيتنا... يقتحم عليَّ حياتي وأعتقد أنني لا يمكنني أن أبقى في معزل خلف أستار بيتنا الكتّانية الجميلة، من دون أن أفعل أيَّ شيء.

- اعذريني إن كنتُ قد انفعلتُ، لكنك تعلمين جيداً...

- أجل، أعلمُ، أنتَ والجيش لستما صديقين.

- هيّا، خُوضي الأمرَ وسَتَرَيْنَ. لكن إن وجدتِهِ شديد القسوة، توقّفي!

كانت كامي تتقدّمُني إلى حجرة طارق.

- نهاركَ طيّب طارق، أُقدِّمُ لكَ ناتالي، إنها كُتبيّةٌ في ساحة الأعشاب. لقد وافقَتْ أن تأتيَ لتقرأ لكَ قصصاً. أرجو أن تنال رضاك...

ثم التفتت نحوي:

- أتركك رفقة طارق. شكراً لكِ مرة أخرى، ناتالي.

وجدتني وحدي في تلك الحجرة رفقة جنديٍّ ساكنٍ. كانت عيناه تغطيهما ضمّادة. وذراعاهُ ممدودتان فوق اللحاف الذي يغطيه. ويمتدُّ وشمٌ طويلٌ من كتفه الأيمن إلى غاية يده. كان يمثِّلُ ثعباناً يتلوى حول صليب. كان الشابُّ حليق الوجه. ورأسه كذلك. قسماتُهُ دقيقة. الشفتان المفتوحتان قليلاً لَمْيَاوان يحفُّهما خطٌّ رقيق. كنتُ أشعر بِكُرَةٍ في حنجرتي كأني سأخطبُ أمام جمعٍ من المشاهدين الصارمين.

فتحتُ الكتابَ، وشرعتُ أقرأ:

- «أقامَ كنت جينكفور (Kent Jingfors)، عالِمُ أحياء سويدي، اختصاصيٌّ في دراسة ثور المسك، مُخَيَّمَهُ ذات يوم في حوض «سادلروشيت ريفر»، في ألاسكا، في عزِّ الشتاء، ليحاول أن يكتشف كيف تتمكّنُ ثيرانُ المسك من الاستمرار على قيد الحياة في ذلك الوسط...».

كنتُ قد قرّرتُ أن أحضر ساعةً كلَّ يوم، حوالي منتصف النهار.

عند انصرام ثلاثة أيام، وبينما كنتُ قد أتيتُ على ثلثي شتاء (*Winter*)، كتاب ريك باس (Rick Bass) الذي كنتُ قد اخترتُهُ لأنقل طارق بعيداً جدّاً عن كل ما قد عرفه من قبل، شعرتُ أن غياب أيِّ ردِّ

فعل من جانبه كان يمنحني الانطباعَ بأني أقرأ بصوت عالٍ في حجرة خالية.

كان يجب أن أقرأ لشخصٍ ما.

لكن كيف أقرأ لشخص لا أعلمُ عنه أيَّ شيء؟

- انظر طارق، لديَّ مشكل. لا يخرج الوضعُ عن أحد أمرين، إما أنك لا تسمع شيئاً بتاتاً، وهذا لا أهمية له، أو أنكَ تسمع كلَّ ما أقوله لك وهذا ما أرجوه. أتمنى أن تروقكَ هذه القصةُ، وإن لم تَرُقْكَ أطلِقْ صيحة عاليةً! أعلمُ على كلّ حال أنها كانت ستروق لغيوم. غيوم، هو ابني. إذاً سأواصل قراءتها كأنني أقرأها لكما معاً. اتفقنا؟

خلتُ للحظةٍ أن شَفَتَهُ قد رسمت ابتسامةً، لكنني أعتقد أن الأمر لم يكن سوى وهم.

- «يُخفي الشتاءُ أشياء ويكشفُ أخرى. يُعجبني ابن عرس، والأرنب، والمخلوقات المتوحشة الأخرى، القادرة على أن تتغيّر وفق الفصول، وأن تتحوَّلَ بين اليوم وغده، أو تقريباً. احتجتُ إلى وقت طويل لأتغيَّر بشكل كامل -ثلاثين سنة-، لكنني الآن، وقد أتممتُ تحوّلي، ليست لديَّ أيُّ رغبة في أن أغادر هذا الوادي».

ها هو الكتاب قد انتهى يا ولديَّ. يوجد وادي «ياك» في المونتانا. كنتُ دائماً أقولُ لنفسي إني سأذهب إلى هناك يوماً ما. ثم تنصرمُ الأيام... سيكون أمراً رائعاً أن نذهب إلى هناك معاً!

منذ بدايات الأدب، كان الحديث عن الطبيعة يقوم به كتّابٌ يعرفون كيف يُحوِّلون صفحاتِ كتابٍ إلى مرعى يغمره الندى، أو أن يمنحوه رائحةَ شجيراتٍ تكسوها الطحالبُ. لكن، شيئاً فشيئاً، عند

نهاية القرن الماضي، أصبحت الطبيعة بالنسبة إلى الكتّاب الفرنسيين مجرد ديكور لحكي قصص إنسانية.

كأن الهجرة القروية، عندما اقتلعت الرجالَ والنساءَ من البادية، جعلتْهُمْ كذلك أقل حساسية، وأقل قدرة على أن يتّخذوا من الطبيعة شخصيةً حقيقيةً في قصصهم.

والمفارقة هي أن المجتمع الأميركي، على الرغم من كونه زعيم العمران والتحديث، ظلَّ إنتاجُهُ غزيراً في مجال قصص الطبيعة. وقد بلغ ذلك درجة جعلت دار النشر گاليستر (Gallmeister) تختار أن تتخصَّصَ في أن تجعلنا نكتشف المؤلفين المنتمين إلى ما خلف الأطلسيّ، ومن بينهم «ريك باس».

لكن توجد أيضاً في فرنسا دارُ نشرٍ، جِدُّ محترمة وجِدُّ قديمة بما أنها قد نشرت أعمال بروتون (Breton)، وشار (Char)، وغراك (Gracq)، وآخرين كثيرين، قد بادرَتْ، بتأثير من خلفاء مؤسِّسِها جوزيه كورتي (José Corti)، إلى إنشاء سلسلة كتبٍ موقوفةٍ على الطبيعة. وقد كنتُ في غاية السعادة عندما اكتشفتُ **لوبو، الذئب** (*Lobo, le loup*)، الكتاب الأخير الذي ترجَمَتْهُ تلك الدارُ لعالِمِ الطبيعة الأميركي، إيرنيست تومسون سيتون (Ernest Thompson Seton). وهو كاتب لا يجاريه أحدٌ في تشكيل صورة محسوسة، وطافحة بالفكاهة، لحيوانات راقَبها في الطبيعة، حيث إنّ قصصه تليقُ بأجمل دروس العلوم الطبيعية، وهي في الآن عينه لآلئ أدبية.

مَنَحَني سيتون الرغبةَ في أن أنظر بعيون أخرى إلى الأرانب البريّة، والثعالب، وحيوانات الغابة الأخرى التي أَمُرُّ بها في جولاتي

حول البيت. أودُّ أن أكون قادرة على ذلك الضرب من الملاحظة للعالم الصغير الذي يحيط بي، وأن أتعلَّم كيف أنظر بدل أن أرى فحسب، أن أسترجع رؤيةً تُدمِجُني في تفاعل حقيقي مع الطبيعة، وألا أظلَّ مجرد متفرِّجة.

تربطنا نظرتُنا بالأشياء، والأماكن، والمناظر. إنها تُحوِّلُ الطاقةَ الموجودة فينا مثلما هي موجودة في جميع الأشياء، وتُغذِّي علاقةً حيويةً، مشتركة، تُدمِجُنا كلِّياً في الكون، عندما نكون واعين بها.

خرجتُ من مركز إعادة التأهيل وأنا أفكر في كلّ أولئك الذين يذهبون بالطريقة نفسها إلى زيارة قريب في الغيبوبة، أو أُمٍّ مصابةٍ بالزهايمر، أو طفلٍ مولود بتشوّه خلقيٍّ عصبيٍّ. يجب أن نعرف كيف نُعطي، نعطي فحسب، نعطي دائماً. من دون أيِّ شيء يعني شكراً. بدافع الحبِّ وحده. من أجل الحب الذي قاسمناهُ، أو نودُّ مقاسمته مع ذاك الذي يعيش في الطرف الآخر من العالم.

في الحقيقة، توجد عوالم أخرى غير عالمنا، ولا نحتاج إلى مركباتٍ فضائية لاكتشافها. إنها هنا.

في الأسبوع الموالي، شرعتُ في قراءة **قائدُ المتسلِّقين** (*Premier de cordée*).

كان عالماً جديداً. عالم الجبل. قصة جميلة وقوية، لرجالٍ فحولٍ يتجاوزون طاقتهم لكنهم سيتوجّب عليهم أن يتعلموا أن المرء لا يتسلق الجبل إلّا بالتواضع، وأن التراجع في بعض الأحيان يكون انتصاراً. انتصارٌ على الموت، الذي يمكن أن يصيب ذاك الذي يواصلُ بسبب الكبرياء، أو انعدام الوعي.

لقد كان ذلك الكتاب «أول كتاب كبارٍ» قرأهُ غيوم. ولا يزال من ضمن كتبه المفضَّلة.

هل سمع طارق يوماً بفريزون-روش (Frison-Roche)؟

نظرتُ إلى الجنديِّ الشابِّ. بدأتُ أفكِّرُ في أني ليس لديَّ سوى صورتين عن الجنديّ. فهو إمّا مقاتل، يصيح ويتعرّق، أو جريح، يُحتضر وينتظر أن يخفض رفيقٌ بصره. لم يكن عقلي قد انطبع سوى بهذين الاحتمالين. ولا بد أنّ ذلك من فعل أفلام الحرب.

في ذلك المساء، عندما أويتُ إلى فراشي، لم أتمكّن من النوم. كنتُ أحاول أن أتخيَّل أُمَّ طارق.

هل كان لديها أطفال عديدون؟ ما الذي تصيرُ إليه أُمٌّ عندما تفقد ابناً؟ أتكون لا تزال تُحسُّ بحضوره مثلها مثل الذين بُتِرَ عضوٌ من أعضائهم ويستمرون في الإحساس بالعضو الغائب؟

كانت لديَّ أفكار سوداء. كنتُ واثقة من أن مصاحبة طارق كانت اختباراً فريداً. كأني كان عليَّ أن أدفع ثمن حصتي باعتباري أُمّاً من أمهات العالم، تضامناً مع كلّ أولئك اللواتي يرينَ أبناءهن يذهبون إلى القتال.

كنتُ أعطيتُ الكثيرَ من أجل تربية ولديَّ. اعتقدتُ أننا قد ربّيناهما بالطريقة نفسها على الرغم من أنهما ولدٌ وبنتٌ. «الخيارُ الملكيُّ»، كما يُقال.

في الحقيقة كل طفل يملك قدَرَهُ المخصوصَ، وشخصيّةً لا تدينُ بالشيء الكثير إلى ما نحاول أن نَبُثَّهُ فيه. إنه حُرٌّ في أن يأخذ

أو يرفض، ونجد أحياناً صعوبة في أن نفهم لِمَ نشعر أننا قد فشلنا مع الواحد في الأمر نفسه الذي نجحنا فيه مع الآخر.

الأبوّة والأمومة مدرسة كبيرة في التواضع، حيث يجب أن تؤخذ عبارة الشاعر جبران خليل جبران بمعناها الحرفيِّ: «أولادكم ليسوا لكم. أولادكم أبناء الحياة المشتاقة إلى نفسها».

عندما نقتنعُ أن «النجاح» في تربية طفل إنما يتجلى في أن نُمَكِّنَهُ من أن يختار بحرية طريقَهُ الخاص إلى السعادة، فإننا نكون قد اجتزنا مرحلة حقيقية تُعيدُ الكثيرَ من الأمور إلى مكانها.

أعيشُ اليومَ مع غيوم وإيليز علاقتين متناقضتين تقريباً. في مقابل اهتمام ابني بأمِّهِ والتفاتاته الرقيقة، لا تجيبُ إيليلز إلّا بالطعنات التي تتقصدني بها على الدوام، فلا تُضيع فرصة لركوب رأسها والتهجم عليَّ كأنها تعرف كلَّ شيء عن الحياة، أفضل من الجميع. والمثير أنها لم تتجاوز العشرين من العمر!

يُقالُ إن الأبناء يحتاجون إلى أن يقتلوا الأب رمزيّاً، والبنات إلى أن يدخلن في نقاشٍ مع أمهاتهن.

لا أجد من العدل ألّا يُعانيَ ناثان حقيقةً من علاقته بابنه، بينما علاقاتي بإيليز دوماً متفجِّرة.

يضطر ناثان في الكثير من الأحيان إلى أن يُذكِّرني بأني أنا الكبيرة العاقلة، وأنني يجب أن أتوقف عن التخاصم معها كأنها زميلة في الفصل.

أعلمُ جيداً أن الأمر سيتغيّرُ ذات يوم، وأتعذبُ في انتظار ذلك اليوم.

ومن الأكيد أن قصتي الصغيرة هذه ستبدو شديدة التفاهة إذا ما قورِنَتْ بتجربة أُمِّ طارق...

انتهى بي الأمرُ إلى أن نمتُ وقد نجحتُ في رسم ملامح امرأة ذات شفتين لَمْيَاوين مثل شفتيْ ابنها، ذات بشرة غامقة، ونظرة رقيقة وحزينة مثل تلك التي نلاحظها عندما تعرض علينا الربورتاجات وجه النساء في مناطق الصراع.

واخترتُ كتابيَ الثالثَ من أجل طارق وأنا أفكِّرُ في أُمِّهِ: **قصرُ أُمِّي** (*Le Château de ma mère*) لمارسيل پانيول (Marcel Pagnol).

- طابَ يومُكَ طارق، أهلاً غيومْ. اليوم سنُغيِّرُ الجوَّ بشكل كامل. عندما كتبَ پانيول هذا الكتاب، قال إنه إنما قام بذلك ليُعلِّمَ الفتياتِ الصغيرات كيف سيُحِبُّهُنَّ أبناؤُهُنَّ ذات يوم. أودُّ أن أقرأَ لكما **قصر أمّي** ونحنُ نفكِّرُ في أُمِّ طارق التي ربما تكون تنتظر في مكان ما حُبَّ ابنها.

عند نهاية الكتاب، عندما يحكي پانيول كيف كان پول الصغير يُمسِكُ بقوةٍ يَدَ أبيه وهما يرافقان جنازةَ أُمِّهِ، رأيتُ الضمّادةَ البيضاءَ التي تُغطِّي عينَيْ طارق تبتلُّ.

كان طارق يبكي. انفرَجَت شفتاهُ...

- كان اسمُها نعيمة... أُمِّي...

لم أقل شيئاً. أخذتُ يدَهُ بين يديَّ فحسب، مثلما تمسكُ أمٌّ يدَ ابنها المريض.

وعند انصرافي من الحجرة، أخبرتُ كامي بالأمر.

لقد عاد طارق. كان يسمع، ويستطيعُ الكلام. كان حيّاً.

في اليوم الموالي، كنتُ قد قرّرتُ أن أسافر إلى «آرل» لزيارة دار النشر «أكت سود» (Actes Sud).

كانت دار النشر تستقبل الكُتْبيّين لتُقدِّمَ لهم المنشورات الجديدة التي ستكون ضمن كتالوج الموسم الجديد.

تبعُدُ «آرل» عن أوزيس بساعة زمن.

نادراً ما أُجيبُ دعواتِ الناشرين، لكنني أستقبلُ دائماً ممثِّليهم الذين يساعدونني على تشكيل فكرة حول الكتب الجديدة في الكتالوج.

غير أن الأمر هذه المرة مختلفٌ، ففي «آرل» توجد إيليز، وكنتُ مشتاقة لرؤية ابنتي.

- ألو!

- إيليز، أنا ناتالي.

- ناتالي؟

- أجل، ماما!

- لكن، ماما، لماذا تُقدِّمين نفسكِ باسمك الشخصي؟

- لستُ أدري... لا أزعجكِ؟

- لا... قليلاً فحسب، أنا الآن في حصة تصوير!

- آه... عذراً.

- طيّب. ماذا كنتِ تريدين؟

- سأحضرُ إلى آرل غداً. سأزور دار النشر أكت سود. أيمكن أن نتناول الغداء معاً؟

- أوه... لستُ أدري. لديَّ أمورٌ كثيرة أقضيها غداً. دعيني أُفكِّرُ في الأمر، سأبعثُ إليكِ رسالة قصيرة.

- حسنٌ. قبلاتي.

- أوكي. أنا أيضاً.

- إيليز؟

- نعم...

- سأكون سعيدة جدّاً غداً إذا...

- نعم، نعم، فهمتُ. سأخبركِ.

بقيتُ وحدي ممسكة الهاتف في يدي، أنظرُ إليه كأنه مصباح علاء الدين الذي يمكن أن تطلع منه إيليز.

لكن لم يطلع أيُّ شيء.

لم يكن ناثان حاضراً في ذلك المساء. ولم أتمكّن من أن أتصل به بالهاتف.

أويتُ إلى فراشي وحيدة، من دون أن يهتزَّ هاتفي لأيِّ رسالة.

في صباح اليوم الموالي، وجدتُ رسالة من إيليز: «أخبريني أين ستكونين عند منتصف النهار. سأحاول أن ألتحق بكِ».

خاب رجائي. وأغاظتني قلّةُ حماسها فلم أبعث بأيِّ جواب.

تقعُ أكت سود على ضفة نهر الرون. في شارع «ميجان».

قام الناشرُ شيئاً فشيئاً بتجميع بنايات مختلفة تربطُ بينها شرفاتٌ، أو ممراتٌ ضيقة، أو سلالمُ من درجات معدودة تسمحُ بالانتقال من مستوى إلى آخر بين بنايتين متباينتين.

وتمتلكُ دارُ النشر كذلك كنيسةً صغيرةً عتيقةً، تُقامُ فيها المعارضُ، في المكان نفسه الذي كانت تُخزنُ فيه في الماضي حزمَ صوف أغنام منطقة «كامارگ».

عند أسفل البناية الرئيسة، تعرضُ مكتبةٌ جميلةٌ جدّاً مجموعَ إنتاج أكت سود، ولكن أيضاً كتباً كثيرة لناشرين مختلفين.

عندما دخلتُ، كنتُ مثل طفل داخل قصر الحلويات.

يوجد أشخاصٌ نلتقي بهم فيتكوّنُ لدينا انطباعٌ أنهم يفهموننا قبل أن نفهم نحن أنفسنا. كأن التواصل بيننا يحدثُ في مستوى لا دور فيه للكلمات.

ذاك هو الشعور الذي انتابني في تلك المكتبة. لم أكُن قد سبق لي أن ولجتُ ذلك المكان، لكنني كنتُ أعلمُ بالتدقيق، حدساً، أين كنتُ ومع من كنتُ.

كنتُ أُدرِكُ طريقةَ تنظيم الأجنحة في المكتبة، فكنتُ أستطيع أن أقول مغمَضَةَ العينين أيّ كاتب سيجاور كاتباً آخر فوق الطاولات، وأيّ الكتّاب سيحصلون على مكان فوق المعارض الرئيسة، وأولئك الذين لن أعثر عليهم أبداً في ذلك المكان.

كنتُ في محلِّ الآخر، كأنني في محلّي تماماً.

كنتُ أتجوَّلُ بين الأجنحة عندما لمحتُ إيليز تدخلُ، متأبِّطَةً ورقَ رسم مقوّى كبيراً.

- أَهلاً ماما، أنا آسفة، لكنني مررتُ لأراكِ فحسب، ليس لديَّ وقت.

- آه... يا للأسف، كنتُ أريد أن أقول لكِ...

- أجل، لكني الآن، لا أستطيع حقيقةً. لكنني قد جلبتُ لكِ شيئاً، إنه من أجلك.

كانت إيليز تمدُّ إليَّ ورقَ رسمها. وكنتُ مضطربة بعض الشيء. وددتُ لو أن لدينا وقتاً لتناول الغداء معاً، لكنها كانت قد قرّرتْ غير ذلك. لم يكن لديَّ أمرٌ معيّنٌ أقولُهُ لها، وإن كنتُ أودُّ أن أحكيَ لها الكثير. وددتُ لو أحدِّثُها عن طارق، ولكن أيضاً عن ليلى، وعن جاك، وعن كلِّ ما كنتُ أشعرُ به عندما أفكِّرُ فيها. لكن ليس في هذه المرة.

كان عليَّ أن أتقبَّلَ ذلك الزمن، وأن أنتظر انصرامه، وألَّا أبحثَ في سلوكي عن تفسيرٍ محتمل، وخصوصاً ألَّا أشعر بالذنب، وأن أرخي لها العنان، وأن أتركها ترجع، ترجع من جديد...

ودّعتني إيليز بقبلة، وتركت بين يديَّ ورقَ الرسم الكبير.

خرجتُ من المكتبة، وفتحتُهُ.

كان عنوان العمل **أمِّي، على طريقة فِيكْ مونيز** (*Ma mère, à la façon de Vik Muniz*).

كان عبارة عن لوحة فنية لوجهي، لكنها صورة مُنجَزَة بواسطة إلصاق قِطَع مختلِفة من الورق الممزَّق. وكنت أتعرّفُ في كلّ قطعة على أجزاء من أغلفة كُتُبٍ.

لا بد أن إيليز قد اشتغلت على مجموعة متنوعة من كتالوجات دور النشر لتُشكِّلَ في الأخير تلك اللوحة.

كان في تصرُّفها ذاك، والطريقة التي تركتني بها وحيدة مع هديّتها الرائعة، ما ينمُّ عن حياء يخشى أن يُعبِّر عن مشاعره ويُفضِّلُ في الوقت نفسه أن يتفادى أيَّ حوار لم تكن قد استعدّت له بعد.

ڤيك مونيز هو فنّان كنت قد اكتشفتُهُ مع الوثائقيِّ **الأرض اليباب** (*Waste Land*) حيث يُحكى كيف أن المُصَوِّرَ قد اشتغل مع فارزي أكبر مزبلة في الهواء الطلق في البرازيل ليُشَكِّلَ صوراً رائعة، ينجزها بفضل تجميع نفايات مصدرها المزبلة فحسب.

تركتُ آرل فَرحةً، واثقةً من مجيء اليوم الذي سأضمُّ فيه من جديد ابنتي بين ذراعيَّ من دون أن أكبت كلماتي أو حركاتي.

عدتُ إلى زيارة طارق في صباح اليوم الموالي. وكنتُ قد عرّجتُ قبل ذلك على السوق.

- طابَ يومُكَ، طارق.

- أهلاً، ناتالي. جلبتِ وروداً. أشمُّ رائحة الورد.

- أجل. ورود وفواكه. لأضفي البهجة على غرفتكَ.

- شكراً، شكراً على كلّ شيء.

- كيف حالك اليوم؟

- لستُ أدري ما الذي حدث. منذ البارحة شرعَت الذكرياتُ تصعد. أتذكّرُ الطريق التي كنا نسير فيها. كان علينا أن نُؤَمِّنَ طريق قندهار لتتمكَّن بعد ذلك قافلةٌ إنسانية من الالتحاق بتلك المنطقة المعزولة عن العالم. عادة لدينا لاقطُ ألغامٍ يحذِّرُنا. لا أفهم إلى حدّ الآن. مات رفيقايَ. الرقيب بواسيير كان له ولدان.

كان طارق يبكي.

- ماذا لو تُحدِّثُني عنكَ وعن نعيمة...

- أمي هي التي أرادَتْ لي أن أتركَ صربيا. كنا نعيش في منطقة فقيرة جدّاً. مات أبي بينما كان يعمل في محجر البوكسيت، وكنا

نقطنُ في بيت جدّتي. لم نكن نأكلُ سوى ما نزرعُهُ، ولم تكن الأرض بالخصبة. وعندما اندلعت الحربُ في بلدنا، كانت أمي قلقةً لأننا مسلمون، في ناحية ذات أغلبية مسيحية، فدفعتني إلى الرحيل. لا بد أنها كانت تحدُسُ ما كان سيحدثُ. سافرتُ إلى فرنسا. وعملتُ في البداية في مزارع الكروم، ثم في جني الفواكه. كنتُ أبعثُ كلَّ شهر ببعض المال إلى أمي. وذات يوم علمتُ أن بعض أفراد الميليشيا قد أحرقوا بيتنا وأن أمي وجدّتي قد ماتتا في ذلك الحريق. في ذلك اليوم، قررتُ أن أصبح جنديّاً ليصلح غضبي لشيء ما. لم أتمكّن من أن أكون ضابطاً. لم أكن أُتقنُ القراءة والكتابة لأننا كنا نسكن بعيداً عن المدرسة. لم أعرف من الحكايات إلّا تلك التي كانت تُطلِعُها أمي من ذاكرتها. كانت حكايات تقليدية تُحكى للأطفال في صربيا. وأول كتاب اكتشفتُهُ، هو كتاب ريك باس.

- لكن، هل كنتَ تسمعني؟ كنتُ أعتقد أنك كنتَ فاقد الوعي في تلك اللحظة.

- أجل، سمعتُ كل شيء، لكنني لم أكن قادراً على ردِّ الفعل، بل إني أوافقُ على مرافقتك إلى مونتانا مع غيوم! إنه نوعاً ما «أخي من الكتب»، مثلما يكون آخرون «إخوة الدم»...

- أنت على حق. «إخوة الكتب» عبارة جميلة. فالكتب تنسجُ في الحقيقة رباطاً غير مرئيٍّ بين أولئك الذين قرأوها. سيصلُ غيوم في عطلة نهاية الأسبوع القادمة، من أجل قضاء أسبوع عطلة. أقترحُ عليكَ أن آتيَ رفقتَهُ لزيارتكَ. أنا واثقة من أنه سيرغبُ في الإنصات إليكَ وأنتَ تحكي قصَّتَكَ الشخصية.

- لكنني لستُ فريزون-روش!

- لا، لكنكَ طارق. وهذا وحدهُ كثير!

علَّقتُ لوحةَ إيليز في حجرة مكتبي.

وعندما عاد ناثان، أدركَ حالاً مصدرَها.

- ها هو الاعتراف الذي كنتِ تبحثين عنه!

- ليس الأمر مجرد مسألة اعتراف بالجميل، إنما كنتُ أنتظر أن نستأنف الحوار.

- تلك بداية جميلة!

- أجل، جميلة جدّاً، لكن لا يزال أمامنا طريق طويل لنتحرَّرَ من كلماتنا وحركاتنا مع إيليز.

كان ناثان يُدرك أنه باستعماله كلمة «اعتراف» إنما يضربُ على وتر حسّاس.

يقالُ إن الورود نفسها تحتاج إلى الحبِّ كي تزدهر. وناثان لا يفتقر إلى اعتراف زملائه في العمل. وأنا أيضاً، قبل أن تكون لي مكتبة، وخصوصاً قبل أن يكون لي زبائن، كنتُ أنتظر الاعتراف من أقربائي.

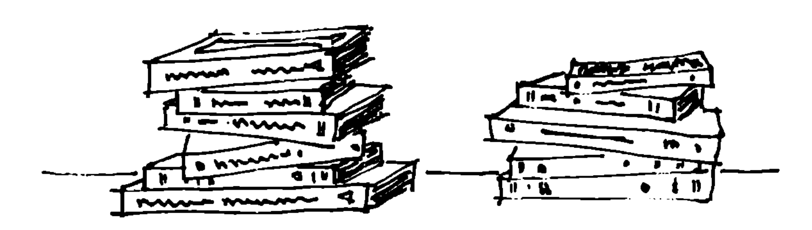
تفوز أمُّ الصغار باعتراف أبنائها، لكن عندما يكبرون، لا ينبغي أن تعيش تنتظر ذلك. لقد أثر فيَّ موقفُ إيليز بشكلٍ كبيرٍ يَشي بحياةٍ غير متوازنة، حيث كنتُ قد أهملتُ نفسي لصالح الآخرين. فكان عليَّ أن أُرَمِّمَ تقديري لذاتي، ويجب أن أعترف أن جميع المعاملات التي حدثت بفضل المكتبة قد ساعدتني كثيراً.

اليومَ أعرفُ ما لا أَدينُ به لأيٍّ أحد سواي.

صرتُ أقرنُ الحريةَ بالمسؤولية.

وتلك وضعية لا تخلو من مغامرة، لأن مداخيلي ترتبط مباشرة بمبيعات المكتبة. وتعتبر، في هذا المستوى، مهنةُ الأستاذ أقل مخاطرة.

لكن ذلك لا يهمُّ كثيراً. لقد فضلتُ دائماً السماوات ذوات النجوم على نجوم المطاعم. في أوزيس أجد متعتي!



الأخت ڤيرونيكا

سعادة بسيطة



ناثان مريضٌ.

تعبٌ في القلب.

ألاحظُ منذ مدة أنه قد صار سريع التعب، حتى عندما نذهبُ للمشي في منطقة الدغل حيث التضاريس سهلة.

يعيش ناثان النمط من الحياة الذي يقود بالضرورة إلى مشاكل في القلب. يحبُ الأكل، والشراب، ولا يمارسُ أيَّ نوع من الرياضة، ولم يتوقف عن التدخين إلّا عندما وصلنا إلى أوزيس، لكنني أتساءلُ أحياناً إن لم يكن لا يزال يدخِّنُ في الخفاء عندما يكون في باريس. ويبدو أن مكاتب المهندسين هي الأماكن الأخيرة التي يمكن أن تشاهد فيها أناساً يدخِّنون على الرغم من المنع. يُعتبر ذلك جزء من مظهر تلك المكاتب وأجوائها المشهورة... وهكذا تكون ليالي العمل المتواصل قبيل الانتهاء من إنجاز التصميم فُرَصاً للتدخين والشرب، كأن المشروع الجميل لا يمكن أن يكتمل إنجازُهُ إلا تحت ضغط الأيام الأخيرة!

لم أحبّ ذلك أبداً، ولم أتمكّن من فهمه كذلك.

كثيراً ما وبّختُ ناثان وأنا أسألهُ عن السبب الذي يجعله يُصِرُّ على أن يحفر قبره بسرعة بواسطة تصرفاته المدمِّرة للذات. لماذا لا يفكر فيَّ أنا وفي ولدينا.

وطبعاً، لا يملكُ ناثان أيَّ جواب عن سؤالي.

إنه مريضٌ، وأرى جيداً كيف أن الأمر يستبدُّ بذهني.

أذهب إلى المكتبة مثلما تلتحق موظّفةٌ بمكتبها في الخزينة العامة...

لم أعُد أستطيعُ قراءة الكتب التي أتوصَّلُ بها، وأُدرِكُ أن إنصاتي إلى الزبائن ما عاد كما كان.

أسارعُ إلى تنفيذ طلباتهم كأنهم يصيبونني بالملل.

ألاحقُ أفكاري، وهي أفكارٌ سوداء.

أنا قلقة.

وعلى الرغم ممّا يتظاهر به، فإني أعلمُ أنه قلقٌ هو كذلك.

يتوجب عليه أن يعود إلى زيارة طبيبه بعد أن يُجريَ فحوصاً تكميلية عند اختصاصي في أمراض القلب.

أحبُّ كثيراً اختصاصيةَ القلب في أوزيس. امرأة حيوية وكريمة، لا بد أنها تعرف بشكل حميمٍ العديدَ من أُسَرِ مدينتنا الصغيرة.

يعود ناثان من عندها باديَ النّكد.

- الأخبار ليست جيدة. فلستُ مضطرّاً لإجراء عملية فحسب، بل إن الشريان الإكليلي ليس على ما يُرام.

- أنتَ قلقٌ؟

- قليلاً، نعم...

أخذتُ ناثان بين ذراعيَّ. كان كبيراً وقويّاً مثل دُبٍّ، لكن كنتُ أشعرُ كأن الدُّبَّ كان قد صار دُبّاً لعبةً بسبب التشخيص الطبّيِّ.

كنّا في يوم الجمعة 12 مايو.

وكانت العملية مقرَّرة ليوم 10 يونيو.

شهر طويلٌ من الانتظار.

عندما وصلتُ إلى المكتبة في صباح اليوم الموالي، فتحتُ الباب، وقلبتُ اللّافتة الصغيرةَ، لكنني كنتُ أشعر أني مفرغة تماماً.

كان السوق قد شرع تَدِبُّ فيه الحركةُ، لكنني لم أكن أرى شيئاً من كلّ ذلك.

لم أكن قد ذهبتُ لتناول قطعة جبن الماعز مع ليلى، وكنتُ أستعدُّ لإقفال المكتبة لأعود إلى البيت لأكون إلى جانب ناثان، عندما دخلت الأخت ڤيرونيكا.

الأخت ڤيرونيكا هي إحدى راهبات الجماعة الأرثوذكسية في دير سولان.

تأتي كلَّ يوم سبت إلى السوق، ترتدي ملابس سوداء.

الأخت ڤيرونيكا ليست مهيبة في مظهرها. تتدلّى من غطاء رأسها خصلاتٌ بيضاء، وتُنيرُ وجهَها ابتسامةٌ جميلة.

تضعُ نظارتين سميكتين تدلّان على قِصَرِ بَصَرٍ حقيقيٍّ، لكن ذلك لا يزيد عينيها الزرقاوين الجميلتين إلّا حضوراً.

لا تحضر إلى السوق للتسوّق، بل لتبيع المنتوجات المصنّعة من لدن جماعة النساء الصغيرة.

تصلُ مثل جميع التجّار قبل الساعة الثامنة، تُفكِّكُ الحاملَ وتُرتِّبُ ما تعرضُهُ: عُلَب المُربَّى، ومشروبات، وعلب عسل، وخمر. أحد أفضل أنواع الخمر وفق الاختصاصيين، ويُباعُ بعضُهُ بثمن معقول، لكن في أثناء أيام العيد يمكن للمرء أن يبذل مجهوداً زائداً!

لم يسبق لي أن تحدّثتُ حقيقة إلى الأخت ڤيرونيكا باستثناء تحية «طاب يومُك» التي نتبادلها بابتهاج كلما التقينا في الطريق.

ولا أتذكر كذلك أن سبق أن زارت المكتبةَ إحدى أخوات الجماعة لأجل شراء كتاب.

- طاب يومُكِ، كيف حالك؟

- طاب يومك، أختي، الأمور تسيرُ. وإن كنتُ أشعر ببعض التعب هذا الصباح...

- لا أعرفُ لماذا أجبتُها بتلك الطريقة. هل كونها راهبة هو ما دفعني إلى ألّا أكتفي بالجواب المعتاد «بخير»، وهو جواب آليٌّ يشكِّلُ مدخلاً لكل محادثة.

- أرجو ألّا يكون مشكلاً كبيراً؟

- لا، لا، ماذا أستطيعُ أن أقدِّمَ لكِ؟

- أودُّ أن أعرف إن كان يوجد لديكم **كتاب كيلس** (*Le Livre de Kells*) لبرنار ميهان (Bernard Meehan)؟

- لا، غير موجود عندنا، لكن يمكنني أن أطلبه من أجلك.

- طيب. أتعتقدين أنك ستكونين قد توصلتِ به يوم السبت القادم؟

- أجل. أكيد.

- حسن جدّاً. واعتني بنفسكِ لأن سحنتكِ اليوم ليست جيدة كعادتك. أنتِ واثقة من أنك على ما يُرام؟

- شكراً، أختي، على طيبتكِ. الحال بخير.

- **كتاب كيلس**...

يا لها من مصادفة عجيبة.

كان اكتشافنا لذلك الكتاب من أقوى اللحظات التي طبعتنا أنا وناثان، في أثناء أول رحلة لنا معاً، وكانت إلى إيرلندا.

إنه معروضٌ في ترينيتي كوليج (Trinity College) في دبلن.

مخطوط يعود إلى القرن الثامن، ويدين بشهرته إلى تلك الخطوط المزخرفة التي تُزَيِّنُ كلَّ صفحة وتُوضِّحُ الأناجيل الأربعة.

يُعتبر في العالم بأسره آية فنية، وصنّفتْهُ اليونيسكو ضمن التراث الإنساني.

كل صفحة في حدٍّ ذاتها آيةٌ في الجمال، وقد تستوحي الزخرفاتُ أشكالاً هندسية، أو عالمَ النباتات، أو الحيوان، ولكن تستوحي أيضاً عالماً متخيَّلاً عجيباً وملوَّناً.

كنتُ أتذكَّرُ جيداً التنانين ذوات الأجنحة المذهّبة أو طيور الجنة ذوات الريش الأزرق والبرتقالي.

وبعد أن اكتشفنا الكتابَ أنا وناثان، قررنا أن نذهب إلى «إيونا»، الجزيرة التي ابتدأت فيها كتابتُهُ. مكانٌ رائعٌ، تتعاورُهُ الرياحُ، وحيث كانت جميع طيور البحر تبني أعشاشها من دون أن تخشى الناسَ الذين لا يعيش منهم هنالك إلّا القليل.

وعلى الرغم من أننا لسنا رَحَّالين كبيرين، فإننا لا نحجز أبداً مسبقاً الأماكن التي سننام فيها، ونُسلِمُ أمرنا لمصادفات اللقاءات تقودنا. وهكذا قادنا كتابُ كيلس إلى تلك الجزيرة، التي قادتنا بدورها إلى لقاء كاتي كولي، عجوز مولعة بالشعر، تُديرُ إقامةً بسيطة

في بيتٍ ريفيٍّ جميل. وكانت به أورطنسيّة زرقاء تبدو كأنها تبتلعُ البيت الصغير.

اكتشفتُ معها أشعارَ همنغواي، وخصوصاً **أشعار الحرب وما بعد الحرب** (*Les Poèmes de guerre et d'après-guerre*)، وهي أشعارٌ مذهلة.

كانت كاتي قد فقدتْ زوجَها فوق سواحلِ إنزال الحلفاء، فكان إنشادُها لتلك الأشعار يُضفي عليها عمقاً جميلاً.

عندما توصلتُ بالطلب، نظرتُ إلى الصور المستنسَخة من **كتاب كيلس** فأثَّرتْ فيَّ من جديد. وأجُد أنَّ أروعها تلك التي تُصوِّرُ «شي-رو»، وتعني «يسوع المسيح» باليونانية.

تحيط بالحرفين الأولين من الاسم نبتةٌ متعرِّشةٌ، تخرجُ من إناء يُمثِّلُ شجرة الحياة المرتبطة بمجموعات الكائنات الحيّة السبعة، التي يعترفُ بها السيلتيون: النباتات، والحشرات، والأسماك، والزواحف، والطيور، والحيوانات الأخرى، والإنسان.

قرّرتُ أن أحملَ الكتابَ الأخت ڤيرونيكا في دير سولان.

«لاباستيدْ-دانگراس» بلدية قريبة جدّاً، تقع على بعد عشرة كيلومترات شمالَ أوزيس، لكنني لم يسبق لي أن زرتُها.

عند أحد المنعطفات، اكتشفتُ سولان.

مُجملُ بناياتها جميلٌ جدّاً، وهو لم يُصبح ديراً إلا بعد أن امتلكَتْهُ الأخواتُ الأرثوذكسيات عام 1991.

حقَّقنَ، انطلاقاً من مزرعة قديمة، عملاً ترميمياً رائعاً، مع محافظتهن على حجر الغارد الذي يُضفي عليه الضوءُ لوناً ذهبيّاً.

تشغل المزرعةُ سهلاً يتكوَّنُ من أراض فلاحية يُشرفُ عليها سفحُ الجبل المغطى بالغابة.

كنتُ قد وصلتُ إلى هناك وأنا أظنُّ بكلّ سذاجة أنني يمكنني أن أرى الأخت ڤيرونيكا، لكنني وجدتُ البابَ مقفلاً لأن الأوقات التي يُفتح فيها كانت جدّ محدودة.

قررتُ أن أنتظر وأنا أتجوَّلُ بين الكروم عند أسفل الدير.

هنا، يتطلّبُ جَرْفُ الحجارة عن الحقول لزراعتها مجهوداً حقيقياً، لكن الكروم تعتاد جيداً على الأرض غير المستصلحة، وكانت كروم سولان تبدو مزدهرة وقوية.

فتحت إحدى الأخوات متجر الدير ومكَّنَتْني من أن أُخبر بموضوع زيارتي.

أدخلتني إلى الساحة، ثم أجلستني في قاعة كبيرة ذات قبة، وجدرانها قد دُهنت حديثاً بالجير ومغرة وردية اللون.

أحضرت لي الأختُ الشابّةُ كأساً من مشروب النعناع مصنوع محلّياً مع عجينة فواكه.

وَضَعت الطبقَ الصغير فوق المائدة، وأخبرتني أنّ الأخت ڤيرونيكا ستأتي للقائي، وخرجَتْ.

كنتُ أتساءلُ ما الذي أفعلُهُ هناك، في تلك القاعة حيث كانت تقتصر الزينة على الأيقونات الأرثوذوكسية، في قلب دير ذي عقيدة شرقية بعيدة جدّاً عن ثقافتي.

كنَّا، أنا وناثان، قد عُمِّدْنا كلانا، لكنني الوحيدة التي تلقّيتُ مناولتي بعد عدة سنوات من التعليم المسيحي.

أردتُ أن يُعَمَّدَ غيوم وإيليز بدورهما، لكن كان عليَّ أن أقوم بالأمر وحدي. غير أن ذلك لم يمنع ناثان من أن يستمتع بالاحتفالات التي تلي ذلك.

كان الشعور بالهدوء والراحة الذي غمرني في تلك اللحظات هو ما انتظرتُ بالتأكيد أن أجدهُ في ذلك المكان.

دخلت الأخت ڤيرونيكا إلى القاعة ذات القبة.

- طاب يومكِ، سيدتي، لكن ماذا تفعلين هنا؟

- لقد جئتُ أحملُ إليكِ الكتابَ الذي طلبتِهِ مني حول كتاب إنجيل كيلس.

- لكن ما كان عليكِ أن تتجشّمي ذلك. ألم نكن قد اتفقنا على أن أمرَّ أنا لتسلّمِهِ؟

- لا يهمُّ. كنتُ سعيدة بأن أحمله إليكِ.

- آه، في هذه الحالة، يجب ألّا يَحرمَ المرءُ نفسَهُ أبداً من أن يكون سعيداً. أهذه أول مرة تأتين فيها إلى سولان؟

- أجل، إنها رائعة حقّاً!

- هذا صحيح، لكنك تكتشفين ديرنا والجو جميل، وبعد سنوات عديدة من الأعمال احتجنا في أثنائها إلى قوة الروح لتساعدنا لأنّ المهمة كانت هائلة!

- لكن، لا تقولي لي إنكن أنتن اللواتي تفلحن الحقول؟

- بلى، سيدتي العزيزة، لقد جنَّدَنا بيير رابحي، الذي تعرفينهُ من دون شك. في البداية كنّا نعتقد أنه سيُخبرنا بمن سنتوجه إليه ليهتمَّ بالأرض، لنتمكّن نحن من الانقطاع لصلواتنا، لكنه في الحقيقة طالبَنَا

بأن نعتنيَ نحن بالأرض التي عُهِدَ بها إلينا وبكلّ الأجناس الحيّة الموجودة بها، بل إنه قد خلخَلَنا بعض الشيء، مندهشاً من كون المسيحيين يملكون خطابات جميلة حول الخَلْق بينما لا تلقى لديهم قضايا البيئة كبيرَ اهتمام. وقد لقيَ ذلك صدى في أنفسنا، فقرّرنا أن نكون راهبات وفلّاحات. فكان علينا أن نتعلَّمَ كلَّ شيء؛ من البذر إلى الحصاد، ومن السّماد إلى التعليب، بل إلى صناعة الخمر، بما أن بيننا أختٌ اختصاصية في صناعة الخمر. يحوز خمرُنا شهرةً كبيرة، لكننا إنما نفتخر بكونه طبيعيّاً بشكل كامل! لكنني أتحدَّثُ، بينما ينتظرنني في البستان من أجل جمع اللفت.

- أيمكنني أن أرافقكِ؟ أيمكنني أن أساعدكنَّ؟

- بكل سرور!

كان طلبي قد انبجس وحده. لم أكن قد خططتُ لا للمجيء إلى هنا، ولا لأن أجمع اللفتَ وأنا أتبع الأخت ڤيرونيكا بينما تعيد راهبتان أخريان غرسَ شتلات الخسّ الخضراء.

كان بستان سولان رائعاً!

يشعر المرءُ فيه بوجود عناية دائمة واهتمام بكلّ التفاصيل. كل شيء كان جميلاً، حتى الورود التي تحفُّ بالبستان والتي سأُدركُ فيما بعد أنها كانت مساعدة للخضراوات وتُعينُ في إبعاد حشراتٍ معيَّنة تهلكُ الزّرعَ.

- كل المنتوجات طبيعية! ألا تجدين الأمر رائعاً، كم تكون الطبيعة كريمةً عندما يُعتنى بها! فنحن لا نُطعِمُ جماعَتَنا كلَّها بفضل

هذا البستان فحسب، بل إن ما نبيعُهُ من مربّى وخمر يسمح لنا بأن نُموِّلَ عمومَ نفقاتنا.

- أجل، هذا رائع! كُلُّ هذا يبدو شديد البساطة وشديد الحيوية!

كنتُ قد قلتُ ذلك بحنين، وأدركَتْ الأختُ ڤيرونيكا ما في صوتي من حزن.

سمعنا صوتاً مصمتاً، كأنه قرعٌ لقطعَتَيْ خشب بعضهما ببعض. نهضت الأختُ ڤيرونيكا وهي تنظر إليَّ.

- إنها الضحى، صلاة الصبح. ثم سنتناول طعام الإفطار. أترغبين في البقاء معنا؟



- لكن، هل لي الحق في ذلك؟

- أكيد بما أني أدعوكِ إلى ذلك!

حضرتُ الصلاة في كنيسة الدير.

تأثّرتُ بأصوات تلك النساء اللواتي كنَّ يصلّين بكلمات لا أفهمها. كنتُ أقومُ لقيامهنَّ وأجلسُ لجلوس الجماعة.

كانت الأيقونات تستوقف نظري. كانت وجوهَ رجال ونساء، مفتوحة العيون، لطيفة، مؤطَّرَةً بلون الذهب، إما وجهاً أو جانباً، رُسِمَتْ بعناية من لدن راهبات. ترتبط جماعة سولان بجماعة جبل أَتوس، في اليونان.

كان لديَّ شعور بأني أرخي العنان لنفسي، تحملني الأناشيدُ ورائحةُ البخور.

قبلتُ تعبي، وقبلتُ أن أجلسَ من دون أن أنهض، وقبلتُ أن أتركَ دموعي تسيلُ وأنا أفكِّرُ في ناثان، وقبلتُ أن تتقدَّمَ الأختُ

ڤيرونيكا نحوي وسطَ الصلاة لتحضنني بين ذراعيها وتُصاحب فعلَها برسم علامة الصليب على جبيني:

- ليباركْكِ الله، أختاه. إننا نحمل دعواتكِ في أصواتنا، وهي تصعد إلى الله.

- شكراً، أختي...

بقيتُ لتناول الإفطار مع الأخوات واستمتعتُ بطعام بسيط ولذيذ. كنتُ مقتنعة أني آكُلُ اللفتَ الذي التقَطْتُهُ، وأَشُمُّ رائحةَ الدّغل، وأني أتغذّى على الربيع، على خضرة النباتات الصغيرة، على الحياة التي لا تطلب سوى أن تتفتّح...

عندما ودَّعتُ الأخوات، جاءت الأمُّ الرئيسة لتُسلِّمَ عليَّ.

- لقد أخبرتني الأخت ڤيرونيكا بهويّتكِ. مرحباً بكِ دائماً بيننا. شكراً على الكتاب.

- شكراً على حسن ضيافتكم. أيمكنني أن أسألكِ عن سبب طلبكم شراء ذلك الكتاب؟

- طبعاً. لدينا محترَف أيقونات، ونبحث استعمالَ أصباغ طبيعية. لقد أُنجِزَ كتابُ كيلس كلِّياً بواسطة نباتات ومعادن. هل رأيتِ زخرفات ذلك الكتاب؟

- أجل، ذهبنا أنا وزوجي إلى «ترينيتي كوليج». لقد أذهَلَنا ذلك العمل.

- أفهمُ ذلك. ولا واحدة منّا ذهبت إلى هناك، لكن الأخت ڤيرونيكا كبرَت في بريطانيا وتظلُّ شديدة الارتباط بالثقافة السّلتية التي درسَت حضارتَها. هي التي حدَّثَتْنا عن كتاب كيلس الذي هو جوهرة

التعبير القروسطوي المسيحي والسِّلتي. لقد ظلّتْ على اتصال بباحثين يحاولون أن يفهموا الوسائل المستعمَلَة لصناعة الألوان الموجودة في ذلك المخطوط. وبعدما كان الاعتقاد السائد أن الكتاب كان من تأليف راهبَين، فقد صار الاعتقاد يميلُ إلى كونهم أربعة؛ بعضهم من أصل سلتيّ متخصص في الكاليغرافيا، وواحدٌ منهم على الأقل من أصل متوسطيٍّ حيث يبرعون في فن الزخرفة. كلُّ صفحة موشّاةٍ أُنْجِزَتْ بواسطة أصباغ معدنية أو عضوية مكوَّنة أساساً من الأحمر، والأزرق، والأخضر، والأصفر، والبنفسجي، والوردي، والأبيض. هل تتذكرين الأزرق الموجود في العديد من الرسوم؟

- بالطبع! إنه رائع. لا فيروزيّ ولا بحريّ، إنه فريدٌ!

- لقد بيَّنَتْ أبحاثٌ حديثة أنه ليس مصنوعاً من أصباغ اللازورد المستورَد من الشرق الأوسط مثل أغلب الألوان الزرقاء المستعمَلَة في ذلك العصر، بل من محاصيل محلية من النّيلج، نبتة تُعرف أيضاً بِ«بَسْتِلِ الصبّاغين»، كان منتشراً قديماً في أوروبا. وهكذا فإن أزرق كتاب كيلس مصنوع من البستل الإيرلندي. نحن نريد أن نزرع النّيلج لنصنع من جديد ذلك البستِل.

- أفهمُ ذلك. فكرة رائعة!

- عودي لزيارتنا. ابحثي أنتِ أيضاً عن أزرق كيلس الخاص بك. الأزرق لونُ الأمل. استردِّي ألوانَكِ ولا تسمحي للظلمات بأن تستولي عليكِ...

نطقتْ تلك الكلمات من دون افتعال، وبابتسامة بسيطة.

عندما ركبتُ سيارتي، استرجعتُ هاتفي المحمول الذي كنتُ قد تركتُهُ بداخلها. وكنتُ قد توصلتُ بعدد من الاتصالات والرسائل القصيرة التي يعبّر أصحابُها عن قلقهم عندما لاحظوا أن المكتبة لم تفتح بابها. وحاول ناثان أن يتصل بي مرات عديدة، ومن الأكيد أنه كان الأكثر قلقاً من بين الجميع.

وجدتُهُ في البيت فطمأنتُهُ بابتسامة كبيرة:

- كلُّ شيء على ما يُرام، حبيبي. كنتُ بسولان لأحمل إلى الأخوات كتاباً كُنّ قد طلبْنَهُ مني.

- في سولان! عند الأخوات؟ النهار كلّه؟ لكن منذ متى تقومين بالتوزيع بنفسك؟

من الواضح أن ناثان كان يجد كلَّ ذلك غريباً...

- أنصت إليّ، يا عاشقي، أفهمُ أن تجد الأمر غريباً، وأنا أيضاً عندما غادرتُ البيتَ، لم أكن أعتقدُ بتاتاً أني سأقضي النهار كلَّه خارج المكتبة، لكن الأمور تعاقبت وأسلمتُ لها القياد. والأكيد هو أن هذا النهار قد أفادني بشكل لا يُوصَفُ!

- هذا ما ألاحظُهُ! ثم ألاحظُ كذلك أني قد صرتُ عشيقكِ، وهو أمرٌ جميل، على الرغم من أني أجد التعبير أقرب إلى لغة الشباب.

- اغتنم الأمرَ! أنتَ عاشقي ومن المفيد أن يكون المرء قليلاً وردة زرقاء، زرقة كيلس...

- عمَّ تتحدّثين؟

- أتتذكر كتاب كيلس؟

- أكيد!

- وتتذكَّرُ الأزرقَ في الزخارف؟

- أجل، رائع!

- تصوّر أن ذلك العمل الذي حملتُهُ إلى سولان يتعلق بكتاب كيلْسْ، وأن الراهبات يبحثن عن إعادة إنتاج ذلك الأزرق الذي يبدو أنه كان يُستخرجُ من نبتة كانت تُزرَعُ قديماً.

- يا لها من مصادفة! كم أحببتُ تلك الرحلة! إحدى أجمل رحلاتنا. كم أودُّ أن أعود إلى إيرلندا! ليس من أجل الكتاب فحسب، لكن أيضاً من أجل الحانات وجعَّتهم الشقراء الشهيرة، الـ«سميثويكس»!

- طيب! سأتكفَّلُ بحجز نزل بسيط ونرحلُ في يوليو!

- نعم، أقصد، سنرى فيما بعد، لستُ أدري...

- توقف ناثان! أنا أعرف. نعلمُ جميعاً بأمر العملية الجراحية، لكن إن أردتَ، من الأفضل أن نُغَيِّرَ اختيارَنا، وبدل أن نعيش في القلق، لِنَعِشْ في الأمل. والأفكار تسبق الأفعال، فأنا أعتقد أن كلّ شيء سيسير على خير، وأننا في شهر يوليو سنكون في إيرلندا نغنِّي في حانة مع الإيرلنديين!

- سأكون أوَّلَ المبتهجين! ومن ناحية أخرى يؤثر فيَّ كثيراً أن تشرعي في الصلاة لأجلي! بعد كل تلك السنوات التي قضيناها معاً، آن الأوان...

- لا تسخر مني، ناثان. أعرفُ ما تُفكِّرُ فيه. تَظُنُّ أنني أعود إلى الدِّين لأنني أمرُّ بلحظة أحتاج فيها إلى سند يُخفِّفُ من مخاوفي. أتجدني نفعيّةً؟ صحيحٌ أنني أحببتُ تلك اللحظات التي قضيتُها في

سولان، لقد خامرني إحساسٌ أن الصلاة المشتركة مع الأخوات قد جعلتني أقلَّ وحدةً، وأنني قد وزَّعتُ على أكتافِ أخرى ثقلَ قلقي. كُنْ متسامحاً بعض الشيء، واعترِفْ بأن الأمر، في جميع الأحوال، لا يمكن أن يصيبك بمكروه.

في الأسبوع الموالي، كانت الأخت ڤيرونيكا في السوق. أشرتُ لها بيدي بينما كانت مشغولة بخدمة زبائن.

وبعد أن جمعَتْ معرضَها الصغير، جاءت لزيارتي.

- طابَ نهارِكِ أختي.

- طاب نهارُكِ، عزيزتي ناتالي، مررتُ لأخبركِ بأننا قد توصلنا ببذور النّيلج وأننا سنصنع الشتلات هذا الأسبوع. كانت الأمُّ الرئيسة تريد أن تقترح عليك أن تلتحقي بنا من أجل ذلك. أيمكنُكِ أن تأتي ذات يوم بعد الزوال؟

- هذا لطيف جدّاً! يوم الاثنين تكون المكتبة مقفلة. سآتي بكل سرور.

اقترحتُ على ناثان أن يرافقني، لكن من الواضح أن الاستجابة للطلب كانت فوق طاقته.

- تعرفُ أنكَ لن تتحوَّلَ إلى راهبٍ على الرغم من أنفك!

- ربما، لكنني ليست لديّ أي رغبة في أن أذهب لأسمع أناشيد مُخَدَّرَةً بروائح البخور!

- يا لكَ من مسكين ناثان، لو تعلمُ، كم هي أشدّ رقَّةً مما تظن...

لم أستطع أن أُقنعهُ، وعدتُ وحدي إلى دير سولان.

كانت الأخـواتُ قد أقـمنَ موائد فـي الـخـارج، وتـوزّعـن إلـى جماعـات أزواج، تـصنـع كـلُّ جمـاعـة شتـلاتـهـا. كـان الـبعـض يُعِدُّ الملفوفَ، وأخريات الجَزَرَ، وأنا النّيلجَ.

كنتُ رفقة الأخت ڤيرونيكا، واكتشفتُ ذلك الفعلَ الثابتَ منذ سحيق الأزمان، والذي يُطعِمُ الفلاحون، بفضله، الإنسانيةَ في جميع أنحاء العالم.

كنتُ أضعُ في كلِّ كوزٍ صغيرٍ قليلاً من التراب الرقيق، مخلوطاً بالرمل، ثـم كنتُ آخُذُ بـذرةً بطرف أنملة أصبعي وأضعها في وسط الكوز الصغير، قبل أن أغطيها بطبقة رقيقة من التراب.

- هـكـذا، فـهـذه الـبـذرة الـصـغيرة الـيابسة هي التي ستصير نبتةً صغيرة؟

- أجل، بذرة صغيرة يخرج منها، عند احتكاكها بالأرض والماء، جذورٌ دقيقة. ثم يقوم الضوءُ بتغذية النبتة التي تتطاول نحو السماء. الضوء، والأرضُ، والماءُ، مزيجٌ سحريٌّ وخالدٌ. تكبر النبتةُ، ثم تظهر الزهورُ. تؤتي هذه ثماراً وحَبّاً، ويمكن للدورة أن تبتدئ من جديد إلى ما لا نهاية. لا شيء يموتُ، كلُّ شيء يتحوَّلُ...

انصرفتُ من سولان وبحوزتي هديّتان: كوزٌ صغيرٌ يحتوي على بذرة لنبتة النيلج، وأيقونةٌ صغيرة للعذراء من صنع الأخوات.

يومَ عملية ناثان، رافقتُهُ إلى مستشفى مدينة نيم. انتظرتُ أن يذهب إلى جناح العمليات ووضعتُ سرّاً أيقونةَ العذراء في غرفته. كنتُ قد قررتُ أن ألتحقَ بالأخوات في أثناء خضوعه للعملية. كان الأطباء قد أخبروني أنني لن أتمكّنَ من رؤيته قبل نهاية النهار.

في سولان، التحقتُ بالراهبات اللواتي كنَّ يُشَذِّبْنَ الكروم. تعلّمتُ كيف أتعرّفُ على السيقان التي ستثمِرُ فاكهة، وأن أقطع تلك التي لن تُطلِعَ سوى أوراقٍ ويجب أن تُزال.

وعندما كنا في الحقول، كانت الأخوات يُغنّين باستمرار.

لم يسألنني في أيِّ لحظة عن سبب حضوري. قدَّرتُ ذلك التحفُّظَ. كان ترحيبُهم بي ليس مشروطاً لا بشخصي ولا بأسبابي.

بعد الغداء، عرضَتْ عليَّ الأختُ ڤيرونيكا صورةً من كتاب كيلس، لم تكن تنقصها الفكاهةُ: يُطاردُ قطٌّ فأراً سرقَ رقاقة خبز مقدّس. ابتسمتُ وأنا أفكِّرُ في ناثان الذي لم يكن قادراً على أن يمتنع عن أن يغمس أصابعه في رغوة الشكولاتة عندما أُحَضِّرُها، أو ألَّا يخطف حلوةَ مكرون عندما أُخْرِجُها من الفرن.

وقبل أن أغادر سولان لأعود إلى المستشفى، شكرتُ الأُمَّ الرئيسةَ على جميل عناية جميع أفراد جماعتها.

- عزيزتي ناتالي، سأعترفُ لكِ بأمر. نريد تنظيمَ ملتقى للخطَّاطين من مختلف الديانات في سولان. وبهذه المناسبة، كنتُ أريدُ أن نحصل على واحد من نُسَخِ كتاب كيلس الـ1480. الصفحات الـ680 أعيدَ نسخُها بدقة عالية، حتى الـ580 ثقب التي أحدثَتْها الحشراتُ على مَرِّ القرون! وقد توصلتُ مؤخّراً بردٍّ إيجابيٍّ من أصدقائنا الإيرلنديين. الأخت ڤيرونيكا لا تعرف الأمر بعد... وإذا وافَقْتِ، سنستدعيكِ لتحضري معنا ذلك الملتقى.

- هذا أمرٌ رائع! شكراً! شكراً على كل شيء...

عندما وصلتُ إلى المستشفى، كانت حجرةُ ناثان خالية. أخبرتني مُمَرِّضَةٌ أن كلَّ شيء قد مرَّ على ما يُرام، وأن ناثان كان على وشكِ أن يصعد من غرفة الاستيقاظ.

كان ذاهلاً تماماً عند وصوله. أخذتُ يدهُ وبقيتُ أداعبها بصمت.

وعندما استعاد وعيهُ، وقعَ بصرُهُ على أيقونة العذراء، فالتفتَ نحوي وعلى شفتيه ابتسامةٌ شاحبة:

- لقد نجحتِ في تحقيق ضربتكِ أنتِ ورفيقاتُكِ ورئيستُهم الكبرى!

- أجل! والصيف القادم سنذهبُ إلى إيرلندا... بحثاً عن غلاف كتاب كيلس.

- لماذا تقولين هذا؟

- ألا تتذكر أنّ الكتاب كان قد سُلِّمَ إلى كيلس من لدن الفيكينغ، وأنه قد اختفى بطريقة غريبة. وعندما عُثِرَ عليه من جديد، كان غلافُهُ المُرَصَّعُ بأحجارٍ كريمة قد نُزِعَ ولم يوقَفْ له على أثر... وقد حان أوانُ البحث عنه!

ضممتُ ناثان بين ذراعيَّ طويلاً. وقد كان كلُّ شيء بيننا على ما يرام ما دمنا قد استعدنا قدرتَنا على السخرية!

عندما عدتُ إلى البيت، وحيدة لكن سعيدة، وجدتُ مفاجأةً في انتظاري: في الكوز الصغير الذي حملتُهُ معي من سولان، كانت نبتةٌ صغيرة قد طلعَتْ من التراب.

«نعرفُ السعادةَ من الصوت الذي تُحدِثُهُ عندما تنصرفُ».

استعملت ماري غريسينجر (Marie Griessinger) استشهادَ بريڤير (Prévert) عنواناً لأول كتابٍ لها. تحكي فيه أَلَمَ فتاةٍ تفقدُ أباها في مرضٍ بطيء، يُدعى «لووي» (Lewy)، حيث تمّحي قدرات المريض العقلية شيئاً فشيئاً.

تأثَّرتُ كثيراً بذلك الكتاب لأن الفتاة إنما تسترجعُ قوَّتَها عندما تلجأُ إلى الذكريات السعيدة. تلك الذكريات التي يتملَّكُها المرءُ إلى الأبد.

كان قد راقني أن علمتُ أن أوزيس قد شكَّل أحدَ فضاءات السعادة بالنسبة إلى تلك الأسرة. أما استشهاد بريفير فينبغي، في رأيي، أن يُعَلَّقَ على أبواب جميع الثلّاجات. يجب أن نَعِيَ كلَّ صباح أنَّ ما نملكُهُ يُشبهُ السعادةَ قليلاً أو كثيراً، حتى لا ننتبه ذات يوم، لكن بعد فوات الأوان، على إثر وقوع حدث خطير في حياتنا، إلى أننا كنَّا سعداء.

تربيةُ الفرح أمرٌ ضروريٌّ. وقد حاولنا دائماً، مع غيوم وإيليز، أن نتخذ من الفرح سنداً عندما كان الجوُّ العام يميلُ أكثر إلى الكآبة. وهذا هو السبب الذي جعلنا نُقرِّر الاستغناء عن التلفزيون في البيت؛ فالقنوات التلفزية كانت قد دخلت فيما بينها في مزايدة حول أيّها سيعرضُ الصور الأكثر قسوةً، وتفسح كلَّ يوم فضاء أوسع أمام الوقائع المثيرة على حساب الأفكار.

فبعد أن وضعنا التلفزيون في القبو، لم نحتج إلى وقت طويل لتصير الأمسياتُ من جديد أوقاتَ لعبٍ، أو حديث، أو قراءة. أن نمنح فرصة للفرح، يعني أن نجد الأماكن، والأوقات، والناسَ الذين

يمكن أن تولد معهم، ولكن يعني أيضاً أن نتعرَّف عليها وسط البقية. عندئذٍ يمكننا أن نُغذِّيَها، وأن نتعهَّدَها، ونُنَمِّيَها، ونتشاركها.

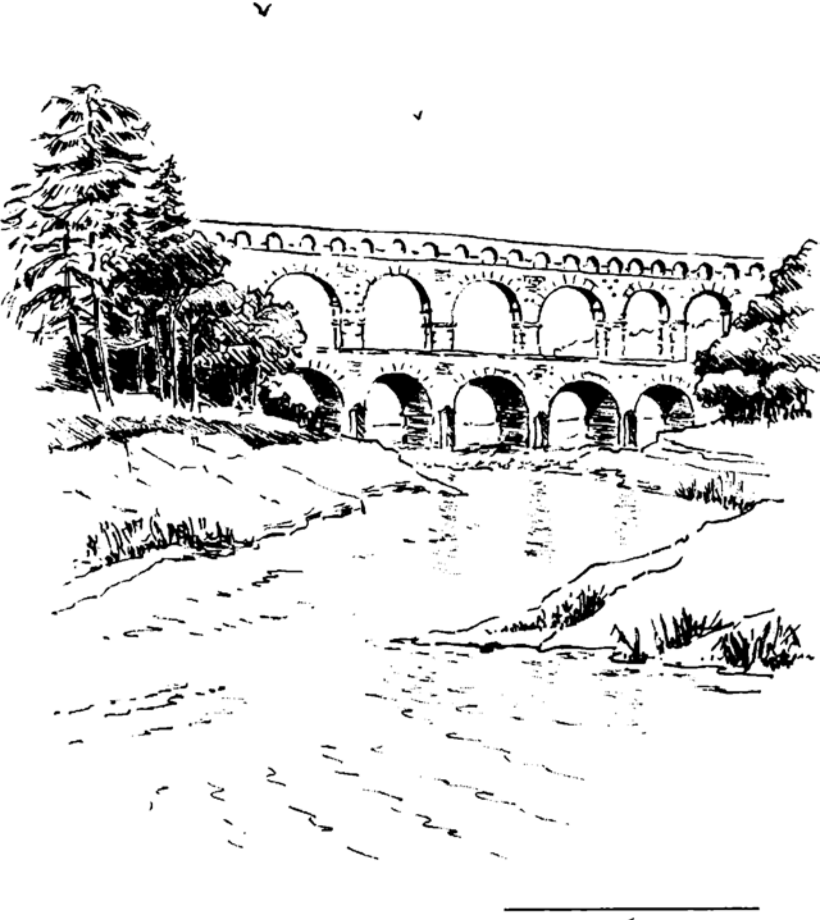
عندما دخل ناثان إلى المستشفى لإجراء العملية، قلتُ لنفسي إنه «يومٌ مُرَجِّحٌ». هكذا أُسمّي تلك الأيامَ التي نكون في أثنائها على موعد مع قدرنا. يمكن أن يكون ذاك هو اليوم الذي نتوصل فيه بنتيجة مباراة ولوج مدرسة طالَ انتظارها، أو يوم نقوم، نحن أو قريبٌ من أقربائنا، بإجراء فحص طبيٍّ، أو حتى اليوم الذي ينتظر فيه الأجراءُ معرفةَ إن كان يوجد من سيشتري شركتهم التي تمرُّ بظروف صعبة.

أيامٌ يمكن أن تتخذ فيها الحياةُ منعطَفاً أصعب. عند اقتراب تلك اللحظات، كنتُ ألاحظُ دائماً أن مستوى وعيي بنوعية حياتي وجودتها يكون أعلى؛ فالقلقُ أمام ما يمكن أن يحدث كان يكشف وضعية الكائن السعيد التي كنتُ أعيشها.



آرثور

«صِرْ مَنْ أنت!»[1]



(1) هكذا تكلَّم زرادشت، فريدريك فلهلم نيتشه.

أفتح المكتبةَ صباحاً في التاسعة، لكني أصلُ ساعةً قبل ذلك لأحظى بساعةٍ أعيد فيها ترتيبَ الرفوف التي انفرطَ نظامُها بالأمس.

في الشتاء، في الثامنة صباحاً، يكون الوقتُ لا يزال ليلاً. وأن تفتح المكتبةَ في الليل أغربُ من أن تقفل عندما يسودُ الظلام.

أشعر كأني أوقِظُ الكُتُبَ وجميعَ الذين ينامون بداخلها. وبما أنني نَؤومٌ، فإنني أحسُّ بالإشفاق على كلِّ ذلك العالم الصغير. وفي ذلك الصباح، شهد جناحُ الأعمال الكلاسيكية، أكثر من غيره، أشغالَ إعادة الترتيب والتنظيم.

كان هوغو مقلوب الرأس، وموبسان وجد نفسَهُ بين الروايات البوليسية، وراسين قد التحق بطاولة الكتب الجديدة.

أتنقَّلُ، في العادة، بواسطة الدراجة الهوائية. دراجة هولندية جميلة، بنفسجية اللون، تقريباً بلون سيارة أجرة فريد أستير (Fred Astaire) في فيلم إيف بواسيه (Yves Boisset) المأخوذ من كتاب ميشيل دِيون (Michel Déon).

أُعلِّقُ قفّةً فوق الواقي الأمامي، وأخرى فوق حامل الأمتعة الخلفيِّ. وهذا يسمح لي أن أنقل معي كتباً في الأولى، ومقتنيات السوق في الثانية. يعرف الجميعُ، في أوزيس، «درّاجةَ الكُتْبيّة»، وأحياناً أجد داخل إحدى القفّتين علبةَ مربّى فارغة أو بعض الفواكه أو الخضراوات الطرية.

في عزِّ الشتاء، أتنقَّلُ بالسيارة، وأحسُّ في الأيام التي أضطرُّ فيها إلى أن أحكَّ واجهة السيارة الأمامية أنني أعيش في ألاسكا. فأنا أيضاً لا أحملُ البرد كثيراً!

وهناك شخص آخر يتنقل دائماً بالدراجة، إنه آرثور، ساعي البريد الشاب.

غالباً ما يكون آرثور أوّلَ من يدفع باب المكتبة. يحمل إليَّ، بالإضافة إلى الرسائل الإدارية، كتباً مفردةً تُرسلها دور النشر المستقلة، التي لا تَسْلُكُ في توزيعها شبكاتِ توزيع دور النشر الكبرى. وتكون في الغالب تلك الكتب طلبات الزبائن، وأهتمُّ بها كثيراً لأني أكتشف بتلك الطريقة جواهرَ حقيقيةً.

آرثور إنسانٌ كتومٌ. عيناه، المختفيتان دوماً خلف خصلة شعر طويلة لا يفتر عن رفعها عندما يتحدث إليك، سوداوان عميقتان في سوادهما. يعتمرُ، صيفاً وشتاء، قبّعةً جلديةً ذات لون بُنِّيٍّ، شديدة البلى، تجعله يبدو مثل الأوغاد في الأفلام الأميركية زمن منع تجارة الكحول.

وقد كان راسين هو صاحب الفضل في أول حوار حقيقيٍّ بيننا. شاهدَ ساعي البريد الشابُّ الكتابَ الذي كنتُ بصدد إعادته إلى مكانه، فقال، كأنه يُحدِّثُ نفسه:

- «ولدينا ليالٍ أجملُ من أيامكم»...

- عذراً؟

- راسين. إنما كتبَ هذا تحت سماء أوزيس.

- لم أكن أعلمُ ذلك. لكنه لا يُدهشني، فنحن بالفعل نتمتعُ هنا بمشاهد سماوية حقيقية!

- أجل. وهنا أيضاً أكملَ كتابةَ أفكاره عن **أوديسا** هوميروس.

بدأ أمرُ ساعي البريد الشاب الأديب يحيِّرُني، فتعمّدتُ إطالة الحديث.

- أتُحِبُّ راسين؟

- أجل. لكن ليس راسين وحده. أحبُّ المسرح والشعر. هنا، جميع تلاميذ الثانوي قد درسوا مراسلات راسين!

- وبفضل ذلك لا تزال لديك هذه المحفوظات!

- أجل، ذلك بفضل السيد «شُولي»، أستاذنا في الفرنسية. كنتُ أنتظرُ كلَّ درسٍ من دروسه بفارغ الصبر! ابتدأ كلُّ ذلك عندما قرأتُ **على ضفاف خليج السِّرت** (*Le Rivage des Syrtes*) لجوليان غراك (Julien Gracq). اكتشفتُ أنّ الكلمات ليست أدوات متطفِّلة على الفكر الإنساني. وأنها ليست مجرد لبلاب يتدلى من شجرة، بل هي الشجرة ذاتها.

- أحبُّ كثيراً **على ضفاف خليج السِّرت**. أنا أيضاً، قبل أن أنتقل إلى أوزيس، كنتُ أُدَرِّسُ الأدبَ.

- حقيقة! خسارة أنك لم تستمري في ذلك العمل!

- الكُتْبيّةُ أيضاً، مهنةٌ جميلة.

- آه، أكيد! لكنني أنا أعلمُ أنني إنما كنتُ سعيداً حقّاً عندما كنتُ في الثانوية. لذلك أُكِنُّ الكثيرَ من العرفان بالجميل للمدرِّسين.

وهو يقول هذا، مرّتْ سحابةٌ في عيني الولد. كان يبدو لي أن آرثور في العشرين من العمر. ولم أكن أريد أن أطرح أسئلةً فضولية، لكن شيئاً ما لم يكن طبيعيّاً. في ذلك السّنِّ، لا يخرجُ الشبابُ، الذين يحبون المدرسة، إلى العمل، بل يواصلون دراساتهم.

- طيب. يوجد الكثير ما يُقال، لكن عليَّ أن أذهب للعمل! طاب نهارِكِ، سيدتي.

- يمكنكَ أن تخاطبني بناتالي.

- إذاً، أنا آرثور.

- طاب يومُكَ آرثور!

وعدتُ نفسي أن أستأنف معه ذلك الحوارَ في أقرب فرصة.

في صباح اليوم الموالي، لم يتحقّق ذلك، غير أنّ آرثور بعد ذلك بيومٍ واحدٍ جاء ليُسَلِّمني طردين ورزمةَ رسائل.

كنتُ منشغلة بإعداد لافتة للإعلان عن تنظيم أمسية رفقة عبد النور بيدار الذي كان قد نشر مؤخّراً رواية **النسّاجون** (*Les Tisserands*). كتابٌ جميلٌ يعالج فكرةَ أن الإنسان يتوصّلُ إلى خيط من ذهبٍ عندما يعرفُ كيف يُغذِّي ثلاثة روابط: بذاته، وبالآخرين، وبالطبيعة. والنسّاجون هم أولئك الذين يُصلِحون ثوبَ العالمِ الممزَّقَ بواسطة ذلك الخيط الذهبيِّ.

- مرحباً، آرثور.

- مرحباً، سيدتي.

- ناتالي...

- أجل. أهلاً، ناتالي.

- أنا بصدد إعداد لافتة لأنني سأستقبل يومَ الجمعة عبدَ النور بيدار من أجل تقديم كتابه الأخير وحصة توقيع الكتاب وإهدائه. أترغبُ في الحضور؟

- بكل سرور، لكن أليسَ الأمر مقصوراً على زبائنكِ؟

- لا، الحضور مجّانيّ.

- إذاً سأحضُرُ. أحببتُ كثيراً **رسالة مفتوحة إلى العالم الإسلامي** (*Lettre ouverte au monde musulman*).

- آه حقّاً... قرأتَ ذلك النص؟

- أجل. استعرتُهُ من المكتبة الوسائطية.

انتبهتُ إلى أن طريقة إبداء اندهاشي من كونه قد قرأ ذلك الكتابَ كانت غير ملائمة، الأمر الذي دفع بالشابِّ إلى توضيح أنه إنما يحصل على الكتب بفضل المكتبة الوسائطية.

- ممتاز! إذاً ستأتي؟

- أجل، أجل.

تجري الأنشطة التي أُنَظِّمُها في القبو الذي يتصل بالمكتبة بسُلَّم داخليٍّ. مُدَرَّجٌ صغير يتكوّنُ من كراسي من إسمنت خالص تسمح باستقبال حوالي مئة شخص. وهذا مؤهِّلٌ حقيقيٌّ يساعد في تنظيم الأنشطة، الضرورية لحيوية المكتبة وإشعاعها.

جميعُ الأنشطة التي أقترحُها تملأُ القاعة.

آخر نشاط كان يدور حول فرانسواز هوگييه (Françoise Huguier) على إثر صدور كتابها **في الأصبع والعين** (*Au doigt et à l'œil*)، سيرتها الذاتية. يُقرأُ كتابُها مثل رواية مغامرات حقيقية. قبل أن تُصبح المصوِّرةَ الشهيرةَ التي يعترف الجميعُ بقدرتها على التقاط عدستها لأبطال الحياة اليومية في مختلف أنحاء العالم، كانت قد عاشت طفولةً طبعَهَا تعرُّضُها للاختطاف في الكامبودج، في سنِّ الثامنة. تحكي، من دون حساسية زائدة ولكن بكثير من الصراحة، عن

ذكريات طفولتها، قبل أن تُعلِّقَ على بعض روبورتاجاتها التي صنعت مجدَها.

كنتُ قد أقمتُ مِسْلاطاً يسمح بمصاحبة كلماتها بالصُّور. ومن دون فاصل، كنّا نمرُّ من اليابان إلى سيبيريا، بعد توقف في أفريقيا، سنغافورة، كوالالمبور... والنقطة المشتركة بين جميع الصور، تتمثل في كون شخصيات الصور أناساً عاديين في وضعيات قد تبدو لنا أحياناً مُقلِقة، لأنها جدّ بعيدة عن واقعنا اليوميِّ نحن الغربيين. رَوَتْ لنا فرانسواز هوگييه كيف كانت تتمكّنُ من ولوج أبواب أولئك الغرباء ليقبلوا بعد ذلك بأن يسمحوا لها بتصويرهم في أثناء حياتهم الشخصية، الأكثر خصوصية في بعض الأحيان. لكلِّ صورة حكايتُها، وأنا أعشقُ تلك الحكايات.

كانت الأمسية رفقة فرانسواز هوگييه قد خلّفتْ أثراً حميداً في العقول، الأمر الذي حفّزني على تجديد الدعوات حول مُصَوِّرين آخرين، ليساعدونا على تحليل شفرات نَحْوِ الصورة ومعجمها المخصوص. في عالم تتدفّقُ فيه أمواجُ الصور باستمرار، وحيث لا يوجد النص أحياناً إلّا في هيئة تعليق من سطور قليلة، من دون أيِّ تحليل، يكون من الضروريّ أن نتعلَّمَ «قراءة» صورةٍ من خلف ما قد تثيرُهُ فينا من أثر عاطفيّ.

عندما يكون ناثان موجوداً معي يأتي ليمدّني بيد المساعدة في تنظيم تلك اللقاءات. وبينما كان يرافقني من أجل أمسية عبد النور بيدار، حكيتُ له حديثي مع ساعي البريد الشاب. كنتُ أريد أن أُقَدِّمَهُ إليه.

- لا أعرفُ السبب، لكن في حياة ذلك الولد أمرٌ ما، أريدُ أن أفهمهُ.

- أخشى أن تكوني بصدد التحوّل إلى أكبر ثرثارة في أوزيس!

- لا أبداً! أعتقد فحسب أن هذا الولد ليس في المكان الذي يستحقه... مجرد حدس.

- آه... إذاً فإني أنحني أمام الحدس النسائيِّ الشهير. لكن يجب أن تعرفي أن ساعي البريد مهنة جميلة. ونحن في حاجة إليها!

- أجل، لكن منذ أن أُنْشِئَتْ صناديقُ البريد الجماعية الخاصة بعمارات السكن الاجتماعي على جوانب الطرق، لم يعُد ساعي البريد يرى أناساً كثيرين في أثناء دوراته. ومرة أخرى تتسبّبُ المردوديةُ في الخراب على حساب الرابط الاجتماعي!

- هل تتذكّر أغنية موستاكي (Moustaki) الجميلة التي كنتُ أغنيها على الغيتار عندما التقيتُ بك؟

شرعنا نغني معاً:

«هو مَنْ كان يأتي كلَّ يوم
ذراعاهُ مُحَمَّلَتان بكلِّ كلمات حبّي

حملَ معه
آخرَ الكلمات التي كتبتُها لك

لم يعد في استطاعة الحب أن يسافر
لقد فَقَدَ رسولَهُ».

شيئاً فشيئاً، تمتلئُ الكراسي.

كنتُ أترقَّبُ وصولَ آرثور، لكن وقت بَدْء أمسيتنا كان قد حان، فاضطررتُ إلى أن أبدأ الأمسية من دونه.

مرَّ كلُّ شيء على ما يُرام، لكن ناثان أدركَ أني كنتُ أشعر بالخيبة بسبب غياب آرثور.

في صباح اليوم الموالي لم يحضر ساعي البريد الشّاب، ولا في اليوم الذي بعده.

طلبتُ البريدَ بالهاتف لأسأل إن كان قد أصابهُ مكروه، لكنهم طمأنوني وأخبروني أنّ الأمر لا يعدو أنني لم يصلني أيُّ بريد في ذينك اليومين.

وعندما دفع آرثور بابَ المكتبة، ارتاح بالي، وتمكّنتُ أخيراً من أن أعرف قصة الشّابّ.

- طاب نهارِكِ. كم تأسّفتُ لعدم قدرتي على حضور أمسيتكِ. أنا واثقٌ أنها كانت رائعة.

- أجل. افتقدناك. افتقدتكَ أنا على الأصح... كنتُ أرجو أن تكون حاضراً معنا.

قلتُ له ذلك بصراحة، ومن دون عتاب.

- هذا لطفٌ منكِ، لكنني لا أستطيع أن أفعل كلَّ ما أريد في المساء. تملكُ والدتي مطعماً، وأحياناً عندما يكثر الزبائن، تطلب مني أن أساعدها.

- آه حقّاً. وأبوكَ؟

- والدايَ منفصلان. يعيش أبي جهة مدينة لِيل.

- آه... ليس سهلاً كلُّ هذا.

- لا. لكن هذا هو الحال. هذه حياتي.

استشعرتُ كثيراً من التسليم عند آرثور، كأن حياته قد سقطت عليه مثلما تسقط خصلة الشعر على وجهه فتعترضُه.

- ألهذا السبب أنتَ ساعي البريد؟

- ماذا تقصدين؟

- لم تتمكّن من إتمام دراستك.

- أجل. لم يجد أبي أبداً مالاً كافياً ليدفع مبلغ النفقة لأمي، ومداخيلُ المطعم غير ثابتة! لكنني لا أشكو. عندما يكون المرءُ ساعي البريد، ينتهي عملُهُ في منتصف النهار، وهذا يتركُ لي الكثيرَ من الوقت للقراءة ولمساعدة والدتي.

- لكن ماذا كنتَ تودُّ أن تعمل لو لم يكن عليك أن تساعد والدتَك؟

- مُمَثّل. كنتُ أودُّ أن أصير ممثّلاً!

كان آرثور قد قال ذلك بلهجة من يُعلنُ حبَّهُ، وهو يُلوِّحُ بخصلته إلى الخلف، وعيناهُ تلمعان لأول مرة منذ أن عرفتُهُ!

- لكنك لا تستطيع أن تبقى هكذا يا آرثور! لم توهَبْ لكَ الحياةُ لتكون ساعي البريد! أتريد أن يُكتَبَ فوق قبركَ «إمكانات سليمة، لم تُستَغَلّ»!

عبّرتُ عن رأيي من دون احتراز، غير أنني أدركتُ جيداً أن كلامي كاد أن يتجاوز الحدود. مَن أنا لأحكم وأفصل بين ما يصلح لذلك الولد وما لا يصلح له!

- أنتِ طيّبةٌ لكن الأمر مستحيلٌ. أنتِ لا تُدركين...

- أنصِتْ إليَّ. في هذه اللحظة لن نستطيع أن نتحدث عن كل هذه الأمور كما ينبغي. غداً نلتقي في مطعم «تن» للغداء عندما تنتهي من القيام بدورتك، وعندئذٍ سنرى ما هو المستحيل. هل أنتَ موافق؟

- أوكي.

التقيتُ، وأنا خارجة من المكتبة، بـ«هيرفي»، رجل يعرفه الجميعُ لأنه يُغنّي في شرفات المقاهي. يُوَقِّعُ على الغيتار أغنياتٍ جميلةً باللغة الأوكتيانية. عند بداية كلّ أغنية، يقوم بترجمة سريعة لما سيُغنّيه. وذلك يسمح بمعرفة بعض الكلمات التي تتكرر في النص.

أحبُّ الحديث معه لأنه أكثر الناس معرفة بتاريخ منطقتنا.

كانت أغنيتُهُ تتحدَّثُ عن «أوغ»، المنبع الذي يُزَوِّدُ أوزيس بماء الشرب. يوجد في وادٍ صغير عند أسفل المدينة. ومنبعُ «أوغ» شهيرٌ جدّاً، لأنه في القديم، كان يُزوِّدُ مدينة «نيم»، ومن أجله بُنِيَ جسرُ «غارد» الشهير.

يفتخر سكانُ أوزيس بتاريخهم، وإن كان تاريخاً مضطرباً في بعض الأحيان: أُعيدَ بناءُ الكاتدرائية ثلاث مرّاتٍ، ودفعوا ثمناً باهظاً إبّان اضطهاد البروتستانتيين، لأن أوزيس كانت خامس مدينة بروتستانتية في فرنسا.

كنتُ دائماً شديدة الفضول بإزاء الناس الذين ليسوا كالآخرين. المهمّشون هم في الغالب أصحاب رؤى، وروّادٌ، وأحياناً مقاومون.

يستطيعون التعبيرَ علناً عن تلك الأجزاء المدفونة من ذواتنا، والتي يوقظونها عندما نقبَلُ أن نواجه عالمَهم.

لقد عاش عددٌ من الكتاب، قبل أن يشتهروا ويُمدَحوا، في تلك الفضاءات السيئة التحديد، مستغلين أحياناً اضطراباتهم العصبية لدرجة أن أصبحوا عباقرة بفضل ذلك.

كم هم الكتّاب، الكلاسيكيون أو المحدثون، الذين استطاعوا أن يُعبِّروا بكلمات عن مهاوي الروح الإنسانية. كلماتُ أنطونان آرتو (Antonin Artaud) هي كلماتُ رجلٍ أُدخِلَ إلى مستشفى الأمراض النفسية لسنواتٍ عديدة. فيرجينيا وولف (Virginia Woolf)، وهمنغواي (Hemingway)، ورومان غاري (Romain Gary) كلهم قد انتحروا، لكنهم أَوْرَثُونَا نصوصاً من أكثر النصوص الأدبية حساسية. ويوجد آخرون ذوو رُهاباتٍ أقل مأسوية: كانت كوليت (Colette) لا تكتبُ إلا على ورق أزرق، وباربيه دورڤيلي (Barbey d'Aurevilly) بالمداد الأحمر، وإدموند شارل-رو (Edmonde Charles-Roux) عاريةً!

اكتشفتُ، مؤخَّراً، **ذاكرة فتاة** (*Mémoire de fille*) لآني إيرنو (Annie Ernaux)، حيث تحكي، بعد خمس وعشرين سنة، كيف أن حياتها ظلّت دائماً مسكونةً بالحياء جراء علاقتها الجنسية الأولى.

بعثتُ بالكتاب إلى إيليز، مرفقاً برسالة طويلة أقول لها فيها كم أرجو أن تحافظ على ذلك الجانب الحميم في حياتنا، والذي يمكن أن يُدَمَّرَ بسهولة عندما نفتح أذرعنا لغرباء نتعرف إليهم ذات مساء، ويكونون إمّا أناساً لا مبالين أو أوغاداً.

كانت شرفةُ المطعم حيث أنتظر آرثور تغمرها الشمسُ، وتسمح بتناول الغداء في الخارج، حتى في عزِّ الشتاء، وتلك ميزة شمس

الجنوب! يمكن للنهار أن يبدأ تحت الصقيع وأن يسخن سريعاً، عندما لا تحشرُ ريحُ الشمال أنفَها في الأمر.

تساءلتُ إن كان آرثور سيحضر للقائي. ولم أكن قد نمتُ جيّداً تلك الليلة.

فكّرتُ من جديد في أمثولة المواهب في الإنجيل التي كان لا يزال يعلقُ بذهني ذكرى غامضة عنها. كان من بين ما أتذكّرُهُ ذلك التأنيب الذي يوجهه الأبُ لابنه: «ماذا صنعتَ بمواهبكَ!».

وصل آرثور. كان قد استبدلَ ببدلة ساعي البريد سروالاً وحذاءَ فارس. وكان يرتدي سترةً جميلة من المخمل الأسود، وقد عقد حول عنقه وشاحاً أحمر.

- أودُّ أولاً أن أقدِّمَ لكَ اعتذاري، آرثور. ليس لي أيّ حق لأقول لكَ ما يجب أن تفعله بحياتك. أنا لستُ والدَتَكَ، وطبعاً لستُ والدَكَ كذلك...

- لا تعتذري. أحبُّ والدَيَّ حبّاً عميقاً، لكنني أعلمُ أيضاً أنني لم أكن أولوية بالنسبة إليهم. لذا فأن أكون موضوع اهتمام أحدٍ ما هو دائماً أمرٌ شديد الوقع في نفسي. لا يهتم بأطفال الآخرين سوى المدرّسين. أتعرفين، لقد فكّرتُ طويلاً في تلك الجملة منذ أن سمعتُها منك... «إمكاناتٌ سليمة، لم تُستغَلّ».

- إذاً، إن أردتَ، سنحاول أن نتحدث عن الأسباب التي تجعل الأمر «مستحيلاً»، مثلما أجبتَني في ذلك اليوم، والتي تمنعُكَ من أن تقوم بالأعمال التي من شأنها أن تُقرِّبَكَ من تحقيق حلمكَ.

- أنا موافق.

طلبَ آرثور سَمكاً وبطاطا مقلية، وأنا سلطةَ حبّارٍ مشوي.

- ها أنا أُنصِتُ إليكَ، آرثور، أخبِرْني قليلاً عن السبب الذي يجعل من المستحيل أن تُصبح ممثلاً.

- لأنني لا أملكُ الإمكانات اللّازمة لدفع ثمن مدرسة المسرح، والعيش في باريس، ولأنني لا أستطيعُ أن أتركَ أمي وحدَها في المطعم.

- هل تنتمي مدارسُ المسرح إلى القطاع الخاص؟

- أجل... لكن، ليس المعاهد، غير أن هذه الأخيرة يجب أن يكون المرءُ ذا موهبة كبيرة جدّاً لِيَلِجَها. وتوجد مباراة جدُّ انتقائية. فمن تلك المعاهد تَخَرَّجَ سابين أزيما، وبيلموندو، وجون روشفور، وأغلبُ الممثّلين الكبار.

- وأنتَ لستَ موهوباً جدّاً؟

- لستُ أدري...

- لماذا لا ننطلقُ من مبدأ أنكَ موهوبٌ جدّاً. وأنك ستقوم بكلّ ما يجب لتحضير نفسكَ لتلك المباراة. أتعرفُ كيف تُجرى تلك المباراة؟

- ليس حقيقةً. أظنُّ أن الأمر يتعلق بتمثيل مشاهد مختلفة من أعمال متنوعة.

- يمكنك أن تستعلم عن الأمر.

- أجل، لكن الحياة في باريس فاحشة الغلاء.

- هذا صحيح. لكنك يمكنك أن تصنع هناكَ ما تصنعُهُ هنا، أن تعثر على عمل صغير يُساعدكَ في الحصول على بعض المال. ألا تعرف أيَّ أحد يمكن أن يؤويكَ، على الأقل مدّةَ إجراء المباراة؟

- لا. أقصد أن هناك ابنة خال أمي، لكني لم أرها منذ زمن طويل.

- أتعتقد أن بإمكانك أن تتصل بها، بابنة خال أمك؟

- أجل...

- إذن أقترح عليكَ ما يلي: زوجي ناثان لديه الكثير من بطائق القطار التي تُهدى إليه ولا يستعملها. إذاً ستأخذ بطاقة إلى باريس، وستذهب لزيارة المعهد، وتطلب المعلومات حول ما يتوجب القيام به للالتحاق بالمعهد، ثم تذهب لزيارة قريبة أمكَ. وفي أثناء مدة إقامتكَ هناك ستبحث عن الأعمال الصغيرة التي يمكنكَ أن تقوم بها من دون أن يمنعكَ ذلك من متابعة دراستك. ثم بعد ذلك، نلتقي لنتحدث عن الأمر من جديد. أنا سأكون سعيدة بأن أساعدكَ على الاشتغال على نصوصك، إذا ما قررتَ أن تتقدّمَ لاجتياز المباراة الشهيرة.

كان آرثور ينظر إليَّ من دون أن يؤمن بأنّ هذه القصة يمكن أن تصبح قصّته. حنى رأسَهُ وأرخى خصلة شعره ليُخفيَ نظرَهُ.

- وأمي... تصوَّري أنني قد قُبِلتُ، كيف ستصنع هي؟

- آرثور، عندما وُلِدتَ، ماذا تظنُّ أن والديْكَ كانا يتمنّيان لولدهما، غير أن يكون أسعد الناس. أتعتقدُ أن الأمر قد تغيَّر؟ ماذا تقول لكَ والدتُكَ اليوم؟

- إن عليَّ أن أغادر أوزيس لأذهب لأعيش حياتي. ألَّا أبقى هنا لأجلها فحسب.

- وإذاً، ها أنتَ ترى! أتعلمُ لِمَ اختار لك والداكَ اسمَ آرثور؟

- أجل، بسبب الملك آرثور، فرسان المائدة المستديرة. لكن أيضاً، لأن أبي يحبُّ كثيراً حكايات بابار ولأن آرثور هو ابن العمِّ الذكيّ لپوم وفلور وألكسندر.

- كان ولدايَ أيضاً يعشقان أن أقرأ لهما قصص بابار. وها أنتَ ترى أن اسمكَ يدلُّكَ على رغبة والديكَ الأولى، والدفعة الأولى التي منحاكَ إيّاها، والمشاريع التي تخيّلوها من أجلكَ عندما كنتَ لا تزال في بطن أمك ولم يلتقيا حتى بنظرتك. لا يستطيع الملكُ آرثور أن يظلَّ ساعي بريد في أوزيس طول حياته... كيف تُحسُّ بما أقوله لك؟

- أنا أنصتُ إليكِ. ما تقولينه يصيب بالدُّوار. لكنني أرغبُ في أن أؤمِنَ بذلك. يسترجعُ ذهني الآن جملةَ سينيك (Sénèque): «عندما ستنسى ما معنى الأمل، سأُعلِّمُكَ أن تريد».

- هذا جميلٌ جدّاً. إنه موضوع تحليل أدبيٍّ كنتُ قد طرحتُهُ على تلامذتي. وعليكَ أنتَ أن تُحوِّلَهُ إلى ممارسة.

عندما ودّعتُ آرثور لم أكن أعلمُ إن كان الفارسُ سيمتطي فرسَهُ حقيقة. كنتُ أُدرِكُ مدى صعوبة أن يتخلى عن بدلته التي اعتاد على ارتدائها إلى حدِّ الآن.

ناتالي تعني «يوم الميلاد». وهذا الاسم يناسبني، أنا التي أؤمِنُ أن الإنسان يمكن أن يولد من جديد كلَّ يوم، سواء بالنسبة إلى نفسه أو بالنسبة إلى الآخرين. وكنتُ محظوظة بالعيش دائماً وفيّةً لهذه الرغبة، يقودني دائماً خيطٌ غير مرئيّ مَدَّهُ والدايَ فوق حياتي.

الاسم شيء مهم. أحياناً تكون الأسماء محَمَّلَةً بشكل مُبالَغٍ يستوجب تغييرَها. وهكذا تحوَّلَ اسمُ صديقتي من صوفي إلى ألارا،

عندما اكتشَفَتْ أنها تحملُ اسمَ إحدى جدَّاتها التي عاشَتْ حياتَها كلَّها تعاني من الكآبة. وأرادَتْ، بتغييرها اسمها، أن تقطع مع خيط قَدَرِها. وألارا تعني «طريق الوسط الأحمر». وهكذا اختارَتْ تلك التي تريد أن تعبر الحياةَ رفقتَها.

قاموا، لمدة تفوقُ الأسبوعَ، بتعويض آرثور بسيمون، ساعي بريد مَرِحٍ ودائم الابتهاج، في الخمسين من العمر، وكان أكثر ثرثرة من زميله الأصغر منه.

- طابَ يومُكِ، سيدتي! أنا من يعوِّضُ آرثور. لقد سافر لقضاء أسبوع في العاصمة! أخذتُ أنا دورتَهُ. عادة يوزِّعُ هو البريد على التجّار وأنا على الخواص. والآن أوزِّعُ على الطرفين معاً. لكنكِ لن تخسري شيئاً مع هذا التغيير، لأنني ساعي بريد لا يحمل إلّا الأخبار السعيدة!

- هذا رائع! إذاً لن أتوصّل بفواتير بعد الآن؟

- أقلّ ما يمكن! في الحقيقة، أنتِ تعرفين أنه من الصعب أن تكون الشخصَ الذي تصل عبره الأخبار السيئة، لذلك أحاول أن أُهَوِّنَ بعض الشيء من وَقْع القدر. أحياناً، عندما أُسلِّمُ رسالة مضمونة لشخص ما، أرى القلقَ على وجهه. كثيراً ما يفتح الناسُ تلك الرسائل مباشرة ولا ينتظرون أن أنصرف ليفعلوا ذلك. توجد شركاتٌ، تطرُدُ أجراءَها من دون حتى أن يتحدثوا معهم عن ذلك من قبل. يتوصلون مباشرة برسالة تستدعيهم إلى مقابلة. جارتي الصغيرة، والتي تعمل في شركة كبيرة للحلويات، نزل عليها أمرُ الطّرد مرّةً واحدة. ولحسن الحظ أكون أنا موجوداً في بعض المرّات لأقدِّم المناديل...

- إذاً أنتَ أيضاً مساعد اجتماعي!

- هو الأمر تماماً كما تقولين. بالنسبة إلى الأشخاص المُسنّين، على الرغم من وجود صناديق البريد الجماعية، فإنني لا أزالُ أحملُ إليهم الرسائل إلى غاية بيوتهم. إن لم أفعل ذلك، فلن يروا ولو شخصاً واحداً طول الأسبوع. فأنا على الأقل أتأكَّدُ من أنهم على خير، ثم أتبادل معهم بعض الكلمات. والآن سأذهبُ رأساً عند الجَدَّة العجوز التي تسكن فوق بيتكم لأرى إن كانت أمورُها على ما يرام. أتساءلُ إن لم تكن قد انخرطت في صحيفة يومية لمجرد أن تتلقى زيارتي كل يوم.

- لم أكن أعلمُ أن عجوزاً تقطن في العمارة.

- هذا أكيد، لأنها لا تخرجُ كثيراً من بيتها. لكنها لا تزال تصنع أطيب الحلويات باللوز! وتلك جائزتي اليومية. هيّا، إلى الغد!

كنتُ عاتبة على نفسي لأنني لم أجد الوقت الكافي للتعرف إلى جيراني المباشرين. لو أن عبد النور بيدار كان موجوداً هنا، لكان قد ذكّرني أن الرابط الذي يجب أن ننسجه مع الآخرين إنما يبدأ مع الناس الذين نلتقي بهم كلَّ يوم من دون أن نراهم، والذين قد لا نجد فرصة لنراهم لأنهم مرضى، أو مُسِنّون، أو منعزلون داخل بيوتهم فحسب تحت ثقل الحياة.

قطعتُ على نفسي وعداً أن أذهب لزيارة السيدة العجوز، وليس من أجل حلوياتها فحسب...

دفع آرثور بابَ المكتبة مرة أخرى في يوم الاثنين الموالي.

كانت ابتسامة كبيرة على وجهه تقول كلَّ شيء.

- طاب نهاركِ، ناتالي. أريدُ أن أشكركِ. لستُ أدري إن كنتُ سألتحق بالمعهد، لكنكِ أيقظتِني. كنت أريد أن أهديَ إليك هذا الكتاب. قد يبدو غريباً أن تُقدِّم كتاباً هديّةً لكُتْبيّةٍ، لكنها هديّتي. أدركتُ أنكِ تُحبين الطبيعةَ والبيئة. بالنسبة إليّ، هذا كتاب مؤسِّسٌ مثله مثل كيسيل (Kessel)، أو جيونو (Giono)، أو هوغو (Hugo).

- شكراً، آرثور! طلعتُكَ بهيجة هذا اليوم! أنا لم أفعل سوى أن قرعتُ جرسَ المنبِّه. أما الذي نهضَ فهو أنتَ!

فتحتُ الطّردَ فاكتشفتُ **إمبراطورية الثور** (*L'Empire du taureau*) لكاترين بيزان (Catherine Paysan).

- بالفعل، لا أعرفُ هذا الكتاب. إني جدّ محظوظة! لكن، أخبرني، ما الذي حصل في باريس؟

- في البداية، زرتُ ابنةَ خال أمي. ابنها يتابع دراسته في كندا وحجرتُهُ غير مشغولة، بل إنها أخبرتني أنها ستكون مسرورة بمساعدتي، لأنها عندما كانتا صغيرتين هي وأمي كانتا تحلمان بأن تُصبحا راقصتين. هي أصبحت راقصة، بينما اتخذت أمي وجهةً أخرى. قالت لي إنهما كانتا تُردِّدان دائماً فيما بينهما كلماتِ فيليب شاتيل (Philippe Chatel) الأخيرة عند نهاية حكاية **إيملي جولي** (*Émilie Jolie*): «اجهَدْ في أن يلتهم الحلمُ حياتَكَ حتى لا تلتهمَ الحياةُ حُلمَكَ»، ثم ذهبتُ إلى المعهد. موعد المباراة بعد ثلاثة أشهر. لديَّ نصٌّ مفروضٌ، وسيكون عليَّ أن أختار أيضاً نصّاً حديثاً وآخر كلاسيكياً. قلتِ لي إنَّك ستساعدينني في التدرّب، أليس كذلك؟

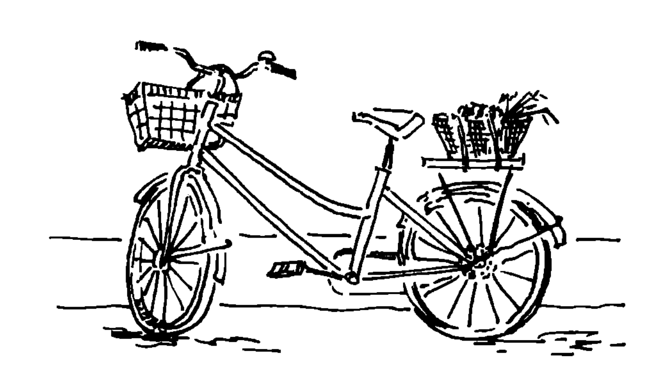
- أكيد! أفترضُ أنكَ تعلم منذ الآن الكاتبَ الكلاسيكيَّ الذي ستختاره...

- أجل، سيكون راسين... **أندروماك** (*Andromaque*). ثم بالنسبة إلى العمل، يستأجرون العمالَ في كلِّ أنحاء باريس. ينقصهم النُّدُل. وأنا لا أُتقنُ من المهن سوى مهنتَي النادل وساعي البريد!

في هذه اللحظة التي أكتبُ فيها هذه السطور، آرثور طالبٌ في المعهد بباريس. وقد قضيتُ أمسياتٍ جميلة أعملُ في أثنائها معه، أُدرِّبُهُ على أداء نصوصه، بالبحث عن النغمة الملائمة، وفترات الصمت كذلك. وقد تشكَّلَ لديَّ سريعاً حدسٌ أنه سينجح في المباراة لأنه لم يكن يحتاج إلّا إلى ثانية ليتقمَّصَ شخصياته بطريقة أخّاذة. كنتُ كلما مثَّلَ نسيتُ ساعي البريد، ونسيتُ آرثور.

عندما علمَ آرثور أنه قد نجح، دعاني مع ناثان للعشاء في مطعم والدته.

امرأة جميلة، مستقيمة القامة، غاية في الأناقة. لكن من الواضح أيضاً أنها امرأةٌ لم تُهادِنْها الحياةُ غير أنها تحتفظُ بكبريائها. وفي ذلك المساء، كان فخرها الأكبر، هو ابنها!



سولانج

عن أهمية زراعة المرء لحديقته السِّريَّة



في منطقة الغارد تكون التحية بثلاث قبلات، مثلما هو الأمر في الأردش.

في المرة الأولى، يفاجأ المرءُ فيسحبُ خدَّهُ قبل اكتمال العدد. ثم يعتاد الأمرَ بعد ذلك. ويسمح هذا بتمييز السكان الطارئين من المقيمين القدامى.

لا تروق تلك العادة لناثان، ويُفضِّلُ لذلك السبب العيش في بلد إسلامي أو هندوسي حيث لا يتماس الناسُ عند السلام.

أما أنا، فإني أحبُّ جميع تلك الأمور الصغيرة التي تطبع العادات والتقاليد المختلفة وتُقاوِمُ في الآن عينه هيمنةَ النموذج الوحيد، وهو الأمر السائد في كثير من المجالات الأخرى.

في الهند، لا تسمح تحيةُ «نَامَاسْتي» الجميلة بأيِّ تماسٍّ جسديٍّ، ولكن مجرّد حركة رمزية، بينما في الولايات المتحدة الأميركية الـ«هُوگ» هو عناقٌ لا يقع فيه التماسُّ بين الطرفين سوى بوجنة واحدة. وعند «الإنويين» في ألاسكا، تكون التحية باحتكاك أرنبة الأنف؛ أما في فرنسا فالتحية بقبلتين، وفي الغارد بثلاث!

ومن ثمَّ يؤكِّدُ ناثان أننا نشكِّلُ أحدَ البلدان التي تنتشر فيها الأوبئة بسرعة كبيرة، لأن لا أحد يُفكِّرُ في أن يكفَّ عن تقبيل جاره عندما يكون مريضاً. وهكذا يُصابُ جميعُ تلاميذ الفصل الواحد بالقمل عندما يكون أحدهم يحملها، وينتشر مرضُ التهاب المعدة بين المهندسين في مكتبه ما أن يحمله أحدهم لأول مرة.

- أجدُ في الأمر انعداماً لحسِّ المسؤولية. فذلك يمكن أن يُخِلَّ بعمل ورشةٍ بشكل كلّيٍّ! وزيادة في تعميق المشكل، صار من مظاهر الموضة بين الرجال السلام بقبلتين في كلٍّ تحية. وإذا ما أضفنا هذه الموضة إلى موضة الذقون غير الحليقة، فإنّ خدودنا تتعرض للحكّ الخشن طول النهار!

- أنصِتْ إليَّ ناثان، أنتَ صاحبُ الوكالة، فيمكنك إذاً أن تُغيِّرَ القانون الداخليَّ: القبلاتُ ممنوعةٌ، اللِّحى ممنوعةٌ، الرجالُ ممنوعون! دكتاتورية حقيقية؛ وقد تحصلُ بفضل ذلك على إشهار رائع!

أعتقد أن سولانج قد استقرّت في المنطقة في الوقت نفسه الذي جئنا فيه نحن تقريباً.

عندما التقيتُ بها أوَّلَ مرة، كان ذلك في «تيرالها»، مهرجان الخزف في «سان-كونتان-لا-بوتري».

تُنظِّمُ المدينة الصغيرةُ مجموعة من الأنشطة في أثناء السنة لدعوة الزوار إلى ولوج أبواب المحترفات. و«تيرالها» هو المناسبة التي تجمع بين فنانين قادمين من جميع البلدان الأوروبية.

ولا أُفلِتُ أبداً تلك الأنشطة المنظَّمَة في سان-كونتان، والتي تسمح لي باكتشاف مواهب جديدة أو تَتَبُّعِ تطوّر عمل الخزفيين المقيمين.

في حياتي الثالثة، سأكون من دون شك، خزّافة. فالعلاقةُ بالأرض، المادة العضوية والحسّية، ثم عمل الدّهن، يمنحُ كلُّ ذلك الإحساسَ بأن العمل، عند احتكاكه بالنار، يتحوّلُ بفعل خيمياء الموهبة الإنسانية المتضافرة مع قوى عجيبة.

وفرانسوا هو أحد الخزافين الذين أحبُّ عملهم أكثر من غيرهم. يقع مُحتَرَفُهُ في رأس الشارع. وأودُّ أن أقوم بفترة تدريب عنده. عندما أدفع بابه، نادراً ما أخرجُ خاليةً من مزهرية، أو جرّة، أو طبق. أشكالُهُ بسيطةٌ، وألوانُهُ مفتوحة من دون أن تكون لامعة، ثم ينتهي الطبخُ في حرارة منخفضة إلى أن يمنحنا الإحساسَ أن تلك القطع الخزفية لديها تاريخ طويل.

يقومُ معرضُ «تيرّا فيفا» (الأرض الحية) بتجديد معروضاته بشكل دائم، ويُنظِّم حفلات افتتاح لتقديم المواهب الجديدة.

كانت سولانج موجودة هناك، وهناك عرّفَنَا فرانسوا بعضَنا على بعض.

ثلاث قبلات... الثالثة مني بقيَتْ في الهواء.

- آه نعم، لم أتعوّد بعد، هنا ثلاث قبلات. اعذريني.

- لا تقلقي، أنا نفسي لا أزال أنسى الثالثة في بعض الأحيان.

كانت سولانج تملك حماسَ المؤمنين الجدد. كانت تحبُّ كلَّ شيء! المنطقةَ، وناسها، والخمر، والخزافين في سان-كونتان الذين قررَتْ أن تُخصِّصَ لهم جداراً كبيراً في صالونها لتستقبل فيه المزهريات، والأواني وإبداعات أخرى اقتنَتْها في مختلف الفصول.

ينبغي أن نعتنيَ بتجديد تلك النظرة الجديدة إلى الأشياء. سيكون الأمر أسهل بكثير لو أن عواطفنا لا تتآكلُ بمرور الزمن.

إنها فلسفةُ حياةٍ حقيقية أن تعرف كيف تنظر إلى الشمس وهي تُشرق في الصباح وتغرب في المساء كأنكَ في أول صباح في العالم، وأن تتأثَّر كلَّ عامٍ لأغنية طائر الصفاري عندما يرجع ليسكن في أطراف

الغابات، وأن تحتفظ باندهاشك سالماً أمام الظلِّ الصينيِّ لشجرة فوق لوحة البدر المكتمل.

فلا الشمسُ تتغيّر، ولا طائر الصفاري، ولا القمر، بل يتغيّر نظرُنا الذي ينسى أن ينظر، فيتآكل، ويعتاد.

وينطبقُ الأمرُ نفسُهُ على الإنسان الذي يرافقُنا. فباستثناء كبار المرائين، قليلون هم الناسُ الذين يفقدون خصالَهم الأولى مثلما تفقد شجرةٌ أوراقَها في الخريف.

لنتوقّفْ عن الاعتقاد بأن الشمس، أو طائر الصفاري، أو القمر، أو الإنسان الذي يسير إلى جانبنا، قد صاروا ملكاً لنا إلى الأبد، ولنعِشْ كأنهم يمكن أن يختفوا في أي لحظة. ليس أن نعيش في قلق الخوف من اختفائهم، ولكن في سعادة وجودهم.

وهذه هي الرسالة المشتركة بين جميع كتب التطوير الذاتي: اليوم هو أول يوم في ما تبقى من حياتكَ. ولا يوجد وقتٌ آخر تعيشُهُ غير الحاضر، فَعِشْهُ إذاً!

كانت سولانج تنتمي إلى تلك النساء اللواتي يبدو أنّ الزمن لا وَقْعَ له عليهن. النظرة صريحة ومباشرة، وقامةٌ منتصبةٌ عالية. الشعر كثيفٌ ومجموعٌ بباسطة بعود خشبيٍّ لامع.

كنتُ أتمنى لو أني أُشبِهُها، أنا التي أعتبرُ قامتي شديدة القصر، واسعة الوركين، وعينيَّ تحيط بهما هالة من التجاعيد لا يمكن أن تكونا غارقتين أكثر ممّا هما عليه، وفمي الذي لا تكاد تتميّزُ منه الشفة العليا...

مع أني كثيرة الضحك!

لكننا لسنا جميعُنا سواء أمام الأعوام المنصرمة.

كانت سولانج يرافقها رجلٌ يزيد مظهرهما بهاء. كان يستحيل ألا يُلفِتا الانتباه.

ناثان أيضاً كان رجلاً وسيماً، لكنني دائماً كنتُ أقول لنفسي إنني لستُ في مستواه. وكان ذلك اعتقاداً أحمق، لأن الزوجين تحملهما أنفاسٌ أخرى كثيرة غير مرئية تنفخ القوة في أشرعتهما. والجمال وحده ليس إلا وجهاً واحداً من بين وجوه حجر النرد المتعددة.

أسابيع قليلة بعد ذلك، دخلت سولانج المكتبةَ رفقة زوجها.

- طاب نهارُكِ، نودُّ أن تطلبي كتباً لأجلنا.

- طاب نهاركما، بكل سرور، أولاً سننظر إن لم تكن الكتبُ موجودة فوق الرفوف.

- لم أرها. يتعلق الأمر بـ **دليل الحدائق الزراعية البيئية** (*Manuel des jardins agroécologiques*) لبيير رابحي (Pierre Rabhi)، و**مسير بستانيٍّ** (*Itinéraires d'un jardinier*) لباسكال كريبييه (Pascal Cribier)، و**بدائل العشب** (*Alternatives au gazon*) لأوليفييه فيليبي (Olivier Filippi).

- فعلاً، ليس لديَّ أيّ واحد منها.

- نريد أن نرسم حديقةً تكون ملائمة للإكراهات المناخية في المنطقة. لذلك نُصِحنا بهذه الكتب.

- ألديكم حديقة كبيرة؟

- هكتاران اثنان. وأريد أيضاً أن أقيم بستاناً للخضراوات، لكن لوك لديه أوليات، ويعتبر أن بستاناً للخضراوات ليس جميلاً. سأحاول

أن أجعله يُغيّر رأيه. عندما سيعاينُ أوراقَ الملفوف الأحمر تنمو وتلمع عند أولى أشعة الضوء فوق ندى الصباح، سيستسلم.

- إذا كنتما تحبّان الحدائق، لا تضيِّعا حضورَ الحديقة القرسطوية في أوزيس. ستكتشفان، داخل فضاء صغير جدّاً، عالَماً عاليَ الشاعرية. توجد مجموعة نباتات عطرية وطبية ستمنحكما أفكاراً من أجل حديقتكما.

- شكراً. سنذهب إلى هناك. أليس كذلك، لوك؟

- أكيد، حبيبتي.

عادت سولانج لزيارتي في الخريف الموالي، ثم في الربيع.

وكانت، في كل مرة، تطلبُ كتباً حول البستنة.

كانت تملك ذوقاً واثقاً، وجعلتني في الوقت نفسه أكتشفُ منشورات كنتُ أطلبها من جديد لأضعها في الرفوف.

وبما أن ناثان هو من يهتمُّ بحديقتنا، فإنني لستُ اختصاصية حقيقية في المجال. ثم إنّ حديقتنا تميل أكثر إلى أن تكون ساحة كبيرة مؤثّثَة وفق إيحاء توسكانيٍّ حول بضع شجرات زيتون، وثلاث شجرات سروٍ كبيرة، وزهرات الحب، والخزامى؛ وهذا لا يدفعنا إلى كثير تساؤلات.

غير أني وجدتُ سولانج في أثناء زيارتها الربيعية أكثر عصبية. وسألتُها إن كانت راضية عن أغراسها.

- آه أجل! الحديقة رائعة. لدينا نباتات الوستارية التي تمنح الحديقةَ عطرَها، وشجيرات الورد قد بدأت تتفتحُ بورود جميلة جدّاً. أصنع كلَّ يوم باقةً ليستيقظ لوك على مداعبة عطرها. لدينا حنفية

ويودُّ أن يزرع نباتات حولها. وقد ذهبتُ لرؤية ماتيو، في «مشاتل الأكودوك»، ونصحني بزهرة الحب.

- أحب كثيراً زهر الحب. إنه جميل جدّاً. عندنا تكون بيضاء وبنفسجية.

- أخشى قليلاً أن يعتبر لوك ذلك شديد الحضور ويفتقر بعض الشيء إلى الملاءمة...

أنا كنتُ أجد ذلك، على العكس، ملائماً جدّاً، لكني لم أُدلِ بأيِّ تعليق. بما أنها كانت لا تني تتحدث عن لوك في كل جملة... لم أكن لأتدخَّلَ في اختيارٍ ينبني على مثل ذلك الرهان!

تُعتبر «مشاتلُ الأكودوك» مرجعاً؛ فالنباتات الموجودة بها جدّ جميلة، ويُغدِقُ ماتيو نصائح ممتازة.

كم من نساءٍ عاشقاتٍ للحدائق، يقَعن في هوى صاحب المَشتَل، فيُصابُ الرجالُ بالغيرة من ذلك المتكلِّم البليغ، الذي يُتقِنُ إدارةَ عمله، فيقترح الأرضياتِ المناسبة، وشجرةَ المغنوليا التي ستُنتجُ لك وروداً تبهتُ أمام ألوانها ألوانُ الببغاء، وشجرةَ الزيتون القديمة التي ستجد مكانها عند زاوية المسبح...

ويملكُ ماتيو كذلك أشجار الزيتون ومعصرة، حيث يمكن لكلّ واحد أن يأتي ليعصر بها محصولَهُ من الزيتون. فمن علامات الرفاه في أوزيس أن يطبخ المرءُ بزيتٍ من شجر زيتونه! ولن تكفي شجراتُنا الستّ لرشِّ سلطاتَنا بالزيت، لذلك لم نرضخ لتلك النزوة.

لكن يجب أن أعترف أننا إنما اكتشفنا زيتَ الزيتون عند ماتيو. تذوّقنا منها أصنافاً كثيرة، كأننا داخل قبو قصر كبير مليء بالخمر

في بوردو. والمصطلحاتُ المستعمَلة، مثلها مثل طريقة التذوّق، جدُّ متقاربة فيما بين الخمر والزيت. زيوتُهُ ذاتُ ألوان جميلة، من الذهبيِّ الأدْكَنِ إلى الأخضر الرَّطْبِ. وفي كلِّ مرّةٍ يمنحُ الذوقُ أصنافاً من الأحاسيس شديدة التنوّع. أنا أحبُّ الزيوتَ ذات البهارات القوية. أضعُها في جميع الأطعمة!

توجد في الأساس فترتان بالنسبة إلى الحدائق: الخريف حيث نزرعُ، والربيع المكرَّسُ للتشذيب، حيث يقضي البعضُ ساعاتٍ يقتلعون الأعشابَ البريّة. لم أعُد أقول «الأعشاب السيّئة» منذ أن انتقدني صديقي ماتيو بسبب ذلك. قال لي ألّا وجود لعشب سيّئ، بل توجد أعشاب مُرَحَّبٌ بها، وأخرى عكس ذلك فحسب.

والصيف أيضاً فترة جميلة بالنسبة إلى أصحاب بساتين الخضراوات؛ إنه وقت محاصيل المشمش والبرقوق والتين... ووقت المربّى!

عادَت سولانج إلى المكتبة في سبتمبر، وقد تهدّلَتْ ملامحُ وجهها، حيث كانت تمنح الانطباعَ أنها قد كبرَتْ عشر سنوات في صيف واحد!

كان ذلك يومَ ثلاثاء، عند أوّلِ منتصف النهار، والمكتبة خالية من الزبائن.

وكانت المرة الأولى التي لم تتوجه فيها رأساً إلى جناح «الحديقة»، بل إلى جناح التطوير الذاتي.

عادت نحوي حاملة كتاب الرجل الذي كان يريد أن يكون سعيداً (*L'Homme qui voulait être heureux*) للوران جونيل (Laurent Gounelle).

يشكِّلُ هذا الأمرُ بالنسبة إليّ دائماً علامةً دالَّةً؛ إن مَن يقتني مثل ذلك الكتاب، كأنه يكتبُ فوق جبينه «أنا لستُ بخير».

- طاب نهارِكِ، سولانج، كيف حالكِ؟

- طاب نهارِكِ، ناتالي. لا بأس. كان الصيفُ قاسياً جدّاً. ضيوفٌ كُثُر. ما أن رحل أصدقاءُ أطفالي، حتى حلَّ بين ظهرانينا أصدقاؤنا الباريسيون. كنتُ أُحِسُّ كأني أقضي صيفاً داخل مطابخ فندق من أربعين غرفة! من دون ذِكْرِ الأفرشة التي يجب تغييرُها عندما يغادر كلُّ فريق، والغسيل الذي يجب أن يُنشَر، وكلُّ واحد يحسب أن الأمور تسير وحدها بشكل طبيعي. أعتقد أن لوك قد ارتاح بعض الشيء، أمّا أنا فإني سعيدة بكون العطلة قد انتهت أخيراً. إنها بداية عطلتي الشخصية، لكن من دون لوك، لأنه هو أيضاً قد استأنف عمله. ثم هناك الكثير من النباتات التي خيّبَتْ ظنّي. كنتُ قد اشتريتُ شجيرات أورطنسيّة عانَتْ كثيراً من المناخ. يعشقُ لوك تلك النباتات التي تُذَكِّرُهُ ببريطانيا، لكنها ليست ملائمة لهذه المنطقة. لا يريد أن يفهم هذا الأمر، ثم يُلقي اللومَ عليَّ عندما يفشل الغرس.

كانت عيناها تجهشان بالبكاء، وتبدو أنها على شفا الانهيار.

لم تكن بيننا معرفة حميمة، فكنتُ متردِّدةً حول السلوك الذي عليَّ أن أسلكَهُ: أن أتجاهل الأمر وأتركها تنصرف ومعها «جونيل»، أو

أن أمدَّها بسببٍ تتعلّقُ به كي تستطيع الحديثَ إليّ إذا ما كانت ترغب في ذلك.

لكن المرء لا يُعيد صنع نفسه، ولم تكن لديَّ ثقة كبيرة في جونيل وفي مؤلفين آخرين مثل باولو كويلو (Paulo Coelho) فيما يتعلَّقُ بحَلِّ مشكلتها...

- الأمور إذاً لا تسير حقيقة على ما يرام!

لم يحتَج الأمرُ إلى أكثر من ذلك لتَنْبَجِسَ الدموعُ من عينيها. قدّمتُ كرسيّي الصغير لسولانج. وبين نشيجين، التقطتُ كلماتٍ قليلةً كنتُ أجد صعوبةً في ربطها بعضها ببعض:

- لوك... الليلكُ الصيفيُّ... المسبح تعطَّل... الليلكُ الصيفيُّ بوروده... قطعَ كلَّ شيء... غرفة العلِّيّة... طوماس... سقطَ...

- ابكي، سولانج. ستحكي لي فيما بعد.

كانت الساعة الخامسة مساء، لكنني لم أكن أستطيع أن أستقبل زبوناً آخر في تلك الظروف. أطفأتُ أنوارَ الواجهة، وقلبتُ لافتتي الصغيرة لأشير إلى أن المكتبة كانت مقفلة.

وعندما هدأت سولانج، أدركتُ أن أمامي امرأة منهكة تماماً بسبب صيفٍ قَضَتْهُ في خدمة الآخرين، وخصوصاً بسبب حرصها على إرضاء زوجٍ مستبدٍّ بعض الشيء.

حفيدها طوماس، الذي استودَعَتْهُ عندها ابنتُها لعدة أيام، كان قد سقط من السلّم وهو يصعد إلى العلِّيّة، وهو ما سبَّبَ لها فزعاً كبيراً على الرغم من أن الصبي لم يُصب بأذى. وأصيب المسبح بعطلٍ في عزِّ شهر أغسطس بينما البيتُ يعجُّ بالضيوف. ولوك، الذي لم يكن قد

فهم شيئاً، قام بتشذيب الليلك الصيفيِّ الذي لم يكن قد أخرج وردَهُ بعد، بدل المغنوليا...

أشفقتُ على حال سولانج. كنّا بلا ريب متقاربتين في السّنّ، وأتذكر أولَ يومِ رأيتُها فيه. كنتُ قد وجدتُها جميلة، تحملُ عمرَها بجرأة، حيث كانت تلبس وفق آخر صيحات الموضة.

أعرف أنّ الخمسين منعطَفٌ يُحسِنُ الرجالُ التعاطي معه خيراً من النساء. تعكس لنا المرآةُ كلَّ صباح ذلك الوجهَ الذي لم يكن لنا من قبل. ويُخبِرُ كلُّ تجعيد من تجاعيد الوجه عن أثر ليالٍ سهرناها في الرقص، ولا يتبقى لنا إلّا أن نبتسم ونحن ندهن فوقها مرهماً مضاداً للشيخوخة.

كانت حكايتُها تُشبه حكايات نساء كثيرات غيرها. ندعو الأزواجَ ليستعدّوا للمعاش، لكن قبل ذلك، ينبغي لهم أن يتأهّبوا للّحظة التي يغادر فيها الأطفالُ البيتَ، حيث يتوجب إعادة تحديد ما يُحفِّزُ رجلاً وامرأةً على الاستمرار في العيش معاً كلَّ يوم...

قامت المكتبةُ بدور مهمٍّ في قصتنا. فلم أكن لأقنع مدة طويلة بتلك الحوارات مع ناثان لأعرف منه إن كان قد أحبَّ الطريقة التي أعدتُ بها تنجيدَ كرسيّ الاسترخاء، أو كيف أعدتُ ترتيب الغرفةَ الخضراء بستائر جميلة من صوف أبيض من المغرب.

أعتقد أن كلَّ امرأة تحمل بداخلها مخاطرة أن تصير مثل سولانج، وأننا في الخمسين، أكثر من الثلاثين، نكون بحاجة إلى أن يُعترَفَ بنا كما نحن، لأن مؤهلاتنا النسوية لم يعد لها التأثير نفسه، لترعانا نظرةُ الرجل الذي عرفَنا في ربيع الحياة.

التقيتُ بنساء جميلات جدّاً ناضجاتٍ في العمر، وكان منبع جمالهن من كونهن لم يتوقفن أبداً عن أن يكنَّ أنفسهنَّ، يؤازرُهنَّ نشاطٌ مستقلٌّ تماماً عن نشاط أزواجهن.

كنتُ أعلمُ أنه كان بإمكاني أن أصير سولانج، ولعلّ ذاك ما كان يُغذّي إشفاقي على تلك المرأة. ضربٌ من الإشفاق على الذات، كان عليَّ أن أنجح في نجدتها، لأنني لو لم أفعل كنتُ سأتركُ جزءاً مني رهينَ العذاب.

- أتحبّين البستَنَةَ، سولانج؟

- أجل، أكيد!

- أعيدُ طرحَ السؤال عليكِ بطريقة مختلفة: هل تحبين البستَنَةَ مثل امرأة تُعِدُّ العشاء من أجل زوجها الذي سيعود قريباً وترجو أن يمتدح عملَها؟ أو تحبين البَسْتَنَةَ لأجل نفسك، بغضِّ النظرِ عن تقدير زوجكِ لوك؟

- لستُ أدري. أعتقد أني أحبُّ الطبيعةَ حقيقةً. تأخذني إلى أغصانها، وتحملني على رياحها. أحبُّ أن أضعَ كفِّي فوق حَجَر جدارٍ لفَحتْهُ الشمسُ. لا أجد شيئاً أكثر شهوانية من برعم يتهيّأُ للتفتّح تحت هجوم الربيع!

- لكنك هنا تُحدِّثيني عن الطبيعة، وليس عن الحديقة. الحديقة عالمٌ مزروع، حيث لا وجود لأي شيء من دون تدخّل الإنسان. رسم الحديقة يختلف عن رسم الطبيعة، فهي تولدُ أولاً في ذهن الإنسان، يقودُها خيالُهُ، وتُشذِّبُها يداه. فالأمر مختلفٌ تماماً!

- صحيح، أنتِ على صواب. لكن لماذا تطرحين عليَّ هذا السؤال؟

- لأني أعتقد أنكِ إنما وصلتِ إلى هذه الحالة، لأنك زرعتِ حديقةً من أجل غيرك، ونسيتِ أن تزرعي حديقتكِ أنتِ. ينبغي أن تستردِّي ممرّات حديقتكِ الداخلية قبل أن تُشذِّبي تلك التي ترجين أن يتجول فيها لوك. أقترحُ عليكِ أن تُهمِلي كتابَ جونيل وأن تقرئي **أوهام** (*Chimères*) لنوالا أوفاولان (Nuala O'Faolain). أُعيرُكِ إيّاه، وتقرئينهُ، ثم اشتريهِ إن أعجبكِ.

- مرَّ عليَّ وقتٌ طويلٌ لم أمنح نفسي وقتاً لقراءة رواية... لكنني موافقة.

- نعم، خذي وقتاً لأجلكِ فحسب. لا تُبرِّري الأمر، اقبلي أن تصنعي لنفسك إبريق شاي كبير وأن تقضي الأمسية، من دون ماكياج، وبأقلِّ اللباس، فوق أريكة أمام المدفأة. سترين، ستجدين الأمر رائعاً...

قبلَتْ اقتراحي.

كم هو سهلٌ أن يسمح الإنسانُ لرغبات الآخرين أن تبتلعه، ويبلغ ذلك حدّاً لا يعود معه قادراً على تحديد رغباته الشخصية!

أدينُ بالعرفان لناثان لكونه ظلَّ دائماً شديد الحساسية في هذا الموضوع. أتذكّرُ توجيهاته التي كان يعرف كيف يُبديها في الوقت المناسب: «لكن هل أنتِ أيضاً راغبةٌ في ذلك؟ أتقومين بهذا من أجلي أم من أجلكِ كذلك؟ الآن، حالاً، بمَ تحلمين أنتِ؟ تعرفين أني لن أحبَّكِ أقلَّ لو أنك فعلتِ أمراً يُعجِبُكِ!».

الحرصُ على إرضاء الآخر، عندما يصيرُ شرطاً في كلِّ تحرّك، وليس اختياراً يقوم به المرءُ في كامل وعيه، يتحوّلُ إلى مصيدة.

كم من نساء رأيتُهنَّ يُضحِّينَ بمسيرهن المهنيّ وبحياتهنّ الشخصية لأجل العناية بأطفالهنّ.

في البداية، تكون الأمورُ على ما يرام. الأطفال صغارٌ ويبدون لأمهم الكثير من الحنان، حيثُ يكون عرفانُهم بالجميل دائماً، ثم يكبر الأولادُ ويصبحون أكثر فأكثر مستقلين بذواتهم. فتشعر الأمُّ عندئذٍ أنها لم تعُد سوى سيارة أجرة أو مدبِّرة المنزل.

وفي أثناء كل تلك الأعوام، يكون الزوجُ قد واصَلَ مسيرَهُ المهنيَّ.

يكون الاستيقاظُ حينئذٍ عنيفاً.

في الحقيقة، تكون الأمُّ قد أعدَّتْ مع نفسها كشْفاً بكلِّ الأمور التي ضحّتْ بها، فتشرعُ في استعراضها أمام مَن يقيمُ معها، كأنها ديونٌ تطالبُ باسترجاعها.

وبما أنّ لا شيء من ذلك يُقال صراحة، ويظلُّ طيَّ الإضمار والكناية، فلا يفهمُ أحدٌ سرَّ ردِّ الفعل المتأخر. فتكتشفُ الأمُّ، التي أهملَتْ نفسَها، أن لا أحد طلبَ منها شيئاً، وأنها قد بَنَتْ لنفسها طريق مرارةٍ وإحباط لا يمكن لأيِّ شيء أن يستدركه.

لقد فات الأوان...

أعتقد أنّ قاعدة الحب الذهبية الأولى هي أنه يجب ألّا يُعَذِّبَ، أبداً! فالحبُّ الذي يُعذِّبُ هو إشارةٌ إلى وجوب تركِهِ بسرعة...

وأعتقد أن القاعدة الذهبية الثانية هي أن الحبَّ يجب ألّا يقوم على النقص، بل على الزيادة.

عندما التقينا أنا وناثان، كان يعشقُ الجبل، ولم أكن كذلك. أشعر بالخوف ما أن يكون المنحدرُ صعباً، ولا أحبُّ رؤيةَ الأجراف الكبيرة التي يُعجَبُ بها هو.

وهكذا وصلنا إلى الأوقات التي كان فيها ناثان ينطلقُ وحده إلى الجبل، أو رفقة أصدقائه، لكي لا يتخلى عن هوايته، بينما كنتُ أقوم بتداريب اليوغا التي لم تكُن تثير اهتمام زوجي نهائياً!

وفي المقابل، قد اكتشفَ السينما بفضلي أنا، واكتشفتُ الفن المعاصر رفقتَهُ.

أحياناً يتوجّبُ علينا أن نُقدِّمَ تنازلات، لكننا نحرص على أن نناقش الأمر بشكلٍ كافٍ حتى تُصبح تلك التنازلاتُ علامةَ حبٍّ، وليس دَيْناً معلَّقاً.

كان صديقٌ لي، وهو كاهنٌ، يرافق العديد من الأزواج إلى زواجهم، يعتبرُ أنّ إنجاح المرء زواجَهُ يتطلّبُ ألّا ينسى استعمالَ ثلاث كلمات ضرورية: «شكراً»، و«من فضلك»، و«عذراً». «شكراً» لكي لا تَعتبر أبداً أن سلوكاً لطيفاً من الآخر هو عادة. و«من فضلك» لكي لا يتحوّل الالتماسُ إلى أمرٍ مع تقدم الزمن. و«عذراً» لأن الأزواج لا يمكن أن يقضوا سوية حياةً كاملة من دون أن يسيء أحدهما إلى الآخر، ويكون حينئذٍ من الضروري أن نعتذر.

وبما أن ناثان مُعادٍ للكنيسة وللجيش، فإننا لم نتزوّج، لكننا التزمنا بتلك الوصايا، وأعتقد أن النجاح كان حليفنا...

عادت سولانج إلى المكتبة بعد بضع أسابيع حاملة باقة ورد.

- إنها تأتي من الحديقة مباشرة. إنها من أجلك!

- شكراً. إنها رائعة!

- أجل، اسمها هو «آرثور رامبو» (Arthur Rimbaud). باقة تليقُ بكُتْبِيَّةٍ. لكن انتبهي إلى أشواكها.

- أنا جدُّ متأثرة باهتمامكِ. يُقالُ إنما توجد أجملُ الورود حيث تكثُر الأشواك!

- هذا سيمدني بالشجاعة لأن أشواك شجيرات الورود قد سلخت رجليَّ...

- وإذاً، أوهام؟

- كنتِ مصيبةً عندما اقترحت عليّ أن أكتشفَ حياةَ امرأة أخرى. وقد أصابَتْ نوالا أوفاولان، فالمرأة يجب أن تكون أولاً قادرة على أن تخلقَ السعادةَ لنفسها إن لم تكن تريد أن تجد نفسها سجينةَ تبعيّةٍ عاطفيةٍ لرفيقها. من المؤثِّر جدّاً أن نرى كيف تقبلُ تلك المرأةُ في الأخير وضعَ عزوبتها، باعتباره الوضع الذي يسمح لها بأكبر قدر من النضج والانفتاح. لم أصل بعد إلى درجة أن أتمنى العيش وحيدة، لكنني كنتُ بحاجة إلى تلك الأيام القليلة من الوحدة. لقد مكَّنني اكتشافُ وجهة نظر امرأة أخرى من أن أعيد النظر في منظوري الشخصيّ وأن أخرج من متاهتي. لقد عملتُ بنصيحتكِ

بشكل حرفيٍّ: مدَّةَ يومين لم أفعل أيَّ شيء سوى القراءة والاستماع من جديد، بواسطة سمّاعة، لأغاني بِنك فلويد (Pink Floyd) التي كنتُ قد نسيتُها في القرن الماضي! لم أتناول سوى موز وأكوابٍ من الموسلي، وعندما عاد لوك لم يجد شيئاً في الثلاجة. ومن ثَمَّ ذهبنا معاً إلى سوق ساحة الأعشاب، التي لم تكن قد وطئتْها قدماهُ منذ شهور!

- ممتاز! دعاكِ إلى الطعام في شرفة؟

- آه لا؛ لم نصل بعد إلى ذلك المستوى! سأكون سعيدة أن أظلَّ قليلاً في عالم الآخرين قبل أن أعود إلى عالمي. هل أجد لديكِ كتاباً آخر تنصحيني به؟ كتابُ امرأةٍ حقيقيّ؟

- هل رأيتِ فيلم **الساعات** (*The Hours*) لستيفن دلدري (Stephen Daldry)، مع موسيقى جميلة لفيليب غلاس (Philip Glass)؟

- لا.

- إذاً اقرئي **السيدة دالووي** (*Mrs Dalloway*) لفيرجينيا وولف (Virginia Woolf). لقد بُنِيَ الفيلمُ انطلاقاً من هذا الكتاب. والاثنان معاً عملان رائعان!

- شكراً. أشتريه منك وفي الوقت نفسه أدفع ثمن **أوهام**.

لاحظتُ أن يد سولانج ترتعش قليلاً عندما دفعَت ثمن الكتابين.

- أأنتِ بخير سولانج؟

- تسألين بسبب ارتعاشة يدي؟

- أجل. أهذا طارئ؟

- أجل، بدأَ ذلك منذ أن شرعتُ في تناول الأدوية المضادة للكآبة التي وصفها لي الطبيبُ.

- أنصتي إليّ، أنا لستُ طبيبةً ومن حقِّكِ ألّا تُنصتي إلى ما سأقوله لكِ، لأن هذا يتجاوز كثيراً دوري. على كل حال، أعتقد أن مضادات الكآبة يمكن أن تكون فعّالة لتجاوز الأزمات القوية، لكنها في حالات أخرى، تخلقُ نوعاً من انعدام الإحساس الذي يمنعنا من أن نستمرَّ حقيقةً في الاتصال مع رغباتنا الحقيقية، ومن أن نقوم من ثَمَّ بالتغييرات الضرورية لتحقيقها. ألا تعتقدين أنكِ في حاجة الآن إلى صفاء الذهن، ولو كان الأمر صعباً، بدل أن تستسلمي للعيش في الضباب؟ أقول لكِ هذا من باب النصيحة فحسب. افعلي ما تشائين، لكنَّ فيرجينيا وولف ستساعدكِ، من دون شك، على أن تنظري إلى وضعكِ بصورة مغايرة.

عندما حكيتُ هذا اللقاء لناثان، لامَنِي لأني قد تماديتُ في الأمر.

- لكنك ناثان ترى كيف أن الناس من حولنا، الذين يستعملون مضادات الكآبة، لا يستطيعون الاستغناء عنها، ونادراً ما يحلُّون مشكلهم الأصليّ!

- ربما، لكنكِ كتْبِيَّةٌ، ولستِ طبيبة!

- الحلُّ الآخر، كان أن تذهبَ أنتَ عندها لتهتمَّ بها بعض الشيء... غير أني أُفضِّلُ أن أحتفظ بكَ لنفسي أنا وحدي!

أستطيع أن أشهد، بفضل تجربتي، قارئةً وكُتُبِيَّةً، أنَّ علاج الكتب أعمق من علاج مضادات الكآبة. فالكتب قادرة على أن توقظ الرغبة في الحياة. تُنتِجُ تنقيلاتٍ داخليةً تستطيع فيما بعد أن تدفع المرءَ إلى الحركة والفعل. يا لها من علاقة حميمة تلك التي تربط بين قارئ وكتابٍ! في أثناء القراءة، يكون المرءُ كامل الحريّة في أن يجعل الكلمات المقروءةَ تهتزُّ، ويُطلق العنان لخياله. يكون حرّاً في أن يتوقّف عند كلمةٍ، وأن يُبطِئ عند جملة، بل أن ينام في أثنائها. تملكُ بعضُ الكلمات نعومَةَ وسادةٍ من ريش، وتملكُ أخرى شظفَ الأرض. تستطيع الكتب أن تجعل قضبان السجن تختفي، بالمعنيين معاً، الحقيقي والمجازي.

وقد اعترف جان-بول كوفمان (Jean-Paul Kauffmann)، بعد أن قضى ثلاث سنوات رهينةً في لبنان، أنه إنما يدينُ ببقائه على قيد الحياة لكتابين تلقّاهما من جلّاديه: **الإنجيل** و**الحربُ والسلم** لتولستوي، الذي قرأهُ اثني وعشرين مرة!

وأشار كوفمان، في حديث إلى جون-كلود راسبينجيس الصّحافي في **لاكروا**، إلى أنه في اليوم الذي حصل فيه على الإنجيل من جلّاديه، شعر كأن السماء قد أرسلَتْ إليه بعوّامة ستُغيِّرُ ظروفَ احتجازه.

يقول في كتابه **بيتُ العودة** (*La Maison du retour*) الذي أَلَّفَهُ سنة 2007: «أنقذتني القراءةُ أكثر من الأدب. كانت الكلماتُ تكفيني،

تُؤَثِّثُ حضورَها. كانت متواطئة. كانت تأتي، من الخارج، لنجدتي. أخيراً، كان بإمكاني أن أُعَوِّلَ على دَعْمٍ من الخارج».

في الحقيقة، ينبغي للأطباء أن يصفوا لمرضاهم وصفةً لأجل الصيدلية، وزيارةً للمكتبة!

عندما رأيتُ سولانج من جديد، كان يرافقها زوجُها.

كانا يجلسان معاً إلى مائدة تحت شمس الخريف في شرفة «ابنة الكَرْم» (La Fille des vignes)، وهو مطعم صغير قرب السينما، يُقدِّمُ «بو بونْ»، طعام فيتنامي ممتاز، وتحليات لذيذة جدّاً! كانت تبتسم وتبدو مرحةً، ونادت عليّ ما أن رأتني أمرُّ في الشارع.

- ناتالي! هلمّي لتناول كأس معنا.

- لا أستطيع، عليَّ أن أفتح المكتبة. أنت بخير؟

- أجل، أفضل بكثير. لوك، هذه هي المرأة التي تَدينُ لها باكتشافكَ كيفية غرس الأشجار المثمرة.

لوى لوك شفتيه مبتسماً:

- يجب أن أقول إنه لولا حضوري لما غرسنا شيئاً. كانت سولانج مستغرقة في قراءة السيدة دالووي.

ابتسمتُ لسولانج.

- كيف وجدتِ... السيدة دالووي؟

- لا أريد أن أُشبِهها أبداً، وبلغةٍ دارجة، لقد وجّهتِ لي ركلةً قوية بدفعي إلى قراءة ذلك الكتاب!

- ذاك ما كنتُ أقصده نوعاً ما... لديَّ كتابٌ آخر أريد أن أجعلكِ تقرئينه. **الشلالات** (*Les Chutes*) لجويس كارول أوتس (Joyce Carol Oates). مصير امرأة جميل جدّاً...

- ممتاز. سأقرؤه. لكن بشرط...

- أيّ شرط؟

- أن تأتي عندنا لتناول كأس شاي في حديقتنا الجميلة!

- أعدكِ.

أصبح سولانج وزوجها صديقين.

في الواقع، كان لوك قادراً على أن يفهم رغبات زوجته، لكن عليها أولاً أن تُعبِّر عنها.

كان من قبل، يمشي يتقدَّمُها بخطوتين، ويُحدِّدُ إيقاعَ حياتهما ووجهتَها، أما اليوم فقد صارت علاقتهما أكثر توازناً.

صار لوك يُقَدِّرُ أن لا يكون دائماً مضطرّاً لأن يتحمّلَ مسؤولية قرار، واكتشف في الوقت نفسه مبادرات سولانج التي ما كان ليتصوّرها أبداً. وهكذا نظّمتْ وحدها رحلةً إلى إيرلندا من ألفها إلى يائها، حيث سرنا خلفها نكتشفُ أجمل حدائق جنوب الجزيرة.

لسولانج يَدٌ خضراء حقيقة.

حديقتُها رائعةٌ حقّاً! ومنذ أن لم تعُد تشتغل بالبستنة لأجل الآخرين، بل لأجل متعتها الشخصية، صارت أكثر إبداعاً.

تحرّرَتْ من الفضاءات المفروضة عن طريق مزجٍ حُرٍّ بين نباتات الزينة والأنواع المُدرَجَة عادة ضمن بستنة الخضراوات. فممرٌّ

الخرشوف الذي يهذي عند قدم الليلك الصيفي ناجحٌ جدّاً، مثله مثل أعواد السلق الحمراء التي تنبتُ أسفلَ أشجار الزيتون.

يتنافسُ ناثان ولوك حول مَن سيكتشف مُزارعَ كَرْمٍ جديد في المنطقة، وينبغي أن أقول إن ذلك كان يقود إلى أمسياتٍ خمرية طويلة...

كثيراً ما ألتقي بسولانج في أثناء الأسبوع من أجل غداء خاص بالنساء أو للذهاب إلى السينما.

أصبح بيننا تواطؤ جميل. لا أعرف سبب وجود غداء خاص بالنساء وعدم وجود غداء خاص بالرجال... لا شكَّ أننا نعرف بسهولة أكبر كيف نتقاسم أمورنا الحميمة، ونشعر بالحاجة إلى ذلك التشارك ليُعضِّد بعضُنا بعضاً أو لنتحرَّرَ. فأنا أتحدَّثُ مع سولانج عن مواضيع لا يمكن أن أثيرها مع ناثان. ليس لأنها مواضيع تافهة، لكنها تنتمي إلى دائرة انفعالية وعاطفية، وليس هذا بالمجال المفضَّل عند زوجي.

أحياناً، تسبقُ حواراتي معها أحاديثَ أكثر حدَّةً مع ناثان. أستندُ إلى تلك الحوارات لأُواجِهَ زوجي صاحب الآراء القاطعة واليقين الذي لا أملكُهُ.

ينتبهُ ناثان إلى الأمر فيصيح بي: «أنتِ، قد تناولتِ الغداء مع سولانج هذه الأيام!» وغالباً ما يكون مصيباً...

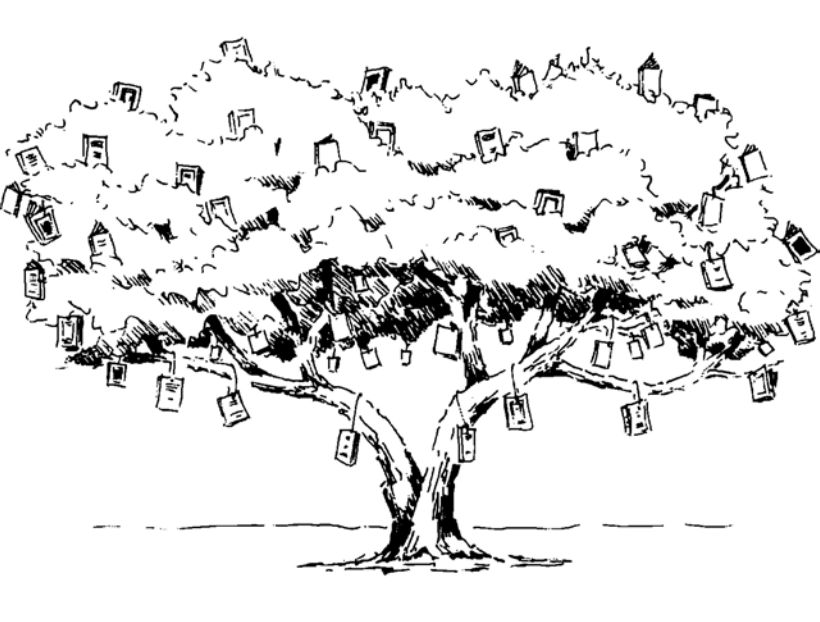
أوزيس مكان جدُّ ملائم للحصول على أصدقاء، لأنّ الذين يأتون إلى هنا لا يفعلون ذلك من أجل التباهي، بل ليحصلوا على الهدوء والعمق.

وعلى الرغم من أنّ العلاقة مع أصدقاء الطفولة غنيّةٌ بتاريخ طويل مشترك، فإنّ الصداقات المتأخرة ليست مثقَلَةً بالماضي، وتتطوَّرُ بتمكين كلٍّ واحد من أن يُظهِرَ حقيقته وهو في مرحلة النضج، مع ما اكتسبه من تجارب في مسيرته، التي قد تكون عرفت محطّات أليمة تمَّ ركنُها في الماضي.

أدركتُ محاسن ذلك الصنف من العذرية في الصداقة، وهي الصداقة التي ما فتئتْ تكبر بيني وبين سولانج.



خاتمة



صارت مكتبةُ ساحة الأعشاب فضاءَ لقاءات معروفاً لدى الناشرين الذين يوافقون بانتظام على أن أدعو كاتباً للحديث عن كتابه الأخير.

أنظِّمُ أمسيةً لقراءة كتاب بحضور الكاتب. بعضُهم لا يُتقنون القراءة، على الرغم من أنهم يُتقنون الكتابة! ما أقصدُهُ، هو أن ليس كلُّ واحدٍ لديه موهبة القراءة بصوت مرتفع وأن ينقل إيقاع الحكي وحساسيته إلى المستمعين. عندئذٍ تحضر معنا صديقةٌ ممثِّلةٌ لتُعيرَنا صوتَها.

لا أبحثُ عن إحضار النجوم، وإنما أحبُّ أن أستدعي مؤلِّفي الروايات الأولى أو الكُتَّابَ القادمين من أصقاع أخرى، الذين يحملوننا إلى أزقّةِ كلماتهم الغريبة.

كنتُ في ذلك المساء أستقبلُ صلاح الحمداني، شاعر من أصل عراقي، معارض لصدام حسين، منفيّ في فرنسا منذ ثلاثين عاماً.

وكالعادة، جمَعَت جلسةُ القراءة عدداً من الحضور أكبر من طاقة استيعاب الكراسي الصغيرة في المكتبة.

كانت هيلين موجودة بطبيعة الحال، ولكن أيضاً ناثان، الذي كان قد قام باللازم ليعود من باريس مبكِّراً. وكان من بين الحضور أيضاً ليلى ومارتان اللذان كانا قد أطلقَا ماعزهما، وسولانج، من دون زوجها.

وحشدت الأخت ڤيرونيكا معها بضع راهبات من جماعتها اللواتي كنَّ يُشكِّلن ما يشبه سربَ خطاطيف، وكنَّ لا يتوقفن عن التبسّم في وجهي بكلّ رقة ولطف. وأخيراً، غيوم وإيليز، وكانا يجلسان جنباً إلى جنب، فتأثّرتُ لمنظرهما غاية التأثر.

كنتُ أفكِّرُ في الآخرين...

لا بد أن جاك يسير الآن نحو أحد أسمى المعاقل الروحية.

وأين هو طارق الآن؟ يُقاتِلُ في أيِّ بلد؟ كنتُ أتخيَّلُهُ جالساً بين غيوم وإيليز... لكن قَدَرَه لم يقُده إلى هناك...

وباستيان... هل واصل هو وأبوهُ حديثهما الذي توقّفَ بينهما طويلاً؟ ويان، هل غادر هذا العالم؟

تستقر ذكرى باستيان في ركن من أركان حديقتي السِّرِّيّة، مكان لطيف حيث كانت روحي تسرح.

كان صوتُ صلاح الحمداني الدافئ يحملني:

«لا أريد أن أستمر في الانتظار، مع سيلان الجدران

شتاءَ الحرب

أنا، طفل الحيِّ المُهْمَل

المنحوت في الشكِّ والملل

والذي يطارد الضوءَ

في طريق الرجال».

في ذلك المساء، بينما كان ناثان قد نام سريعاً، لم أستطع النومَ فخرجتُ إلى الفِنَاء.

كانت الليلة صافية، لكنها باردة بعض الشيء على الرغم من الحرارة التي سادَتْ في أثناء كل تلك الأيام من شهر سبتمبر. ارتديتُ معطفاً واسعاً التحفتُهُ، وتكوّمتُ فوق كرسيٍّ الاسترخاء، تحت شجرة الميس. ركني المفضَّل.

فكرتُ من جديد في ضيفيَ العراقيّ.

مع ناثان، لم تنقصنا الطاقةُ، لكننا باستثناء مجيئنا إلى أوزيس وشراء المكتبة، فإن أفعالنا لم تُعرِّضنا أبداً للخطر. ما الذي كان يمكن أن يُصيبنا في الواقع؟

أوزيس فضاءٌ مُطَمْئِنٌ. ربما أكثر ممّا ينبغي...

الأخت ڤيرونيكا، وجاك، وطارق، وباستيان، ويان، وآرثور، وليلى، ومارتان... إنهم كثيرون أولئك الذين يرحلون نحو المجهول، من دون حماية، ومضطرين أحياناً إلى أن يستمرّوا إلى آخر الطريق، من دون أي إمكانية للعودة.

لا أحاول أن أجد لنفسي رتبةً في سُلَّمِ البطولة، لأنني أعتقدُ أن كلَّ حياةٍ تمتلكُ في ذاتها تحدّياتها وصراعاتها، فُرَصها لامتحان مقاومتها، وصمودها، لكن أيضاً انفتاحها ورعايتها. غير أني أتساءل ببساطة عمّا يدعوه علماءُ النفس لدينا «منطقة الراحة». ذلك الفضاء، الفيزيقي والزمني، حيث نتحكّمُ في كل شيء. مُطَمْئِنٌ تماماً وقابل للتنبؤ. فضاء حيث لا يمكن أن يصيبنا فيه أمرٌ سيّئٌ، لكن لا شيء أفضل، ولا مختلفاً، ولا جديداً أيضاً.

واليوم، لديَّ الوعيُ أنني أعرف بشكلٍ كبير ما يوجد خلف كلِّ بابٍ من الأبواب التي توجد أمامي. فتحتُها واندرجتُ فيها، غالباً من

أجل مصلحتي، أو أقفلتُها عندما كانت لا تؤدي إلى أيِّ مكان، أو إلى مكان لا أريد أن أذهب إليه.

من المُهِمِّ أن يمتلكَ المرءُ منطقةَ راحةٍ، لكن يجب ألّا تَشغلَ الفضاءَ كلَّهُ، وينبغي أن تصلح لاتِّخاذ ارتكازٍ جَيِّدٍ من أجل انطلاقاتٍ جديدة.

أدينُ بالكثير لأولئك الذين يقصدون المكتبةَ، لأنهم يحملون إليَّ هواء البحر، ومن ثَمَّ ينقلونني بعيداً، إلى أقصى أصقاع العالم، أو إلى اكتشاف كلِّ تلك الطَّيّاتِ في الروح الإنسانية التي لن أكُفَّ عن استكشافها.

كلُّ إنسانٍ حكايةٌ مقدَّسَةٌ. هذا ما أنا مقتنعةٌ به، ولن أتعبَ من الدخول في حوار مع كل واحد ممّن سألتقي بهم في طريقي، لأواصِلَ تصفُّحَ الموسوعة الإنسانية؛ لكنني يجب أيضاً أن أذهب أبعد من ذلك، ألّا أقتصر على الأخذ من الذين يأتون إلى المكتبة، بل أن أجرؤ أنا نفسي على الذهاب.

إن لقائي بسولانج يمنحني الرغبةَ في الانخراط في مغامرةٍ حديقةٍ، ومشْيُ جاك الطويلُ الرغبةَ في أن أَحُجَّ بدوري، وأناشيدُ سولان الرغبةَ في تجربة ما يطرأ عندما يُجذَبُ حبلُ الروحانية، وأن أذهب ذات يوم، ربما، لأنحنيَ أمام الآخر قائلةً «ناماسْتي».

قبل أن أعود للنوم، مررتُ أمام المكتبة.

رأيتُ كتاباً موضوعاً في الرفِّ مقلوباً، ولم أكن أرى ظهرهُ، بل مجموعَ كلِّ صفحاته. أخذتُهُ بين يديَّ لأعدِّلَ وضعَهُ، فاكتشفتُ عنوانَهُ: **مثل رواية** (*Comme un roman*) لدانييل بيناك (Daniel Pennac).

إشارةٌ جميلةٌ في قلب الليل، فهذا الكتاب أجملُ سفير للقراءة أعرفهُ. دعوةٌ للقراءة كيفما اتّفق، من دون قاعدة أو قياس، ومن دون التزام سوى متعة القراءة.

«قُلْ لي ماذا تقرأ، أَقُلْ لكَ مَن أنت».

عندما أتفحَّصُ مكتبةَ شخصٍ يستقبلني في بيته، أستطيعُ أن أعرف عن مُضيفي من المعلومات أكثر ممّا كنتُ سأعلم عنه لو أنه حدّثني عن نفسه الساعات الطويلة.

قد يكون من المفيد أن يُجمع بين قرّاء كتابٍ بعينه. لا بد أنهم سيكونون متشابهين، ويتأثرون بالعواطف ذاتها، وتستثيرُ غضبَهم المصادرُ نفسُها. توجد جماعاتٌ تجهلُ نفسَها خلف كلِّ كتابٍ من الكتب.

أعرفُ أن في مكتبتي، تكثر الآثارُ الإنسانيةُ التي يبحثُ بعضُها عن بعض، وأحياناً تتلاقى بفضل قراءة كتاب.

هذه العَيِّنةُ ليست ممثِّلةً مطلقاً، لكنَّ الإنسانيةَ الصغرى هي التي تُشكِّلُ العالم الذي أعيشُ فيه.

للكتب أذرعٌ كبيرة تنفتحُ مع الصفحات.

تستقبلُ الأعينَ التي تقع فوقها. وتتبنّى، مدّةَ قراءةٍ، الأيادي التي تمسكُ بها، ثخينةً، خشنةً، أو معتنى بها، ناعمة، بيضاء أو سمراء، ذات تجاعيد أو شابّة.

تنتظرُ الكتبُ ذلك التبنّي، وتعرف كيف تردُّ الجميلَ لمن يُحبُّها فتمنحُهُ غالباً ما يطلُبُهُ: الحنان، والعاطفة، والرعشة، والغرائبية، والذكاء، ومعالم جديدة لفهم هذا العالم والقدرة على العيش فيه.

منذ اليوم الذي يُنشَرُ فيه، يصير الكتابُ مُلْكاً لكلٍّ واحد من قرّائه وليس لمؤلِّفِهِ فحسب.

الكتابُ عابرٌ للحدود. تمنحُ الكلماتُ الأولى في صفحته الأولى مفاتيحَ عالم جديد، كان مجهولاً قبل فتح الكتاب، ويتكشَّفُ في كون عقولنا المُتَخَيَّل.

واليوم أعلمُ أيضاً أن الكتب تخلق روابطَ تُحرِّرُ.

مع كلّ واحد من أولئك الذين ولجوا بابَ مكتبتي الصغيرة، وُلِدَتْ قصةٌ.

غداً صباحاً، ربما سينفتح بابي عن بدويٍّ فيلسوفٍ، أو نحّاتٍ مصريٍّ، أو فارسةٍ مسافرة، أو باحث عن المنابع من الغاريك، أو أميرٍ روسيّ...

أنتظرُ صباحَ الغد بفارغ الصبر...

فوق رفوف مكتبة ساحة الأعشاب...

كلُووي

Quatre-vingt-treize
Victor Hugo

À la recherche du temps perdu
Marcel Proust

Les Contemplations
Victor Hugo

La Ferme africaine
Karen Blixen

Les Yeux dans les arbres
Barbara Kingsolver

Les Fleurs du mal
Charles Baudelaire

Le Quatrième Mur
Sorj Chalandon

Roméo et Juliette
William Shakespeare

La Princesse de Clèves
Marie-Madeleine de La Fayette

Héloïse et Abélard
Roger Vailland

L'Encyclo des filles
Sonia Feertchak

Un taxi mauve
Michel Déon

L'Échappée belle
Anna Gavalda

Le Roman de Thèbes
Anonyme

Voyage avec l'absente
Anne Brunswic

Cinq méditations sur la beauté
François Cheng

Immortelle randonnée
Jean-Christophe Rufin

La Vie d'une autre
Frédérique Deghelt

L'Hôpital maritime
Pascal Ruffenach

La Cause humaine
Patrick Viveret

La Libellule et le Philosophe
Alain Cugno

Mon amie, c'est la finance
Gaël Giraud

Big Sur
Jack Kerouac

L'Homme qui marche
Christian Bobin

Vingt Poèmes d'amour
Pablo Neruda

L'origine de nos amours
Erik Orsenna

Cinq méditations sur la mort – autrement dit sur la vie
François Cheng

فيليب

Le Chant des pistes
Bruce Chatwin

Tristes tropiques
Claude Lévi-Strauss

Les Hommes du long nuage blanc
Keri Hulme

L'Île
Robert Merle

Carnets de voyage
Titouan Lamazou

Le Juge Ti
Robert Van Gulik

Peuples chasseurs de l'Arctique
Roger Frison-Roche

ليلى

Vies voisines
Mohamed Berrada
Notre ami le roi
Gilles Perrault

Regain
Jean Giono

Magellan
Stefan Zweig

Zoli
Colum McCann

Des jardins et des hommes
Gilles Clément

Elles accouchent et ne sont pas enceintes
Sophie Marinopoulos

باستيان

L'Homme qui plantait des arbres
Jean Giono

L'Homme-joie
Christian Bobin

L'Abyssin
Jean-Christophe Rufin

Soie
Alessandro Baricco

La Beauté du monde
Michel Le Bris

Désert
Jean-Marie Le Clézio

L'Africain
Jean-Marie Le Clézio

La Voie royale
André Malraux

طارق

Winter
Rick Bass

Lobo, le roi des loups
Ernest Thompson Seton

Premier de cordée
Roger Frison-Roche

Le Château de ma mère
Marcel Pagnol

الأخت ڤيرونيكا

Le Livre de Kells
Bernard Meehan

Les Poèmes de guerre et d'après-guerre
Ernest Hemingway

On reconnaît le bonheur au bruit qu'il fait en s'en allant
Marie Griessinger

آرثور

Le Rivage des Syrtes
Julien Gracq

Les Tisserands
Abdennour Bidar

Au doigt et à l'œil
Françoise Huguier

Mémoire de fille
Annie Ernaux

L'Empire du taureau
Catherine Paysan

سولانج

Manuel des jardins agroécologiques
Pierre Rabhi

Itinéraires d'un jardinier
Pascal Cribier

Alternatives au gazon
Olivier Filippi

L'Homme qui voulait être heureux
Laurent Gounelle

Chimères
Nuala O'Faolain

Les Heures
Michael Cunningham

Mrs Dalloway
Virginia Woolf

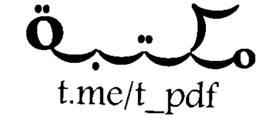
La Maison du retour
Jean-Paul Kauffmann

Les Chutes
Joyce Carol Oates

خاتمة

Le Balayeur du désert
Salah Al Hamdani

Comme un roman
Daniel Pennac



إيريك دو كيرميل

مكتبة ساحة الأعشاب

«لأن الكتاب، الكتاب الحقيقي، يَهُزُّكَ من الداخل. يُوقِظُ فيكَ مملكةَ الرغبات، وشَعْبَ الممكنات، وجيشَ «لِمَ لا؟» المُتَمَرِّدَ».

تجاوزْ عتبةَ مكتبة ساحة الأعشاب، واستسلِمْ لسحر مكان يتغنّى بالكتب، والقُرّاء، والمكتبات. ادخلْ هذا المكان الذي يغمره الدفءُ، والنورُ، والتشاركُ، واذهبْ برحلة إلى عالم الكتب حيث «كل قراءة هي سَفَرٌ وعشق» وكل مكتبة هي «مكانٌ يخلق روابط».

تحكي لنا ناتالي، أستاذةٌ سابقةٌ حقّقت حلمها وأصبحت كُتبِيّة في قرية صغيرة، قصّتَها وقصص زبائنها: حبّهم وصداقاتهم، مصالحاتهم الأسريّة، شكوكهم، تأملاتهم الحياتية وتطلّعاتهم الروحية... تروي ناتالي، تارةً كاتمةَ سرٍّ وتارةً مرشِدة، مسارات هذه الشخصيات المختلفة، وتكشف لنا عن ثقافتها الأدبية، ما يجعلنا نتعرّف إلى العناوين التي تحبّها ونتذكّر أهمية الكتب وما تحمله لنا من متعة عظيمة.

تأخذنا هذه الرواية الجميلة إلى رحابة التصالح مع الذات ومع الآخرين، فهي ليست مديحاً صادقاً للقراءة فحسب، بل مديحاً للحياة نفسها، وخير دليل، إن كان الأمر يحتاج إلى دليل، على أنّ الكتب تُلهِمُنا وتجعل حياتنا أمتع، ومعرفتنا بالناس أعمق. فهيا، **قُلْ لي ماذا تقرأ، أقُلْ لكَ مَن أنت...**

إيريك دو كيرميل، كاتب وصحافي وناشر مجلاتٍ عن الطبيعة. عاش شبابه بين المغرب وأميركا الجنوبية، قبل أن يعود ويستقرّ في الريف الفرنسي. أبٌ لأربعة أطفال، يكرّس كلماته لخدمة الطبيعة والإنسان، ويناضل من أجل عالم ألطف وأكرم لساكنيه.

ISBN 978-9953-68-943-2







الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com